الأدب المصري
في
ظل الحكم العثماني

٩٢٢ هـ - ١٢٢٠ هـ = ١٥١٧ - ١٨٠٥ م

تأليف
محمد سيد كيلاني

دار الفرجاني
القاهرة - طرابلس - لندن

مقدمة

قال جورجى[1] زيدان عن الأدب فى العصر العثمانى : « فسدت ملكة اللسان ، وجمدت القرائح . وأصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية فى هذا العصر من الضعف والانحطاط لما استولى من الجمود على القرائح ، وتوالى على الأمة من الذل فى تلك الفترة المظلمة . وأصبح الكاتب أو الشاعر إنما يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع ، حتى خرجوا بذلك عن الذوق المألوف ، فأضاعوا أوقاتهم فيما لافائدة فيه من الصنائع اللفظية . فذهبت المعانى ضحية تلك الأساليب الباردة . ويشبه ذلك مبالغة أهل زماننا هذا بتزيين ظواهر المرأة بالأزياء الجديدة حتى خرجوا بها عن الغرض الأصلى من خلقتها ، فأصبحت مثل سائر أدوات الزينة ، إنما يلتفت فيها إلى شكلها الخارجى . وكثيرا ما جر اجتهادها فى ذلك إلى الوقوف فى سبيل وظيفتها الطبيعية فى جسم العمران . وهكذا اللغة فى العصر العثمانى بعد أن كان المراد بالألفاظ التعبير عن المعانى وتصوير الأفكار ؛ اشتغل الكتاب بتنميق الألفاظ وأضاعوا المعانى »

* * *

ومن هذا نرى أن جورجى زيدان حكم على الأدب العربى كله من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، ومن شمال العراق إلى جنوب اليمن بأنه كان أدبا منحطا متكلفا ، لا أثر للحياة فيه .

وتابع جورجى زيدان فى هذا الحكم كل من جاء بعده من الكتاب الذين تعرضوا لهذا العصر . وقد صورت الكتب المدرسية العصر العثمانى فى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٤ / ٢٧٣ طبع سنة ١٩١٣

صورة بشعة . فلا عجب أن سرى اعتقاد راسخ فى الأذهان ، مضمونه أن العصر العثمانى لا يستحق الدرس والبحث ، وأنه خلو مما يصح أن يطلق عليه اسم الأدب ، ولم ينجب من الشعراء من يستحق اسم الشاعر ، ولا من الكتاب من تجوز نسبته إلى الكتابة .

وترتب على هذا الحكم الخاطىء ، حكم آخر مضحك وقع الناس فيه حين درسوا الأدب الحديث . فهم مثلا يقولون إن محمود سامى البارودى أول من أحيا دولة الشعر بعد العدم ، وخلص القصيد مما علق به من قيود الصنعة اللفظية كالجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها . ويزعمون أنه أعاد إلى الشعر العربى ديباجته التى أخلقت إبان العصر العثمانى . ويمدحونه لأنه رجع إلى أساليب القرن الرابع ، جاهلين أو متجاهلين أن لكل عصر أساليبه ، ولكل بيئة ألفاظها وتعابيرها وموضوعاتها وما توحى به .

* * *

وكان من الممكن أن أصدق هذه الأحكام التى صدرت ضد أدب هذا العصر كما صدقها الناس ، وآخذها قضية مسلما بها ، لا تقبل الجدل والمناقشة كما فعل غيرى ، وأن أختار موضوعا آخر لأكتب فيه ، فما أكثر الموضوعات التى تحتاج إلى الدرس والاستقصاء . ولكنى بدافع من حب الاستطلاع شرعت اقرأ بإمعان ما وقع فى يدى من الآثار الأدبية التى تركها أدباء مصر فى تلك الحقبة . فراغنى ما اتضح لى من فساد الأحكام التى أصدرها جورجى زيدان ومن تابعه .

وازداد اعتقادى يوما بعد يوم بوجوب دراسة أدبنا فى هذه الفترة . وتبلورت فى ذهنى الفكرة ، وتجمعت لدى المعلومات ، وقطعت فى القراءة مرحلة طويلة ، لم أتردد بعدها فى أن أجعل من دراسة هذا العصر موضوعا لهذا الكتاب .

* * *

أما المنهج الذى سلكته فهو :

تمهيد عن الحالة السياسية منذ أواخر حكم السلطان الغورى إلى دخول العثمانيين مصر ، وما استحدثوه من أنظمة جديدة للحكم . وتتابع الولاة ، وما طرأ على سلطتهم من ضعف ، وظهور المماليك على مسرح الحكم من جديد. وأشرت إلى بعض الفتن التى وقعت وعرضت للحملة الفرنسية وظهور محمد على .

ثم درست الحالة الاجتماعية من حيث علاقتها بالأدب شعره ونثره . وتناولت الحالة الفكرية ، وما أسدته مصر إلى العالم الإسلامى من خدمات ثقافية فى ذلك الوقت . وبهذا ينتهى الباب الأول .

وفى الباب الثانى تكلمت عن الشعر وأساليبه . وبينت بالأدلة القاطعة مبلغ الخطأ الفاحش الذى علق بالأذهان عن أساليب الشعر فى تلك الفترة . ثم درست بيئات الشعر . فخصصت فصلا للمدرسة البكرية ، وآخر للمدرسة العلوية ، وثالثا للمدرسة الأميرية ، وهى تشمل الشعر الذى قيل فى السلاطين والولاة والأمراء من مدح أو هجاء أو رثاء . ووضحت موقف الشعراء المصريين : هل كانوا بجانب الشعب أم كانوا مع الظالمين؟ وبعد هذا أفردت فصلا للشعر الشعبى ، وهو الذى نبع من صفوف الشعب ، وعبر عن آماله وآلامه ، وأفراحه وأحزانه .

وقصرت الباب الثالث على دراسات تكميلية فى الشعر . تناولت فيه الأغراض التى أكثر الشعراء من القول فيها كالغزل ، والوصف ، والإخوانيات . وقد حرصت على توضيح آثار البيئة المصرية ، وإظهار معالمها فى كل ما تناولته .

أما الباب الرابع فيحتوى على تراجم لبعض مشاهير شعراء ذلك العصر

وفى الباب الخامس دراسة للنثر على اختلاف أنواعه . فهناك النثر الفنى الذى ورثه أدباء العصر العثمانى عن القدماء . وهناك المقامات التى كثرت فى تلك الحقبة واستخدمت فى شتى الأغراض . وهناك الرسائل ، ونقد المجتمع ،

ولغة التأليف . والأدب الشعبي وأقصد به القصص التي ألفت في ذلك العصر كسيرة الظاهر بيبرس ، والأميرة ذات الهمة .

وترجمت لعدد من الكتاب ، والعلماء ، والمؤرخين ، وأصحاب السير .

* * *

وغني عن الإشارة أن الأدب المصري في العصر العثماني لم يكن منحطاً ولا ميتاً كما قالوا . ولم يكن هم الشعراء والكتاب الجري وراء المحسنات اللفظية كما زعموا . بل كان أدباً حياً ، له أهداف يسعى إليها ، وأغراض يتجه نحوها .

فالمدرسة البكرية جديدة في بابها ، فريدة في نوعها ، لاعهد للمصريين بها من قبل . والتعاليم البكرية التي تقوم عليها تلك المدرسة تعاليم غريبة لم تعرفها مصر إلا في خلال العصر العثماني . فقد جعل البكريون من أبي بكر الصديق شخصية تقابل شخصية الإمام علي عند الشيعة الإسماعيلية . وقد شجعت الدولة العثمانية تلك الحركة خدمة لسياستها ، ومنحت شيوخ السادة البكرية سلطة واسعة ، ونفوذاً محترماً .

والمدرسة العلوية وإن كانت قديمة إلا أنها اختفت منذ سقوط الدولة الفاطمية . وقد رجعت إلى الحياة مرة أخرى خلال هذا العصر .

* * *

وإن الشعر الكثير الذي قيل في وصف الحدائق والبساتين ، والبرك والدواليب ، ونهر النيل والخليج ، والأزبكية وبولاق ، والروضة وبركة الرطلي ، والقصور والطيور ؛ لم يكن متكلفاً مصنوعاً ، بل هو شعر له طابع أصيل في الفن الشعري . ينبض بالحيوية ، ويزخر بالعواطف الصادقة ، والأحاسيس الناطقة ، والمشاعر المتدفقة .

لقد اندمج الشعراء فى هذه البيئة الفاتنة ، وارتموا بين أحضان الطبيعة على شواطىء بركة الأزبكية ، والخليج ، وبركة الرطلى ، وفى جزيرة الروضة، وعلى شاطىء النيل العظيم ببولاق . وارتبطوا بهذه الأماكن ارتباطاً وثيقاً حتى أضحوا لايطيقون لها فراقاً،ولا يرون العيش إلا فى ظلالها وبين أشجارها وطيورها.وإذا اضطر أحدهم إلى الابتعاد عن القاهرة نظم القصائد فى الشوق إلى تلك الأماكن . وإنك لتجد فى شعره ألم الفراق ، ولوعة الاغتراب . وفى سيرة الظاهر بيبرس ترى المجتمع المصرى ممثلا أوضح تمثيل .

* * *

وإنى أحمد الله الذى وفقنى إلى الكشف عن الأدب المصرى فى تلك الفترة الطويلة ، وإزاحة الستار عما أحاط به من إهمال وجهل وغموض ، وتصحيح الأحكام الخاطئة التى صدرت ضده . وهذا هو الأصل فى تأليف الكتب ، أى أن يكون هدفها كشف شىء جديد ، وإضافة معلومات كان الناس يجهلونها إلى معلوماتهم التى يعرفونها .

وفى نهاية هذا الكتاب يجد القارىء جملة من قصائد بعض شعراء مصر فى ذلك الحين . وبمطالعتها نتبين مكانة الشعر إذ ذاك ، ومقدار مالحقه من الغبن والجحود،نتيجة للأحكام الخاطئة التى صدرت ضده من قوم لم يكلفوا أنفسهم مئونة الدرس والبحث .

وإنى لا أدعى أنى وصلت فى بحثى إلى درجة الكمال ، ولكنى أستطيع أن أقول — بلا فخر — إنى فتحت الباب على مصراعيه ليدخل منه كل من أراد الدخول ، والله المعين والموفق إلى الصواب ؟

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٦٥ محمد سيد كيلانى

الباب الأول

الفصل الأول

الحالة السياسية

كان السلطان قانصوة الغورى يحكم مصر قبل الفتح العثمانى . وفى عهده كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت تجارة أوربا إلى هذا الطريق بعد أن كانت تمر بمصر . فخسرت البلاد من جراء ذلك أموالا باهظة كانت تجبيها على تلك التجارة. فلا عجب أن ساءت الأحوال الاقتصادية إلى حد كبير . فاضطر الغورى إلى إثقال كاهل الشعب بالضرائب ، وبالغ فى مصادرة أموال الأعيان والتجارحتى لم يسلم منه أحد، ومات تحت عقوبته بسبب المال كثيرون . وشرع يغتصب أموال اليتامى ، ويولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ويقررعليهم الأموال الباهظة، فيأخذ هؤلاء من الفلاحين أضعاف مايدفعونه للسلطان . حدث هذا فى مصر والشام ، فتمنى الناس الرحيل عن بلادهم من شدة الظلم .

وانعدم وجود البضائع التى كانت ترد من أوربا . ثم إن الغورى فرض ضرائب باهظة على كل ما يباع ويشترى ، فارتفعت أسعار الحاجات ارتفاعاً فاحشا .

وكان يبيع الوظائف للناس نظير مبالغ طائلة حتى وظائف القضاء .

وينفق مايجمعه من الأموال فى بناء القصور الفخمة . قال ابن[١] إياس « ولو شرحنا مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك » .

وخربت الثغور وأقفرت من أهلها ، قال ابن[٢] إياس يصف مدينة الإسكندرية سنة ٩٢٠هـ « فتلاشت المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل إن الخبز طلب بها فلم يوجد ولا الأكل » .

وكانت سياسته الخارجية فاسدة كذلك . فحينما نشب النزاع بين شاه إيران إسماعيل الصفوى وبين السلطان سليم ؛ انضم الغورى إلى الشاه وكاتبه وتبادل معه الهدايا .

ومن أخطائه الكبرى خروجه لمحاربة العثمانيين فى أطراف الشام . فتكبد جيشه المتاعب ، فضلا عن أن أهل الشام كانوا يضمرون له العداء . فانحاز قائداه خيرى بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب حماة إلى السلطان سليم الذى وعد الأول بولاية مصر ، والثانى بولاية الشام . فدارت الدائرة على الجيش المصرى بسبب هذه الخيانة ، وبسبب تخاذل المماليك . فانهزم المصريون فى « مرج دابق » قرب حلب وقتل الغورى . وقد نظم شعراء مصر فى تلك الوقعة شعرا كثيرا ، ومنهم من عرض للمظالم التى ارتكبها الغورى وجعلها عاملا حاسما فى هزيمته . قال ابن إياس[٣] :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى   مذ تزايد ظلمه فى القاهره
زال عنـــه ملكه فى ساعة   خسر الدنيا إذن والآخره

وقال :

لازالت الأيام يبدو فعلها   بعجائب وغرائب بين الورى
والأشرف الغورى كان مليكنا   لكنه قد جار فينا وافترى

(١ ، ٢) بدائع الزهور طبع استانبول ٥/ ٩٠، ٤٢٤/٤
(٣) ٥ / ٢٠ وما بعدها .

والموت أوجب هزمه مع جيشه قد كان ذلك فى الكتاب مسطرا
أعماله ردت عليه بما جنى والدهر جازاه بأمر قُدِّرا

وقال بدر الدين الزيتونى من قصيدة زجلية طويلة :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طالعساير
وبهذا رب السما قد حكم والفلك دار ولم يزل داير

ثم انطلق السلطان سليم قاصداً مصر فى آخر سنة ٩٢١ (١٥١٧) وكان المماليك قد اختاروا الأمير طومانباى سلطاناً على البلاد . وبعد مقاومة لم تدم طويلا انهزم السلطان الجديد وشنق على باب زويلة . وفى ذلك يقول ابن إياس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ومصيبة عمت بليتها الورى

ومنها وفيه إشارة إلى شنق طومانباى:

شنقوه ظلماً فوق باب زُويلة ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب عفوا عن عظائم جرمه واجعل بجنات النعيم له قِرى

وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية . قال محمد بن قانصوة :

كانت فى مصر ملوك أظهروا فيها العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيها خرائب
وهى أضحت بعد عز قرية فى حكم نائب

ولما تم للعثمانيين فتح مصر جمع السلطان سليم عددا كبيراً من أرباب الصناعات وبعثهم إلى الأستانة . كما أنه نقل مقادير كبيرة من الرخام والأعمدة والكتب النفيسة . قال ابن إياس :

لهفى على سوق الصليبة كيف قد خربت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله من كل بيت كان يغدو أزهرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على أم القرى

فتهدمت أحياء كثيرة كانت عامرة مثل حى الصليبة ، وشيخون والحسينية .

* * *

وكان خيرى[١] بك أول ولاة العثمانيين بمصر . وقد اشتهر بالعسف والظلم . ومات سنة ٩٢٨ هـ ثم تعاقب الولاة على مصر . وحاول أحمد باشا الذى تولى سنة ٩٣٠هـ أن يستقل بحكم البلاد . فأمر أن يخطب له، وضرب النقود باسمه ، ولكنه بالغ فى الظلم فحقد عليه الناس ، وأخيراً تمكن بعض قواد الجيش العثمانى فى مصر من القضاء على حركته . ثم شنق على باب زويلة سنة ٩٣١هـ .

وكان بعض الولاة العثمانيين على درجة طيبة من الاستقامة وحسن السيرة . ومن أشهر هؤلاء الولاة :

داود باشا الخادم الذى حكم من سنة ٩٤٥ — ٩٥٥ وكان كريما محبا للعلم والعلماء ، مغرما بمطالعة الكتب العربية حتى إنه جمع عددا وافرا منها . وفى أيامه انتشر الأمن وساد الرخاء . وقد بنى مدرسة عظيمة . ومات بالقاهرة ودفن بها .

وسنان باشا (٩٧٩ — ٩٨١) وكان مغرما بإقامة المبانى فأنشأ عدة مساجد ومدارس وحمامات وأسواق .

ومسيح باشا (٩٨٢ — ٩٨٨) الذى ضرب بيد من حديد على اللصوص وقطاع الطرق ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وبذلك تطهرت البلاد من شرهم ، واستراح الناس من أذاهم .

---

(١) لطائف أخبار الدول للاسحاقى ص ٧٠ وما بعدها . المطبعة البهية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ

وقد أبقى السلطان سليم على المماليك فخربوا البلاد وأفقروها . ولو أنه استأصل شأفتهم لتمتعت مصر بالهدوء والسكينة ، ولأمكنها أن تسترد حريتها واستقلالها بأيدى أبنائها .

* * *

وقد ظل الولاة العثمانيون محتفظين بسلطانهم وهيبتهم إلى سنة ١١١٩ هـ حيث اختفت قوتهم ، وحل محلها نفوذ شيخ البلد . وكان يشغل هذا المنصب أحد بكوات المماليك الذين انقسموا فى ذلك الوقت إلى حزبين كبيرين : أولهما يعرف بالقاسمية ، نسبة إلى قاسم بك . والثانى الفقارية ، نسبة إلى ذى الفقار بك

واشتهر القاسمية بكثرة المال والبخل . والفقارية بالكرم . واتخذ القاسمية اللون الأحمر شعارا لهم ، والفقارية اللون الأبيض . وتعصب كل منهم للون الذى يميل إليه حتى فى أوانى الأكل والشرب . وقد اشتد النزاع بين هذين الحزبين على مشيخة البلد ، وكثرت بينهما المعارك والفتن والدسائس . وكان الولاة يشجعون ذلك ، ويسعون فى الإفساد بين الطرفين طمعا فى استرداد نفوذهم .

ومن أشهر مشايخ البلد « إسماعيل[1] بك » رئيس حزب القاسمية الذى بقى فى المشيخة إلى سنة ١١٣٦ وذلك بفضل اتحاده مع الفقارية ، ولكن الوالى العثمانى اجتهد فى إثارة الفتنة بين الحزبين فانتهى الأمر بقتل إسماعيل بك. ثم أخذت المعارك تلعب دورها حتى انتصرت الفقارية انتصارا تاما وقضت على القاسمية ، وكان ذلك سنة ١١٤٢ هـ

ومن الفقارية ظهر على بك[2] الكبير سنة ١١٧٧ وقد سعى للاستقلال بمصر وتكوين إمبراطورية تتألف من مصر والشام والحجاز ، وكاد ينجح فى مساعيه لولا ماقام به العثمانيون من خلق الدسائس بينه وبين تابعه محمد بك

(١ ، ٢) الجبرتى ١ / ٤٠ ، ١ / ٢٥٢ طبع بولاق

أبى الذهب . وانتهت هذه الدسائس بقتل على بك . ثم لم يلبث أبو الذهب أن مات بعد قليل ، فآلت مشيخة البلد إلى إبراهيم بك ، وإمارة الحج إلى مراد بك . فظهر بينهما تنافس كاد يؤدى إلى الحرب .

وفى ذلك الوقت رأى العثمانيون[1] ضرورة استرجاع نفوذهم فى مصر بعد أن تلاشى تماما ، فأرسلوا حملة وصلت إلى الإسكندرية سنة ١٢٠٠ ﻫ وبعد قتال يسير انهزم المماليك فى الرحمانية وفروا إلى الصعيد . إلا أن العثمانيين لم يستفيدوا من هذا النصر لاشتباكهم فى حرب ضد روسيا واضطرارهم إلى سحب جيشهم من مصر . فعاد مراد وإبراهيم إلى القاهرة واستردا نفوذهما وأمعنا فى ابتزاز أموال الأهلين وإيقاع المظالم بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية الفرنسية .

وفى سنة ١٢١٣ ﻫ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد استغل بونابرت رغبة الدولة العثمانية فى القضاء على المماليك حين أرسلت جيشها سنة ١٢٠٠ لتحقيق هذه الغاية . فأعلن فى منشوره إلى المصريين أنه إنما جاء للقضاء على طائفة المماليك الظلمة ، وليعيد مصر إلى نفوذ السلطان . كما أن المماليك اعتقدوا أن السلطان أراد أن يقضى عليهم هذه المرة بوساطة الفرنسيين . وإذا كان المماليك قد انهزموا من قبل أمام العثمانيين ، فإنهم انهزموا كذلك هزيمة شنيعة أمام الفرنسيين الذين ظلوا يحكمون مصر إلى سنة ١٢١٦ ﻫ حيث تم جلاؤهم عن البلاد .

وقد كثرت القلاقل والاضطرابات عقب جلاء الجيش الفرنسى ، واستمرت الأحوال تسير من سيء إلى أسوأ حتى تولى محمد على حكم مصر سنة ١٢٢٠ ﻫ وقد حاول المماليك أن يستردوا نفوذهم الضائع مستعينين بالإنجليز ، ولكنهم باءوا بالفشل .

* * *

ولما استتب الأمر للعثمانيين شرعوا يدخلون نظما جديدة فى القضاء لا عهد

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٠٥ .

للمصريين بها من قبل. فصدر أمر إلى القضاة بأن يحكموا فى بيوتهم. ثم عينوا[١] أميرا عثمانيا فى وظيفة القضاء وجعل مقره بالمدرسة الصالحية، وأطلق عليه لقب « المحضر » يعاونه على تنفيذ الأحكام جماعة من الإنكشارية. وتقرر ألا تنفذ الأحكام الشرعية قبل عرضها عليه. وكان يحصل على رسوم من المدّعِى والمدّعى عليه، ويحقق معهما بوساطة ترجمان. وحكمه نهائى لا نقض فيه ولا إبرام.

ثم فرضوا رسوماً على المحاكمات التى تجرى عند القضاة الآخرين. قال ابن إياس معلقاً على تلك الحوادث « وقد ضعفت قوة الشرع الشريف فى هذه الأيام جداً » والحق إن قوة الشرع كانت ضعيفة منذ عصر المماليك. فقد كان القضاة يدفعون مبالغ طائلة للسلطان نظير تعيينهم. ولم يفعلوا ذلك إلا لثقتهم فى المغانم والأرباح التى تعود عليهم من هذه الوظائف. وقد ذكر ابن إياس هذا فى تاريخه، وأتى بما يندى له الجبين. وعلى كل حال فإن هذه الأنظمة الجديدة قد سببت ضيقا وتبرما عند المصريين. قال أحد شعراء ذلك العصر:

يارب زاد الظلم واستحوذوا ... والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا إلاك فانظر لنا ... ونجنا منهم وخذهم إليك

وقال ابن إياس:

لهفى على الشرع الشريف وحكمه ... قد كان فى زمن القضاة موقرا
يالهف قلبى للشهود بمجلس ... كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر إنها لمصيبة ... وقعت بعصر مالها مثل يُرى

وقال آخر:

كان شعار الدين ظاهر كالشموس ... والمجالس من الشهود فى الجلوس

(١) ابن إياس ٥/ ٢٢٠ وما بعدها.

شبه أقمار ترتاح إليها النفوس   هم جمال الإسلام وقمع القسوس
اختفت ذى الشموس بظلم النهار
وقضاة الإسلام محى رسمهم   والشهود اختفوا وضاع اسمهم
صار على العقد جاليه وسمهم   وقضاة القضاة بترسيمهم
طول النهار مع الأمين فى حصار

وفرض العثمانيون(١) تحصيل رسوم على عقود الزواج وقضايا الطلاق . وقرروا أن تجرى شئون الزواج والطلاق على يد أحد القضاة فى منزله . فتضرر المصريون من ذلك ، ثم أبطلوا نواب القضاة والشهود فأقفرت منهم المدرسة الصالحية . وقد احتج الفقهاء على نظام الزواج والطلاق الجديد ، ولكن احتجاجهم لم يأت بنتيجة . وفى سنة ٩٢٨ هـ عين السلطان سليمان قاضيا يلقب بقاضى العسكر ومنحه سلطة واسعة تشبه سلطة وزير العدل الآن . فكان يتولى تنصيب القضاة وعزلهم . وأمرهم أن يتخذوا المدرسة الصالحية مقرا لهم كما كانت الحال من قبل. ولا تعتبر أحكامهم نافذة إلا بعد مصادقته عليها . وعين كذلك قاضيا للمواريث سماه « قاضى الترك » ومشرفا على أوقاف الجوامع والمدارس . وقد أصدر هذا القاضى أمرا بمنع النساء من الخروج إلى الأسواق ماعدا العجائز فقط . ومنعهن من ركوب الحمير . وفرض عقوبة صارمة على كل من تخالف ذلك « ووقعت منه أمور (٢) شنيعة ماتقع من الجهال والمجانين » وكان كما وصفه ابن إياس « طاعنا فى السن أعور ، ذا لحية بيضاء ، قليل الرأسمال من العلم ، أجهل من حمار ، لايدرى شيئا فى الأحكام الشرعية . وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشىء » لذلك كان موضع دعابة المصريين وسخريتهم . وقد هجاه بعض الشعراء ، فمن ذلك قول أحدهم :

(١ ، ٢) ابن إياس ٥/٤٦٢

رأيت مسيحاً أعورا قبل موتنا   أتى من بلاد الروم يمنع رزقنا
يقدم قانوناً على شرع أحمد   فنسأل رب العرش يكشف كربنا

وقال ابن إياس :

رأيتك لا ترى إلا بعين   وعينك لا ترى إلا قليلا
فإن تك قد أصبت بفرد عين   فخذ من عينك الأخرى كفيلا
فقد أيقنت أنك عن قريب   إذن بالكف تلتمس السبيلا

* * *

ثم شرعوا فى مسح الأراضى الزراعية بما فى ذلك الأوقاف وفرضوا عليها الضرائب الفادحة ، فرحل الفلاحون عن قراهم . قال ابن إياس :

كان ابن عثمان مذجا مصر مثل الضيف   رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف   أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف

وكان المصريون يحرصون على اقتناء الكلاب للحراسة من اللصوص وقطاع الطرق . فصدر سنة ٩٣٤ هـ أمر وصفه ابن إياس بأنه حادث غريب . وهو أن الوالى العثمانى أمر بقتل الكلاب ، فوقعت فيها مقتلة عظيمة حتى كادت تفنى . وفى ذلك يقول ابن إياس :

تأملوا ما جرى بمصر   من حادث عم بالعذاب
فما رعى الترك فى دماء   فكيف يرعون دم الكلاب ؟

فلما كثر قتل الكلاب توجه الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى الوالى ورجاه أن يصدر أمره بعدم التعرض للكلاب . فأجاب الوالى هذه الرغبة ، ودعا الناس للزينى بركات ، وسكن الاضطراب الذى حدث بسبب هذا الموضوع .

* * *

وعلى الرغم من أن مصر كانت ولاية عثمانية فإنها حافظت إلى حد كبير

على مكانتها بين العالم الإسلامى . فكانت كعبة طلاب العلم ، إليها يفدون من مختلف البقاع الإسلامية حيث يجدون فى الأزهر أروقة خاصة ، لكل طائفة رواق له أوقاف ، فيسكنون ويأكلون ويدرسون ، ثم يعودون إلى بلادهم بعد أن ينالوا نصيبا من الثقافة . وسنرى ذلك مفصلا واضحا عند الكلام على الحالة الفكرية .

وكان المحمل يخرج من مصر إلى الحجاز ، كما أن مصر كانت ترسل إلى الحجاز مقادير كبيرة من الحبوب ، ومبالغ من المال لتوزع على الفقراء وأبناء السبيل .

وكانت العلاقات التجارية والثقافية وثيقة بين مصر وشمال أفريقية . وقوافل الحجاج والتجار تمر بمصر فى طريقها إلى الحجاز . كما أن العلاقات كانت وثيقة جدا بين مصر والشام ، وبينها وبين جزيرة العرب .

وهناك علاقات تجارية بين مصر وجنوب أوربا . فالسفن تصل إلى مصر محملة بالبضائع الأوربية حيث يتم استبدالها بالمحاصيل المصرية . وكانت تقيم بالقاهرة والإسكندرية بعض الجاليات الأوربية ، من أفرادها من يعمل فى الصناعة وبخاصة مايتعلق بشئون المبانى وإصلاح الساعات ، ومنهم من يشتغل بالتجارة ، ولهم أحياء خاصة بهم . وكان لبعض الدول قناصل فى القاهرة والإسكندرية .

* * *

وقد وقف الشعب المصرى من العثمانيين فى بدء الاحتلال موقف السخط والتبرم ، وذلك لما أحدثوا من أنظمة جديدة فى القضاء وفيما يتعلق بالزواج والطلاق . ولكن حدة هذا السخط أخذت تخف بالتدريج ، واستطاع الولاة الذين عرفوا بالعدل والاستقامة أن يقضوا على سخط المصريين وكراهيتهم للحكم العثمانى .

وكذلك كان مسلك الجنود العثمانيين فى بدء الاحتلال من أكبر دواعى نفور

للمصريين من الحكم الجديد . فكانوا يقطعون الطريق في البر والبحر وينهبون كل ما وجدوا من البضائع . وظلت حوادث اعتداء الجنود على الناس تقل وتكثر تبعا للظروف ، ولكنها لم تنقطع طوال العصر العثماني . ويبدو أن المصريين نظروا إليها على أنها حوادث فردية لا علاقة للدولة بها .

* * *

وقد كان اشتباك الدولة العثمانية في حروب دائمة مع المسيحيين من العوامل الرئيسية التي أكسبتها قلوب المسلمين في مصر وفي غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ اعتبرت حامية الإسلام ، والذائدة عن المسلمين . وقد كسب السلطان العثماني منزلة مقدسة لا في قلوب المصريين فقط، بل في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . فكانوا يرفعون أصواتهم مؤمنين على دعاء الخطباء يوم الجمعة حينما يدعون بالنصر لسلطان المسلمين ولوزرائه وقواده وعساكره في البر والبحر إلى يوم الدين . فقد كان السلطان هو المجاهد والغازي في سبيل الله ، وحامي حمى الحرمين الشريفين .

وقد أدرك بونابرت هذه الحقائق حينما جاء لغزو مصر فنوه في منشوراته بصداقة فرنسا للسلطان ، وذكر أنه حضر إلى مصر للقضاء على طائفة المماليك وإرجاع مصر إلى حكم السلطان . وما فعل ذلك إلا لعلمه بالمكانة المقدسة التي يحتلها السلطان في قلوب المصريين .

ولما اختفى نفوذ العثمانيين وحل محله نفوذ المماليك الذين كانوا في نزاع دائم حول خيرات البلاد ، كان من الطبيعي أن يقف المصريون من هذا النزاع موقف المتفرج . وقد وجدنا قلة من هؤلاء المماليك فتحت قصورها أمام الشعراء والأدباء فنظموا في مدحهم القصائد والموشحات والأزجال، ودبجوا المقامات . هذا موجز عن الحالة السياسية في مصر خلال ذلك العصر .

الفصل الثانى

الحالة الاجتماعية

ظهر فى هذا العصر شراب القهوة[1] . وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف[2] بالعيدروس . وكان أصل اتخاذه له أنه مر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته . فوجد فيه تجفيفاً للدماغ ، واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة . فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا . وأرشد أتباعه إليه . ثم نشر ذلك فى اليمن والحجاز ومصر . وقد جاء أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، فكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وأشاعوا استعمالها بين المصريين ، كذلك أدخلوا شراب قهوة البن إلى مصر فى أوائل القرن العاشر .

وكما اختلف المصريون فى الحشيش ، وهل هو حلال أم حرام ؛ اختلفوا كذلك فى أمر القهوة . فذهب قوم إلى تحريمها[3] لما فيها من الضرر . وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة ، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولا مغيبة . وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها ، وخصوصا فى سهر العبادة أو قراءة القرآن ، أو دراسة علم ، أو تحصيل معاش . فإن قصد بها الإعانة على شىء من ذلك كانت قربة عند الله تعالى .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس

---

(١) لم يرد فى القاموس المحيط عن كلمة « البن » إلا هذه العبارة « البن ، بالضم ، شىء يتخذ كالمرى »

(٢) الكواكب السائرة طبع ببروت سنة ١٩٤٥ ١ / ١١٣

(٣) رسالة عن القهوة ، تأليف محمد الدنوشرى المصرى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ مخطوط رقم ١٥١ مجاميع ـ دار الكتب

كالتى تحاط بها الخمر كتصفيق شاربها ، وإنشاد أشعار الغزل والحب ، ووصف الخمر ، إذ أن ذلك يفسد النفوس وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش ، وخبز الغراب ، والأفيون . ولأن المقاهى تجمع الصغار والكبار ، والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس ، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر . وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهى ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ، ويسقط الشهادة ويدنس العرض .

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل فى بيان فضائلها ومنافعها . وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون ألف ملك ، وتسمى شجرة السلوان ، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم . وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم ، ويصفى الذهن ، ويشرح الصدر ، ويزيل الهم ويطيب النكهة ، ويقطع البلغم ، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر . وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة ، لأن فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وقد زار الرحالة المغربى أبو بكر العياشى مدينة القاهرة ١٠٣٧ هـ فقال[١] « ... ثم دخلنا لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى — رضى الله عنه — ومنزله قرب الجامع — يعنى الجامع الأزهر — وقدم لنا طعاما حسنا وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر ، وإنما يتكارمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة . والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض ، معلوم شهير نظما ونثرا »

« وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة . وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب ، زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ، ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية . ولا شك أنها تزيل

---

(١) رحلة أبى بكر العياشى ١ / ١٢٥ طبع الجزائر سنة ١٣١٦ هـ

مايحصل فى الرأس من تدويخ بسبب السهر ، أو خلو المعدة صباحا . فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطا ، وأحس بخفة فى رأسه ، وهذا فى الغالب لمن اعتادها . وهى مخففة اتفاقا وهاضمة . وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء ، وتكره لمن طبعه الصفراء . وهى نافعة لصاحب البلغم . وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول مايضر منها على من علم أنه يضره . ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها » .

« والحاصل أن الشاربين لها فريقان : فريق يشربونها فى أماكن معدة لذلك مزخرفة ، قلما تخلو من لهو وحضور من لايحل حضوره من الجوارى والمرد . فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارفها من الأمور المذمومة . فلا يبعد أن يقال إنها فى حق هؤلاء محرمة ، لا لذاتها بل لما قارفها »

« وفريق يشربونها فى سكنهم أو حوانيتهم ، أو يشربونها فى السوق . ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول . فهؤلاء الحامل لهم عليها إلفهم لها حتى إنهم ربما يتضررون ضرراً خفيفاً بتركها كما يتضرر من ألف الحجامة بتركها . ومن ألف شرب العسل المسهل بتركه وغيرذلك من الأمور التى يعتادها الناس . ويحملهم عليها أيضاً تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا » .

«وغالب مايستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز ، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء . هذا كله مع خفة المئونة ، إذ مجلس واحد يشرب من ذلك ما يكفيه مع تيسرها فى أى وقت أرادها . ولا يحتاج فيها إلى أكبر مئونة ، ولا مقارفة إدام أو ملح أو أبزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة».

«ويزاد على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام الغذاء للضيف بحيث لايستحى أحد فى تقديمها للباشا فمن دونه . ويقوم ذلك عندهم مقام مايتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها فى بعض الأحيان دينارا

فأكثر . ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد ، بل لو قدم أى طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئاً ، وإن قدمت هى كفت» .

* * *

وقد ساهم الشعراء فى هذه المعركة بنصيب، فنظموا القصائد والمقطوعات فى مدح القهوة والإشادة بمزاياها . ومن[1] هؤلاء إبراهيم بن المبلط . وكان موجودا سنة ٩٩١هـ قال :

ياعائباً لشراب قهوتنا التى ... تشفى شفاء النفس من أمراضها
أوما تراها وهى فى فنجانها ... تحكى سواد العين وسط بياضها؟

وقال آخر :

للبن سر قد حكته شيوخنا ... يانعم منه كلهم أقطاب
فيهم نقول وقد تكامل وصفه ... فى أكله نفع وفيه ثواب

وقال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ

وقهوة بن تورث اللبَّ قوة ... ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبة منع شربها ... ترى أمرها يعلو ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه ... بلى عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهد ... فيزعم فيها أنها الحسَّ تُسكر
تحقق فيها النفع لاسيما لمن ... عن الجدِّ فى فعل العبادة يَفْتر

وبقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء مصر مدة من الزمن . ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها . وفتحت المقاهى فى أحياء القاهرة ، وأخذ أصحابها يتنافسون فى اجتذاب الناس . فكان منهم من يستأجر القصاص ليقصوا الحكايات المشوقة ، والقصص المعجبة وبخاصة سير الأبطال والمغامرين . فظهرت فى ذلك الوقت سيرة الظاهر بيبرس وهى

---

(١) الكواكب السائرة ١٢/١

قصة طويلة امتازت بخيال خصب ووقائع طريفة ، فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى أحسن تصوير ، وتسجل كثيرا من عاداته وأخلاقه .

وظهرت قصة أخرى هى سيرة الأميرة ذات الهمة . وبعض قصص صغيرة مثل « الدرة المكالة فى فتح مكة المبجلة » و « غزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الحجاف » و « فتوح اليمن المعروفة برأس الغول » وغير ذلك مما عسى أن يكون قد ضاع .

وتضخمت قصص كانت معروفة من قبل مثل سيرة أبى زيد الهلالى ، وسيرة عنترة العبسى ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وقصة ألف ليلة وليله . ويتخلل هذه القصص شعر تقرب لغته من اللغة العامية ينشده القاص مع أعوانه تنشيطاً للسامعين ، ولكل قصة كبيرة طائفة من الناس اختصوا بسردها على الجماهير . فكانت هناك طائفة الظاهرية ، والعنترية ، والهلالية، واليزنية ، وهكذا .

وإلى جانب القصاص كانت هناك طوائف المنشدين الذين ينشدون الأشعار والأزجال والموشحات متخذين آلات الطرب كالربابة والعود . فراجت سوق الأدب الشعبى رواجاً عظيما .

وقد كثر فى هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل ، وانتشرت قصص الحشاشين ونوادرهم وفكاهاتهم . وألف بعضهم فى ذلك رسائل وفصولا فيها مايدل على قوة الخيال وخفة الروح التى اشتهر بها المصريون حتى فى عصور المحن والشدائد.

* * *

وفى هذا العصر انتشر الدخان الذى ظهر فى مصر لأول مرة[1] سنة ١٠١٢هـ كما ذكر الإسحاقى فى تاريخه . وهو مؤرخ معاصر لاشك فى صدقه .

---

(١) لطائف أخبار الدول ص ١٢٥

وقد ذكر لنا رأيه فى الدخان فقال : « إن الدخان مضر بالأبدان ، وهو يابس الطباع ، لاشىء فيه من الانتفاع ، مبطل لحركة الجماع ، مسود للأسنان ، مهرب للملائكة الرحمن . وعاقبته وخيمة ، ومداومة شربه ذميمة ، يورث النتن فى الفم والمعدة ، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الافئدة . ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم ، وقوله فى ذلك غير صحيح . ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان فى ذلك ما يكف عنه الأشراف » .

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة ، فقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه . ومازال المسلمون فى اختلاف من أمره ، فالوهابيون مثلا يحرمونه.

وكانت تصدر أحيانا أوامر بمنع تعاطيه جهارا . فقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة[1] ١١٥٦ ه أن الوالى العثمانى أصدر أوامر بمنع شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الأغا ونادى بذلك وشدد فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات فى اليوم ، وكل من رأى فى يده آلة الدخان عاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من النار .

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل . ونظم بعض الشعراء شعرا فى ذلك ، نذكر منه قول أبى المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ ه

هات اسقنى التبغ إن تبغ الصفا سحرا	حتى أُخَدَّر منه وهو إغشاء
واستجل أنوار شمع من يدى رشأ	قد زانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت	يوما يكون لها بالقرب إطفاء
فاملأ كئوس رحيق كالحريق فقد	أغنتك إذ وصفت باللطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها	وداونى بالتى كانت هى الداء

(١) ١/٢٢ طبع بولاق سنة ١٢٨٦ ه

ولم تكن لفائف التبغ قد عرفت فى ذلك الوقت ، وإنما كان يوضع الدخان فى الأحجار التى مازالت تتخذ فى النارجيلة . ولذلك ذكر الشاعر النار والكئوس ويعنى بها الأحجار ، كما ذكر الساقى الذى ناوله هذه النارجيلة وتغزل فيه على عادة شعراء الخمر .

* * *

وانتشر مدعو الولاية فى كل مكان يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل . فروى الجبرتى فى حوادث[1] سنة ١١٠٧ هـ أن رجلا اسمه العليمى حضر من الفيوم وأقام بالقاهرة مدعيا الولاية . فاجتمع عليه كثير من العوام ، واختلط الرجال بالنساء ، وحدث بسبب ذلك فساد عظيم . وأغضب هذا بعض العساكر فقتلوه ، وفى ذلك يقول حسن البدرى الحجازى :

جاء دجال بمصر وادعى ما يدعيه
هرع الناس إليه من وضيع وسفيه
وعليه قد أكبوا يرتجون الخير فيه
وله يدلى صريع ليرى ما يعتريه
فيرى فيه انعكاسا خاب من يسعى إليه
ونساء مع رجال جالسات بالبديه
طول ليل مع نهار أجل فسق تبتغيه

وحدث فى سنة ١١٧٣ هـ أن بعض خدام المشهد النفيسى أظهر عنزا صغيرة وزعم لها كثيرا من الخوارق والكرامات ، وأنها تكلم السيدة نفيسة ، وادعى أنه يسمع كلامها . وخدع بذلك العامة من الرجال والنساء ، فحملوا إليها الهدايا الثمينة كأطواق الذهب والفضة ، والمأكولات الشهية كالجوز والفستق وماء الورد . فأرسل الأمير عبد الرحمن كتخدا إلى صاحب العنز يدعوه لزيارته مع العنز ليتبرك بها . فلما ذهب أدخلت العنز إلى المطبخ وذبحت دون أن يشعر صاحبها ولا يعلم ماجرى على عنزه . وبعد الأكل أراد أن ينصرف فسأل عنها فقيل له إنها كانت على المائدة . ثم وبخه الأمير وعنفه

(١) ١ / ٢٨ .

وأمر أن يوضع جلدها على رأسه ويذهب فى موكبه الذى جاء به . وفى ذلك يقول عبد الله الإدكاوى .

بنت رسول الله طيبة الثنا نفيسة لذ تظفر بما شئت من عز
ورم من جداها كل خير فإنها لطلابها ياصاح أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن يضل الورى فى حبها منه بالعنز
فعاجلها من نور الله قلبه بذبح ، والتيس من اجلها مخزى

وكان بعض مدعى الولاية يسيرون فى الشوارع حفاة عراة ، ولا يصلون ولا يصومون . وقد[1] سأل عبد الله جاك مينو قائد الحملة الفرنسية فى مصر شيوخ الأزهر عن الذين يسيرون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة ، ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون ، وهل هذا جائز فى الدين الإسلامى أم محرم ؟ فأجابوه بأنه حرام ومخالف للدين والشرع والسنة . فأمر جاك مينو بمنع هؤلاء الناس من السير على ما اعتادوا ، وإلقاء القبض على كل من يخالف ووضعه فى المارستان إن كان مجنونا ، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلا .

وكثر ظهور أرباب الطرق الذين اتخذوا التصوف والدروشة وسيلة للكسب الحرام . فكانوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى قرية . يقيمون الحضرات ، ويعطون العهود والمواثيق للناس . فيضطر هؤلاء إلى إقامة الولائم للمشايخ ، وتقديم الهدايا لهم من سمن وزبد وجبن وحبوب وأغنام وفواكه . فيجمع المشايخ مقادير كبيرة من هذه الأشياء ، وبذلك يعيشون عالة على المجتمع ، ويستحلون أموال الفلاح الفقير المسكين . وقد عرض الشعرانى بهؤلاء المحتالين تعريضا شديداً فى كثير من كتبه . مثال ذلك ماجاء فى « رسالة فى التصوف » له حيث يقول : « . فقد دعانى داعى الشفقة على طائفة من الفقراء فى هذا الزمان ، سموا أنفسهم بالصوفية ، وادعوا

---

(١) الجبرتى ٣ / ١٤١

الولاية الكبرى وهم أضل من الأنعام. فصار كل من أذن له شيخه بأن يستفتح الذكر بجماعة ، وأذن له بأن يلقن الناس أو لم يأذن له ، وسمع فى خلوته هاتفا من جنى أو شيطان ، يظن أنه ولى الله عز وجل . فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم . فتارة يجلس فى بلده ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد فى هذه الأيام النكدة النكدة على الخاص والعام . وهو مع هذا يدعى أنه قائم فى الخلق مقام نبيهم صلى الله عليه وسلم . وكفى بذلك كفرا وجهلا وسوء أدب . »

ومن هنا نرى أن أحوال تلك الطائفة كانت موضوعا للكتاب والشعراء وبخاصة فى أوائل العصر العثمانى . وهذا من الأدب الاجتماعى الذى يتناول دراسة المجتمع ، وإظهار ما فيه من عيوب ، والإرشاد إلى العلاج .

* * *

وقد أخذت الأضرحة التى وجدت فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى تزداد يوما بعد يوم حتى صار لكل قرية ضريحها . وظل الناس كما كانوا من قبل عاكفين على إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة ، مدفوعين إلى ذلك بعوامل مختلفة . فقد كانت هذه الموالد أسواقا تجارية ومعرضا للسحرة والمشعوذين ، يعرضون فيها ألعابهم على الناس . وأمكنة يجتمع فيها الحواة وأصحاب الألعاب البهلوانية وتقام فيها المطاعم والملاهى والمراقص والمغانى . ومضمارا يتبارى فيه ركاب الخيل . وكان الأدباء والشعراء يجتمعون ببعض هذه الموالد وبخاصة مولد الحسين وأحمد البدوى ، والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، وينشدون ما نظموا من قصائد فى مدح أصحاب هذه الأضرحة والتوسل بهم . وما نظموه فى أغراض أخرى كالألغاز والتصوف والدعابات والفكاهات وغير ذلك . وقد كثرت القصائد التى نظمت فى مدح أحمد البدوى ، والحسين ، والسيدة زينب والإمام الشافعى .

* * *

وفى هذا العصر استمر الجدل بين الفقهاء والمتصوفة حول الرقص والغناء والضرب على الآلات الموسيقية فى حلقات الذكر . فكان الفقهاء ينكرون هذا ويرونه من المحرمات التى يجب منعها ، وقد ألف ابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ كتاب « كف[١] الرعاع عن محرمات اللهو والسماع » وهو رد على كتاب لأحد المتصوفة سماه « فرح الأسماع برخص السماع » ويقول ابن حجر إن الزعم بأن الغناء يرقق القلب زعم باطل ، والحق إنه يحرك الشهوات ، وهو شعار الفسقة . والرقص إذا حدث عن تواجد فلا حرمة فيه . على أن التواجد غير مسلم به لصاحبه لما يتضمنه من التكلف والتصنع والرياء .

ولعبد الرحمن به مصطفى العيدروس المتوفى بالقاهرة سنة ١١٩٢هـ رسالة سماها « تشنيف الأسماع ببعض أسرار السماع » أيد فيها وجهة نظر المتصوفة.

* * *

وقام بالجامع الأزهر[٢] سنة ١١٤٧ هـ رجل تكرورى ادعى النبوة ، وزعم أن جبريل نزل عليه وعرج به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأنه صلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل. ولما فرغ من الصلاة أعطاه جبريل ورقة وقال له «أنت نبى مرسل، فانزل وبلغ الرسالة، وأظهر المعجزات» فرماه العلماء بالجنون فرد عليهم قائلا إنه ليس بمجنون ، وإنما هو نبى مرسل . فضربوه وأخرجوه من الجامع . ثم أرسل إلى المارستان ، فاجتمع عليه الناس رجالا ونساء فأمر الوالى بوضعه فى السجن، وطلب من العلماء أن يعرضوا على هذا الرجل التوبة ، فامتنع وأصر على رأيه فأمر الوالى بقتله ، فقتلوه وهو يقول « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ونظم الشعراء فى ذلك شعرا ومواليا فمن المواليا قول أحدهم :

واحد ظهر وادعى أنو نبى من حق   وأنو عرج للسما واجتمع بالحق
وإبليس ضلوا وصدوعن طريق الحق   قم ياوزير البلد واحكم على قتله
أهل العلوم أرخوا هذا كفر بالحق

---

(١) مطبوع بهامش « الزواجر عن اقتراف الكبائر »
(٢) الجبرتى ١ / ١٤٧

وقد انتشرت الآراء الإلحادية بين عدد قليل جدا من المصريين فى أوائل هذا العصر . وربما كان الذى نشرها هو داود الأنطاكى فإننا نجد الشهاب الخفاجى الذى درس الطب على داود[1] يقول فى ترجمته له « إنه على مذهب الحكماء ومشرب الندماء . ولذا كثر كلام الناس فى اعتقاده ، ونقل عنه رشح قطر من خفى إلحاده . ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق »

وذكر صاحب خلاصة الأثر[2] فى ترجمة يحيى بن عيسى الكركى الملحد الزنديق ، كما وصفه ، أنه سافر إلى مصر فى طلب العلم « وكأنه عاشر بعض الملاحدة فغلبت عليه اعتقادات فاسدة ، وبث فيها شيئاً من اعتقاداته » والكركى هذا قتل سنة ١٠١٨ هـ وداود الأنطاكى كان بالقاهرة إلى سنة ١٠٠٧ وعلى هذا فربما يكون الكركى قد اتصل وهو بالقاهرة بداود وتلاميذه ، وأخذ عنهم الآراء الإلحادية . ولكن ليس فى كتب داود التى وصلت إلينا ما يدل على إلحاده ، بل على العكس فيها ما يدل على أنه كان عميق الإيمان . فلعله كان يتحدث بأحاديث فلسفية رأى الناس فيها إلحادا . وربما شعر بأنهم أرادوا به سوءاً فرحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج قطعا للألسنة . أما الكركى فإنه تهور وصرح بالكفر فلذلك كان نصيبه أن ضرب فى القاهرة ، وقتل حين رجع إلى بلده .

وقال صاحب « هز القحوف[3] » ما نصه : « ... وسمعت بعض الملحدين من الدراويش المحلقين لحاهم يقول كلاما يخالف الكتاب والسنة ، وهو أن البعث والنشور ، والجنة والنار لا حقيقة لها . وأن الشخص جنته وناره وحسابه فى نفسه . وأن الدنيا لا تفنى ولا تزول . وإن الشخص إذا خرجت روحه ومات دخلت فى جسد من الأجساد ، فى آدمى أو حيوان ، حتى يدور عليها الدور فترجع إلى صاحبها الأول فيظهر بصورته التى كان عليها أولا . وهكذا سائر العوالم »

---

(١) ريحانة الألبا ص ٢٧١ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ (٢) ٤ / ٤٧٨

(٣) ص ٧٦ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

ورأينا حكام هذا العصر يخشون بأس الأزهريين ولا يستطيعون لهم دفعاً ويحاولون أن يسترضوهم ولا يؤخرون لهم طلباً . وقد حدث أن ورد مرسوم سلطانى إلى الوالى ينص على إلغاء ما يصرف من الأوقاف الخيرية فى جهات البر . وأن ترسل أموال هذه الأوقاف إلى السلطان . وعقد مجلس حضره الوالى والقاضى العثمانى والشيخ سليمان المنصورى من علماء الأزهر . فقال القاضى : أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته . فاعترض الشيخ سليمان قائلا : إن أموال هذه الأوقاف تنفق فى وجوه البر ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك ، وإن أمر ولى الأمر بإبطاله لا يسلم له ، لأنه مخالف للشرع ، ولا يسلّم للإمام فى فعل يخالف الشرع ولا لنائبه . فسكت القاضى وانتهى الأمر بإهمال مرسوم السلطان . والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما حدث[١] سنة ١١٩١ هـ حين اختلف الأزهريون مع بعض الأمراء ، فاجتمعوا بالجامع الأزهر وأقفلوا أبوابه وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات . وطلع بعض شبابهم على المآذن وأكثروا من الصياح والدعاء على الأمراء . فلم يسع هؤلاء إلا أن أقبلوا مسرعين وأجابوا الأزهريين إلى مطالبهم .

وكانوا يشتمون الأمراء ويعنفونهم . وقد[٢] حدث أن يوسف بك ؛ وكان يحكم البلاد نيابة عن محمد بك أبى الذهب ؛ نقم على أحد القضاة فأمر بحبسه . فلما سمع علماء الأزهر بذلك توجهوا إلى منزل يوسف بك وناقشوه فى موضع حبس القاضى . وسبه الشيخ على الصعيدى وقال له « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ، ومن جعلك أميراً » وأخذوا القاضى المحبوس وخرجوا وهم يسبونه وهو يسمعهم . ولم يفقد الأزهريون تلك المنزلة إلا منذ قيام حكم محمد على .

* * *

(١) الجبرتى ٢/٨

(٢) الجبرتى ١/٢٠٩

وقد اهتم الأمراء والأعيان والحكام بإقامة القصور الفخمة ، وبناء المساجد والمدارس والأسبلة . فكان للبكريين قصور كثيرة حول بركة الأزبكية وبركة الرطلي . وللسادات قصورهم كذلك . وتنافس الأمراء في تشييد الدور الواسعة وأنفقوا عليها أموالا طائلة . ومن أشهر الولاة الذين اهتموا بحركة التعمير سنان باشا . ومن الأمراء رضوان كتخدا الجلفي[1] المتوفى سنة ١١٦٨ هـ فقد أنشأ عدة قصور بالغ في زخرفتها وتأنيقها . وعبد[2] الرحمن كتخدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ وكان مغرماً بإقامة المساجد والكتاتيب والأسبلة والأضرحة . فأنشأ بين القصرين سبيلا يعلوه كتاب . وقد لفت هذا البناء الأنظار بما تجلى فيه من دقة الصنعة وجمال الفن . وبنى جامع المغاربة وسبيلا وكتاباً بالقرب منه . وشيد تجاه باب الفتوح مسجدا بمنارة وصهريجاً وكتاباً . وبالقرب من الأزبكية سقاية وحوضاً لسقي الدواب وكتاباً . وأنشأ مثل هذا في أماكن أخرى . ومن أهم أعماله الإنشائية الزيادة التي أدخلها على الجامع الأزهر ، والتي رفع سقفها على خمسين عاموداً من الرخام ، مع مثلها من البوائك المقوصرة المتسعة المبنية من الحجر المنحوت . وبنى فوقها مكتباً فخماً لتحفيظ القرآن ، وأنشأ به سبيلا . وشيد بالأزهر رواقاً لأهل الصعيد الذين يطلبون العلم ، وجعل به مرافق ومنافع ومطبخاً ومخادع وخزائن للكتب . وأقام للأزهر منارتين . وجدد رواق المكيين والتكروريين . وأعاد بناء المدرسة الطيبرسية التي بالقرب من المشهد الحسيني ، وجدد مسجداً بجوار ضريح الإمام الشافعي . وجدد المسجد النفيسي والجامع الملحق به . وبنى جامعاً عند باب البرقية وحوضاً وسقاية ومكتباً ، وعين به بعض المدرسين . وبنى مسجداً ومكتباً بالقرب من كوم الشيخ سلامة بالأزبكية . وأدخل إصلاحات كثيرة على ضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري . وجدد بناء مشهد السيدة سكينة ، والسيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية ،

(١ ، ٢) الجبرتي ١ /١٩٢ ، ٢ /٥

وأبى السعود الجارحى . وبنى جامعاً ورباطاً بحارة عابدين . وأعاد بناء المدرسة السيوفية والمارستان المنصورى . وفحص عن أوقافه واستخرجها ممن وضعوا أيديهم عليها . وشيد بالقاهرة عدة قناطر على الخليج وأقام عمائر كثيرة وقناطر فى بعض جهات القطر المصرى وفى الحجاز . وبنى لنفسه قصرين عظيمين أحدهما بجهة بولاق ، والآخر بعابدين . وكان قصره بعابدين فى منتهى الفخامة والروعة ، مبلطاً بالرخام والقيشانى ، ومنقوشاً بالذهب واللازورد والأصباغ البديعة الألوان ، وغرس به حديقة غناء ، وأنشأ فيها فسقية ذات أعمدة من الرخام وقد كان عالماً بهندسة البناء ، مهتماً بالإنفاق على الفقراء وبخاصة العميان ، ولذلك مدحه الشعراء . فمن ذلك قصيدة طويلة نظمها أحدهم نوه فيها بما شيده هذا الأمير من المبانى ، اسمها « مشارع[1] خيرات حسان فى مدح الأمير كتخدا عبد الرحمن » .

ونجد الرحالة الإنجليزى إدوارد لين الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ يقول واصفاً حركة العمران[2] : « أما الفن الذى برع فيه المصريون فهو فن العمارة . وتشاهد فى العاصمة وما يحيط بها أروع آيات الفن المعمارى العربى . وليست المساجد وغيرها من المنشآت العامة هى وحدها التى تتميز بالروعة والجمال ، بل إن البيوت التى يملكها الأفراد تثير فينا هى الأخرى الإعجاب ، وخاصة البناء الداخلى منها ، والنقوش التى تزينها » .

* * *

ولم يعرف المصريون الأوربيين حق المعرفة إلا منذ قدوم الحملة الفرنسية . أما قبل ذلك فإن الجاليات الأوربية التى كانت تنزل بالقاهرة والإسكندرية كانت تعيش فى أحياء خاصة ، وتتزيا بالزى الشرقى وتتكلم اللغة العربية حتى كان من الصعب التمييز بين الأوربى والتركى . ولم يعرف المصريون شيئاً عن

(١) منها نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٦٦٤ — أدب فى ٣٠ ورقة .

(٢) انجليزى فى مصر ترجمة فاطمة محجوب. طبع دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٩٧.

أوربا الحديثة وما أحرزته من ضروب التقدم والرقى . وحتى بعد قدوم الحملة ظلت معلومات المصريين عن الفرنسيين مشوهة تدعو إلى الضحك . انظر مثلا إلى ما يقوله الشيخ عبد الله الشرقاوى عنهم : « . . . وحقيقة[1] حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قاثوليقية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين . ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل . ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع . ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم . ولذلك جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم . وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع »

* * *

وقد تعرضت البلاد لكثير من الأوبئة والطواعين والمجاعات التى كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا . وزاد الحالة سوأ كثرة الفتن والمعارك التى كانت تدور رحاها بين بعض المماليك وبعضهم الآخر . قال الجبرتى[2] فى حوادث سنة ١١٩٨ هـ ما ملخصه « وانقضت هذه السنة كالتى قبلها فى الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة ، وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم فى النواحى لجباية الأموال من القرى والبلدان حتى أهلكوا الفلاحين . وترك كثير منهم الحقول وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون مايتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره ، فلا يجد الزبال شيئا يكنسه . واشتد بهم الحال حتى

(١) تحفة الناظرين ص ٢٤٥ ، طبعة بولاق
(٢) ٢ / ٨٣

الميتات من الخيل والحمير والجمال . فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه . ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع · ومات كثير من الفقراء جوعا. وازداد الغلاء وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس . وقل التعامل إلا فيما يؤكل . وصار سمر الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لاغير . ومد الأمراء أيديهم إلى المواريث يغتصبونها بالرغم من وجود الورثة الشرعيين . وأصيب المجتمع بالتفكك والانحلال ، فقد فسدت النيات ، وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع ، وكثر الحسد والحقد ، وعمت الوشاية والنميمة »

وكان هذا سببا فى إقبال الناس على التصوف والالتحاق بالتكايا أو المعاهد الدينية ليعيشوا من الأوقاف المرصودة على هذه الأماكن .

ولم يكن الريف المصرى يعانى مظالم المماليك فقط ، بل كان يعانى كذلك مظالم العربان الذين اعتادوا أن يشنوا الغارات على القرى والكفور ، وينهبوا المحصولات والمواشى والأغنام . فلا عجب أن انحط الريف المصرى إلى حد كبير ، وأصبح فى حالة يرثى لها من الفاقة والإملاق وسوء الحال . وإنك لتجد فى كتاب «هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف» للشربينى صورا كثيرة لما آل إليه الريف المصرى من البؤس والفقر .

هذا موجز عن الحالة الاجتماعية فى مصر إبان العصر العثمانى .

الفصل الثالث

الحالة الفكرية

ساد فى هذا العصر مذهب أهل السنة ، وهو المذهب الذى عرفته مصر منذ سقوط الدولة الفاطمية . وكانت آراء الأشعرى هى المعتمدة عند غالبية رجال الدين . والانحياز إلى آراء الأشعرى يقتضى مهاجمة المعتزلة الذين قل وجودهم في العالم الإسلامى إبان العصر الذى ندرسه ، ولكن كتبهم كانت معروفة . فأخذ أشاعرة تلك الأيام على عاتقهم مهمة الرد على ماجاء فى هذه الكتب . وأكثر ماظهر هذا فى دراستهم لكتب التفسير وبخاصة الكشاف للزمخشرى . فكانوا يحملون عليه إذا تناول شيئاً يتعلق بالاعتزال . أما إذا تكلم فى النحو والبلاغة فهو عندهم الصادق المصدق ، والإمام المحقق . فهم يأخذون من القدماء ماوافق عقائدهم ويرفضون ماخالفها . ويمدحون كل من يعرض بالمعتزلة بحق وبغير حق . وإلى جانب تفسير الزمخشرى فإنهم كانوا يدرسون تفسير البيضاوى والفخر الرازى ويقفون منهما الموقف المتقدم . وألفوا رسائل فى الإيمان ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ وهل يكون بمشيئة الله أم لا ؟ نذكر من هذا « رسالة فى الإيمان[1] وكونه مخلوقا أوغير مخلوق » للشهاب الخفاجى ، و «رسالة فى الإيمان[2] ، وهل يكون بمشيئة الله أم لا؟ » له . و« رسالة الجواهر المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان[3] الجازم إلى المشيئة » لأبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ و « رسالة[4] فى كلام الله ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ » له . و « رسالة الدر النظيم فى تحقيق الكلام القديم » لأحمد الجوهرى المتوفى سنة ١١٨٢هـ ، و« رسالة فى تحقيق

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بمجاميع تيمور . مخطوط رقم ٣٣١ ، ٩٢

(٥) ١٩٣ مخطوط تيمور

الجزء[١] الاختيارى » له ، و « رسالة الفطرة[١] السليمة فى تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة » له أيضا . وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يتناولون هذه الموضوعات فى خلال شرحهم للقرآن وتفسيرهم للحديث ، وفى الحواشى والتعليقات التى وضعوها على بعض الكتب .

وقد جاء بهاء الدين العاملى إلى مصر سنة ٩٩٢ هـ وألف بها كتاب « الكشكول » وضمنه مطاعن كثيرة فى آراء الأشعرية ، وانتصارا للمعتزلة الذين كان ينتمى إليهم .

* * *

وقد اتخذت الدولة العثمانية المذهب الحنفى مذهبا رسميا لها . فألفت كتب كثيرة فى مناقب أبى حنيفة النعمان ، مثل « عقود[٣] الجمان فى مناقب أبى حنيفة النعمان» تأليف محمد بن يوسف من فقهاء القرن العاشر. و«الخيرات[٤] الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان » لابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ ومع أنه شافعى المذهب إلا أنه سخر قلمه فى خدمة سياسة الدولة العثمانية . و « أعلام[٥] الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار » تأليف محمود بن سليمان المتوفى سنة ٩٩٠ هـ و « الكلمات[٦] الشريفة فى تنزيه أبى حنيفة من الترهات السخيفة » لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ و« عقود الجواهر المنيفة فى أدلة مذهب أبى حنيفة » لمرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ إلى غير ذلك

وكان بعض أتباع المذاهب الأخرى يؤلفون كتبا فى الطعن على أبى حنيفة . وقد أشار إلى ذلك محمد بن يوسف فى مقدمة كتاب « عقود

(١ ، ٢) مجاميع تيمور رقم ٢٥٩ ، ٩٢

(٣) مخطوط رقم ١٨٠ م ، ١٣ ش دار الكتب

(٤) مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ

(٥) مخطوط رقم ٨٤ تاريخ م

(٦) مجاميع رقم ٣٧٣ ، ٤٢٧

(٧) طبع بمصر سنة ١٢٩٤ هـ .

الجمان » كما أشار ابن حجر الهيتمى إلى الطاعنين على أبى حنيفة فى كتابه « الخيرات الحسان »

وعلى كل حال فإن المصريين رفضوا أن يجتمعوا على المذهب الحنفى على الرغم من الدعاية التى روجها العثمانيون لهذا المذهب ، وعلى الرغم من إيثارهم الأحناف للوظائف القضائية . وتمسك قسم كبير من المصريين بمذهب الشافعى ، لأن صاحبه مدفون بالقاهرة ، وله ضريح كان الناس وما زالوا يزورونه متبركين . وبقى مذهب مالك كما كان من قبل . وساعد على ذلك وفود المغاربة إلى القاهرة ، وهؤلاء معروفون بتمسكهم بالمذهب المالكى . أما الحنابلة فكانوا قلة . ومما هو جدير بالذكر أن المصريين منذ وجدت الدراسات الفقهية فى مصر ، أظهروا ميلا شديدا إلى مذهب مالك . ولما جاء الشافعى إلى القاهرة انتشر مذهبه . أما مذهب أبى حنيفة فكان قليلا . ومذهب ابن حنبل كان نادرا .

وإن فكرة توحيد الأحكام فكرة سليمة جدا ؛ ولكن المجتمع المصرى حرم من هذه الميزة . ولذلك كان الناس يعانون فى عباداتهم ومعاملاتهم حيرة واضطرابا ، وبخاصة الطبقات الجاهلة . وقد صور لنا الشعرانى فى كتابه « كشف[1] الغمة عن جميع الأمة » هذه الحيرة فقال « . . . وبعد ، فقد شكا إلى مرارا بلسان الحال وبلسان المقال جماعات من الفقراء المتعبدين وأهل الحرف النافعة من المؤمنين ما يجدونه فى نفوسهم من كثرة الغم حين يسمعون العلماء يقرأون مذاهبهم وينصرون أقوالها دون مذاهب غيرهم . وقالوا لى : قد التبس علينا شرع ربنا الذى تعبدنا به ، وعسر علينا تمييزه ، وازدرانا لجهلنا غالب الذين لم نتقيد بمذهبهم . فإن توضأنا على مذهب قال لنا أهل المذهب الآخر : وضوءكم باطل وإن صلينا على مذهب قالوا : صلاتكم باطلة . وإن زكينا قالوا : زكاتكم باطلة . وإن صمنا قالوا صومكم باطل . وهكذا فى سائر عباداتنا . وما نعرف الحق مع أيهم حتى نقتصر عليه . وقد أورث ذلك عندنا الحيرة والشك » واستطرد الشعرانى فذكر أنه ألف هذا الكتاب معتمدا

---

(١) مطبوع

على كتب الحديث الموثوق بها . وأورد معظم أدلة المجتهدين معتقدا أنه بهذا الكتاب يستطيع أن يقضى على الحيرة والشك ، وأنه قادر على جمع المصريين على كتابه ، ولكن غرضه لم يتحقق .

ويقال إن السلطان سليمان القانونى فكر فى وضع قانون لجميع المسلمين، ولكنه مات قبل أن ينفذ هذا المشروع .

* * *

وظهر فى هذا العصر كثيرون من كبار الفقهاء الذين كسبوا شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، وسعى إليهم طلاب العلم من الآفاق .

فمن فقهاء المذهب الحنفى: أحمد بن محمد الشوبرى (١) المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ الذى لقب بأبى حنيفة الصغير ، وقد أخذ عنه جميع علماء الحنفية فى ذلك الوقت من أهل مصر والشام. ووصفه بعضهم بقوله « قرة عين الإمام الأعظم وصاحبيه ، من انتهت رياسة الحنفية بالقاهرة المعزية إليه » .

ومن فقهاء الشافعية : محمد (٢) بن أحمد الملقب بشمس الدين الرملى ، المتوفى سنة ١٠٠٤هـ وقد اشتهر بالشافعى الصغير. وزعم بعضهم أنه مجدد القرن العاشر ، وبالغوا فى مدحه . وهو كما يقول صاحب خلاصة الأثر « أستاذ الأستاذين ، وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم ، محيي السنة ، وعمدة الفقهاء طار صيته فى الآفاق. فرحل إليه طلبة العلم ، وأقبل الناس على قراءة كتبه »

ومن المالكية : (٣) سالم بن محمد السنهورى المتوفى سنة ١٠١٥ هـ كان كما ذكر المحبى « أجل أهل عصره غير مدافع ، وأخذ عنه الجم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين »

ومن الحنابلة : (٤) منصور البهوتى المتوفى سنة ١٠٥١ هـ وقد اشتهر ذكره فى أنحاء العالم الإسلامى . فرحل إليه طلبة العلم من شتى الجهات ،

(١ ، ٢) خلاصة الأثر للمحبى ١/١٧٤ المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ

(٣ ، ٤) خلاصة الأثر ٢/٢٠٤ ، ٤/٤٢٦

وله مؤلفات مازالت موضع الاحترام .

والآن يحق لنا أن نتساءل : إلى أى مدى جدد هؤلاء العلماء فى الفقه ؟ وهل أضافوا شيئاً جديداً إلى مادته ؟

الواقع أنهم لم يأتوا بجديد، لأن المذاهب الفقهية كانت نضجت واكتملت على أيدى من سبقهم من العلماء، ولكنهم استوعبوا هذه المذاهب وفهموها فهما جيدا، وتمثلوها الى حد بعيد حتى أصبح كل منهم عالما متبحرا فى مذهبه، محيطا بدقائقه إحاطة تامة ، قادرا على شرح ماعسى أن يكون غامضا منه . وهذه ميزات ليست يسيرة .

* * *

وكان الجامع الأزهر معهدا عاما تدرس فيه جميع العلوم كالتفسير والحديث وفقه المذاهب الأربعة ، والنحو والبلاغة والمنطق والرياضيات . وبه أروقة لمختلف أجناس الطلاب . وله أوقاف طائلة ، وبه مكتبة ضخمة . والدراسة فيه منتظمة لاتكاد تنقطع (١) طوال اليوم . والطلاب يلتفون حول أساتذتهم فى شكل حلقة ذات صفوف . فيجلس بالقرب من الأستاذ الأفضل ، ويليه الأقل فالأقل . وهذه الصفوف تسمى طبقات . فيقال فلان من أهل الطبقة الأولى ، أو الثانية ، أو الثالثة ، وهكذا . وبعض المدرسين يتخذون (٢) ملاحظا يتولى إجلاس الطلاب كل فى مكانه . وقد يعهد بهذا إلى أحد طلبته . ولبعضهم معيدون يتولون إعادة ما ألقاه الأستاذ على الطلبة

---

(١) قال أبو بكر العياشى الذى زار مدينة القاهرة سنة ١٠٣٧ « وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر ، لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضان . وفى الحقيقة كل الليالى بذلك المسجد كليلة القدر . لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار . لاتنقطع منه العبادة ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء . فهو عديم النظير فى مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة . مالها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها . وإن خص هو بهذه الفضيلة فغير مستنكر وجود مزية للمفضول ليست فى الفاضل . إذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة »

(٢) خلاصة الأثر ٣/١٩٥

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم ، وظائف مشايخ الأروقة ، وكانت موضوعا للتنافس. وشيخ الأزهر يعين بعد أخذ رأى علمائه. وتراعى فيه الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عن مذهبه . وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام ، وعاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم .

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب (١) سنة ١١٨٧ هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة ، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر ، وجعل به مكتبة تحوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة ، كان من بينها « شرح القاموس المحيط » للزبيدى ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف. ورصد له الأوقاف اللازمة للإنفاق على المدرسين والطلبة. ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه .

وكانت هناك معاهد خاصة بكل مذهب عدا المذهب الحنبلى لعدم إقبال الناس عليه، فلم يدرس فى غير الأزهر. ولبعض هذه المدارس الخاصة شهرة لاتقل عن شهرة الأزهر ، ولها احترام كبير .

فمن هذه المعاهد : المدرسة الخشابية بجوار الإمام الشافعى . ولايعين بها إلا أعظم علماء الشافعية . وهى مختصة بتدريس فقه الشافعى وكذلك المدرسة الصلاحية وهى بجوار الخشابية. وهاتان المدرستان من أقدم مدارس القاهرة. وكان للشافعية مدرسة أخرى بجوار الأزهر، هى المدرسة الطيبرسية.

وللأحناف مدارسهم الخاصة كذلك ، وأشهرها الصرغتمشية والسنانية والأشرفية، والمؤيدية . ولهم بحى الصليبة مدرستان : إحداهما اسمها البرقوقية والأخرى اسمها الباسطية .

وعلاوة على ماتقدم فإن كثيرا من مساجد القاهرة والأرياف كان يتخذ أمكنة للدراسة . فإذا اشتهر عالم فى جهة من الجهات ، وأراد أن ينفع

(١) الجبرتى ٢/ ٤١٨

الناس بعلمه ، ذهب إلى أقرب مسجد وعقد الدرس فيقبل عليه الناس نظرا لشهرته . وقد كان مرتضى الزبيدى يدرس صباحا فى مسجد شيخون لقربه من منزله . ويدرس بعد الظهر فى مسجد الحنفى . وكانت دروسه مجمعا للطلاب بل ولعلماء الأزهر أنفسهم ، ولبعض الأمراء والأعيان .

وكانت للأسكندرية مدارسها . واشتهر فى دمياط جامع(١) البحر ، وفى طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جدده على بك الكبير ، وزوده بمكتبة ، ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته . وفى دسوق جامع إبراهيم الدسوقى . وفى منوف معهد درس فيه كثير من العلماء . واشتهرت جرجا وفرشوط بمدارسهما وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما . وقد زار مرتضى الزبيدى مدينة فرشوط ونزل عند حاكمها شيخ العرب همام الذى أكرم وفادته ، ومدحه بعض شعرائها . والكتاتيب منتشرة فى كل مكان . وكان طلاب الأقاليم يحضرون إلى الأزهر لاستكمال علومهم .

قال ادورد لين(٢) الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ م « والكتاتيب فى مصر كثيرة متعددة ، لا فى العاصمة وحدها ، بل فى كل مدينة كبيرة . ويوجد كتاب واحد على الأقل فى كل قرية من أمهات القرى . وما من مسجد فى العاصمة أو سبيل أو حوض مما تشرب منه البهائم إلا وألحق به كتاب يتعلم فيه الأطفال نظير نفقات ضئيلة »

وكان الأطفال يتعلمون القراءة فقط . أما الذين يتعلمون الكتابة فكانوا قلة ضئيلة . وهكذا تفشت الأمية على الرغم من وجود الكتاتيب فى كل مكان .

(١) قال أبو بكر العياشى الذى زار مصر سنة ١٠٣٢ هـ يصف مدينة دمياط وجامعها الكبير « وهى — دمياط — مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل . ذات مساجد كثيرة ، وأسواق حافلة ، وخانات عامرة ، ومرسى عجيبة . غصت بها السفن الكبار . والقوارب الصغار . فيها من أنواع الفواكه والثمار ، وصنوف الأطعمة ما لا يكاد يوجد فى غيرها »

« وكان نزولنا بمسجدها الكبير ، وهو مسجد وثيق البناء ، فسيح الفناء ، على ساحل البحر ، يضرب الماء فى سوره . يتناول الشارب والمتوضىء الماء بيده من البحر وهو جالس فى باب المسجد . وفى المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ما فى الأزهر »

(٢) انجليزى يتحدث عن مصر ص ٣٥

ونجد فى هذا العصر تساهلا كبيرا فى منح الإجازات العلمية . ففى العصور الأولى كان طالب الأجازة يلازم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما يسمعه من الأستاذ الذى لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان . أما فى العصر الذى ندرسه فكانت تعطى جزافا ، إذ كان يكفى أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته . وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة . فكان العالم فى القاهرة يبعث إلى طالب فى مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره . فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية . وشذ من هؤلاء العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعى المتوفى سنة ١١٩٩ هـ فقد ذكر الجبرتى[١] « أنه كان صعبا فى الإجازة ، لا يجيز أحدا إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذى يطلب الإجازة فيه بتمامه . ولا يرى الإجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك . وهذه الطريقة فى مثل هذا الزمان عسرة جدا »

وقد ورثوا عن أسلافهم عادة التأنق فى صياغة الإجازات . ولذلك أضيفت إلى أبواب الأدب نثرا كانت أو شعرا .

* * *

وإذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب ، أقيم لذلك حفل عظيم . وقد وصف لنا أبو بكر العياشى المغربى[٢] الذى زار مصر سنة ١٠٢٧ هـ حفلا رآه فى الأزهر فقال « ... فلما كان فى يوم تسعة وعشرين من الشهر — رمضان — ختم المشايخ دروسهم بختم الشيخ عبد السلام اللقانى بعد صلاة الصبح . وعادتهم فى الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذة المدرس وكبراء إخوانه . فإذا فرغ المدرس ، قرأ القارىء آيات من القرآن بقراءة مطربة .

---

(١) ٣ / ١٨٨

(٢) رحلة العياشى ١ / ١٦ ١ طبع الجزائر سنة ١٣١٦ هـ

ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة . وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ ، فيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضى عن مؤلف الكتاب المقروء ، والدعاء للشيخ الذي يدرسه . ثم يقوم آخر ويثنى على الله وعلى رسوله بثناء بليغ ، ثم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان . ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب . كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح . ثم يقرأ الفاتحة ويهدى ثوابها إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى من ذكر بعده . ويبالغ فى الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر ، وصوت خاشع ، ويؤمن الحاضرون على دعائه ، ثم يختم . وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ ، ويدعون له ويدعو لهم . ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب »

* * *

وكان بالقاهرة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى . وقد جاء إلى مصر فى أوائل هذا العصر طبيب حاز شهرة واسعة ، وهو داود الأنطاكى[1] المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ وكان على درجة كبيرة من الثقافة ، مستوعباً لكتب ابن سينا فى الطب والفلسفة . فوضع عدة كتب فى الطب أشهرها تذكرته التى ظلت موضع احترام طوال العصر العثمانى . وطبعت بمصر عدة طبعات .

ودرّس داود فى المارستان المنصورى ، وتخرج على يديه طلبة كثيرون اشتهر منهم أحمد بن[2] سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس ، تولى مشيخة مدرسة الطب ، وتوفى سنة ١٠٣٦ هـ فخلفته بنته .

ثم نبغ طبيب مصرى آخر ، هو مدين بن عبد الرحمن القوصونى . كان موجوداً سنة ١٠٤٤ هـ وهو من تلاميذ داود ، ومن مؤلفاته فى الطب : قاموس[3] الأطباء فى المفردات .

(١ و ٢) خلاصة الأثر ٣٣٣/٤

(٣) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٣٠ طب م

واشتهر أحمد بن[١] سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان « فى الطب ماهراً خبيراً ، حسن التقرير ، يبالغ فى تفهيم الطلبة ، ويكرر لهم تصوير المسائل » .

وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين . قال داود الأنطاكى فى مقدمة تذكرته : « . . . فإنى حين دخلت مصر رأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى إلى أوضع يهودى للتطبب به ، فعزمت على أن أجعله — الطب — كسائر العلوم ، يدرس ليستفيده المسلمون . فكان فى ذلك وبالى ونكد نفسى وعدم راحتى من سفهاء لازمونى قليلا ، ثم تعاطوا التطبب فأضروا بالناس فى أموالهم وأبدانهم . وأنكروا الانتفاع بى ، وأخشوا فى أفاعيلى » .

وتعاطى الطب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان .

وسبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن كتخدا المتوفى سنة ١١١٩ هـ جدد المارستان المنصورى وزاد فى أوقافه . وقد ظل هذا المارستان المدرسة الوحيدة التى يدرس فيها الطب ، كما كان المستشفى الحكومى الوحيد الذى تعالج به مختلف الأمراض حتى قام محمد على .

* * *

وكانوا يدرسون العلوم الرياضية التى عرفت من قبل . وأخذوا عن القدماء عادة خلط الحساب بالفرائض . ومن أنواع الرياضة التى درسوها : الجبر ، والهندسة النظرية « إقليدس » والحيل « الميكانيكا » والفلك . واتخذوا المزاول لمعرفة الأوقات ، والساعات التى كانت ترد عليهم من الخارج . وكان لبعض المساجد الكبيرة مؤقتون لتحديد أوقات الصلاة ، يعرف الواحد منهم بالميقاتى .

(١) خلاصة الأثر ١ / ١٧٥

إلا أن الإقبال على دراسة العلوم الرياضية كان قليلا جداً ، فى حين أن الإقبال على العلوم الدينية كانت له الغلبة . وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب . فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً . وقد كانت الوظائف المعروفة إذذاك وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضى ونائبه ، والمفتى والمحتسب والمدرس . وكان لوجود المذاهب الأربعة دخل فى هذه الكثرة التى لو وزعت على كل مذهب لم تكن شيئاً . ثم إن رجل الدين كان محترماً فى ذلك الوقت من الحكومة والشعب . أما الوظائف الحسابية فكانت فى يد الأقباط .

* * *

وكانت مصر تتمتع بشهرة علمية طيبة . قال أحمد باشا كور وزير الذى ولى مصر سنة ١١٦١ هـ للشيخ عبد[١] الله الشبراوى ذات يوم « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم . وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وكان أحمد باشا قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر فى العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً . فقال الشيخ الشبراوى « إن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب » وقال « إن طلبة الأزهر لا يستطيعون أن يشتغلوا بغير ذلك من العلوم الرياضية ، لأنها تحتاج إلى أدوات وآلات ودقة الرسم . وأهل الأزهر فقراء » ثم ذكر الشيخ الشبراوى اسم الشيخ حسن الجبرتى والد مؤلف التاريخ المشهور ، وقال إنه عالم فى الرياضيات والفلك . فاستدعاه الوالى فلما رآه أعجب بعلمه واتخذه من خاصته والمقربين لديه .

* * *

---

(١) الجبرتى ١٨٧/١

وكان بمعظم معاهدالقاهرة مكتبات تحوى الكتب التى اعتادوا دراستها. ولكثير من العلماء مكتباتهم الخاصة فى منازلهم ، يفتحونها لكل من يريد الانتفاع بها . واشتهر كثيرون بنسخ الكتب متخذين من ذلك وسيلة للرزق . نذكر منهم الشاعر المشهور عبد الله الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ وهناك محلات لبيع الكتب يسمى أصحابها بالوراقين ، وحرفتهم بالوراقة . ولهم شيخ يسمى شيخ الوراقة .

* * *

ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بكرامات الأولياء ، ويسلمون بما يدعونه لأنفسهم من القدرة التى لا حد لها قال حسن البدرى الحجازى الأصل المصرى الإقامة والوفاة ، منكراً كرامات الأولياء وإقامة الأضرحة وزيارتها :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا　　كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علماهم به يلوذون بل قد　　تخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان　　عن جميع الأنام يفرج كربا
وإن مات جعلوه مزاراً　　وله يهرعون عجماً وعربا
بعضهم قبّل الضريح وبعض　　عتب الباب قبله وتربا
هكذا يفعل المشركون مع أصـ　　ـنامهم يبتغون بذلك قربا
كل ذا من عمى البصيرة والويـ　　ـل لشخص أعمى له الله قلبا

وقد صور الشعرانى موقف معاصريه المنكرين الأولياء فى مقدمة كتابه « الطبقات الكبرى » فقال : « . . . فإذا مر عليهم ولى من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون ، وتراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون . فمنهم المنكر لكراماتهم ، ومنهم المنقص لمقاماتهم ، ومنهم الثالب لأعراضهم ، ومنهم المعترضون على أحوالهم ، ويخوضون بجهلهم فى مقالهم ، وبهم يستهزئون . »

وقد ألف الشعرانى هذا الكتاب دفاعا عن الأولياء وما يأتون به من الكرامات والخوارق . وقال فى كتابه[1] « لطائف المنن » «... وفى عصرنا هذا جماعة من الصوفية العاملين ، ربما يكون المنكر عليهم لايصلح تلميذا لهم ، كسيدى محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى ، والشيخ سليمان الخضيرى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ زين سبط على المرصفى . وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال: لاأعتقد فى واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة . فقلت له : وأى كرامة أعظم من العلم والعمل ؟! فلم يرجع إلى قولى وتركته » ولكن الشعرانى عرض بأهل عصره ممن يظهرون التصوف ويبطنون النصب والتدجيل فقال[2] ما نصه « ... وقال لى الأمير محمد دفتردار مصر مرة : أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء . فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيها . وقد دخل على شيخ منهم فى رمضان ليفطر عندى فقلت له : هذا الطعام عندى فى حله شك فلا تأكل منه فقال : قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة. فكيف أعتقد فى مثل هذا وأنا لاتطيب نفسى أن آكل منه مع أنى معدود من الظلمة ؟! »

وبقيت هذه المناقشات بين المتعصبين للأولياء وكراماتهم ، وبين المنكرين . فهذا عبد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يؤلف كتابا اسمه « إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن » والمقصود بأولياء الشيطان هم المنكرون للأولياء وكراماتهم . ويرى المناوى[3] أن الولى « لا يبلغ درجة النبى ، ولا تسقط عنه التكاليف بكمال الولاية كما ادعى بعض أهل الإلحاد والاتحاد ، أن الولى إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص ، سقط عنه الأمر والنهى ، ولم يضره ذنب ، ولا يدخل النار بارتكاب الكبائر .

---

(١) ص ٩١ وما بعدها ؛ مطبعة بولاق سنة ١٢٨٨ هـ

(٢) تنبيه المغترين ص ١ وما بعدها ، المطبعة المحمودية سنة ١٣١٥ هـ

(٣) الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ورقة رقم ١ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

وذلك باطل بإجماع المسلمين . ولا تكون ولاية غير النبي أفضل من النبوة بحال . وإنما الكلام في ولايته – أي النبي – فقيل هي أفضل لما فيها من معنى التقرب وكمال الإخلاص وقيل بل نبوته لما فيهامن الوساطةبينالحقوالخلق . ثم إن ظهور الكرامة لايدل على أفضلية ، وإنما هي بقوة الإيقان وكمال العرفان »

وقد كثرت الكتب المؤلفة لإثبات كرامات الأولياء . نذكر منها «طبقات الشرنوبي»(١) تأليف أحمد الشرنوبي المتوفى سنة ٩٩٤ هـ و « الفتوحات(٢) الربانية في مناقب السادة الخضيرية » تأليف مراد بن يوسف الأزهري المتوفى سنة ١٠٣٠هـ و «الماء(٣) الزلال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال» لأحمد الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢ هـ و « كنز(٤) السعادات في الكرامات بعد المات» لعبد الرحمن الأجهوري المتوفى سنة ١١٩٧ هـ و «السهم(٥) القوى في نحر كل غبي ، فيمن ينكر كرامات الأولياء » للسجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ وهذا غير ما ألفه الشعراني والمناوي . ولو كان الناس كلهم يسلمون بمزاعم الأولياء لما احتاج الأمر إلى تأليف هذه الكتب والرسائل التي يكاد يخطئها العد . وإنك لتلمس في عناوين بعضها مايدل على الرغبة في التحدي والهجوم .

وفي(٦) سنة ١١٢٣ هـ حضر إلى القاهرة واعظ تركي ، أخذ يعظ الناس بجامع المؤيد . ثم انتقل من الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على القبور . وقال إن هذا كفر يجب على الناس أن يتركوه . وعرض بقول الشعراني في طبقاته إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فأنكر ذلك على الأنبياء فضلا عن الأولياء . وقال بوجوب هدم القباب المبنية على الأضرحة . وأنكر وقوف الفقراء بباب زويلة في شهر رمضان .

---

(١) مطبوع (٢) مخطوط رقم ٧٧ تاريخ م (٣ ، ٤) مخطوط تيمور

(٥) ٤٠٣ مخطوط تيمور (٦) الجبرتي ١ / ٤٨

فلما سمع الحاضرون ذلك خرجوا ليلا إلى باب زويلة حاملين العصى والأسلحة فهرب من كان هناك . ثم إنهم قطعوا الجوخ والأكر للعلقة وهم يقولون « أين الأولياء ؟ » فأغضب عملهم بعض الناس فذهبوا إلى الجامع الأزهر وأخبروا الشيخ النفراوى وأحمد الخليفى بما حدث . فأفتى هذان الشيخان بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، ولا يجوز لأحد أن ينكر اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ . وقالا بوجوب زجر الواعظ الذى غضب من هذه الفتوى ، وأبدى استعداده لمناظرة العلماء . وتعصب له كثيرون وتطوعوا للدفاع عنه ، وتعاهدوا على نصرته . وأخذ الواعظ يحرض أنصاره على الدفاع عن الدين وقمع الدجالين ، ولكن الأمر انتهى بنفيه وتشتيت شمل أنصاره .

وهذا الواعظ من غير شك متأثر بآراء ابن تيمية والواقع إن آراء ابن تيمية كانت موضوعاً للنقاش عند بعض علماء هذا العصر . فقد ألف ابن حجر الهيتمى كتاباً سماه « الجوهر المنظم فى زيارة القبر النبوى المكرم » ومعروف أن ابن تيمية يرى أن زيارة القبور ومنها القبر النبوى شرك وكفر صريح . فعارضه ابن حجر بقوله إن زيارة القبر النبوى مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس . وقد اعتمد ابن حجر على ما كتبه السبكى من قبل فى الرد على ابن تيمية ، ولم يأت بجديد . على أن ابن حجر[1] يرى أن إقامة المولد النبوى بدعة لأنها لم تعرف عند المسلمين الأولين . ويقول إن أكثر ما يرويه القصاص والوعاظ فيما يتعلق بمولد الرسول مكذوب ، لا أساس له من الصحة . ولكنه ذكر أنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير إلى الفقراء ، وتلاوة القرآن ، وإظهار السرور والفرح بالنبى ، وإغاظة أهل الزيغ والزنادقة والملحدين ، والكفرة

(١) النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم . مصور تاريخ رقم ٥٥٥٨ دار الكتب لوحة رقم ٥

والمشركين . وقد كرر ابن حجر هذه الآراء فى كتاب آخر هو « الدر[١] المنضود فى الصلاة على صاحب المقام المحمود » .

* * *

ولم يعدم ابن تيمية أنصاراً فى العصر الذى ندرسه . فيقول صاحب[٢] « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » « إن موسى المصرى المتوفى سنة ٩٩٠ هـ كان يعتقد اعتقاد حمقى الحنابلة » ويقصد بحمقى الحنابلة أتباع ابن تيمية .

وألف يوسف بن مرعى الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ كتاب « الكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية » لخصها من مناقبه لعبد الهادى ابن قدامة المقدسى ، ومن مناقبه لسراج الدين البزار ، ومن مناقبه لأحمد ابن القاضى محيى الدين بن عمر الشافعى . وختم كتابه بفصل فى الرد على خصوم ابن تيمية الذين يرمونه بالكفر .

ونحن نعلم أن ابن تيمية قال بوفاة الخضر ، ولكن الصوفية فى هذا العصر قالوا ببقائه حياً وقد ألف[٣] مرعى « رسالة الخضر » وأثبت فيها أنه مات وهو بهذا يتابع أستاذه ابن تيمية وله غير ما تقدم كتاب « رفع[٤] الشبهة والغرر على من يحتج على فعل المعاصى بالقدر » عرض فيها بالاتحادية والحلولية الذين وقعوا فى الإباحية وغرقوا فى المعاصى وتركوا الفرائض محتجين على هذا بأنه مقدر عليهم ، لا يستطيعون تركه . واعتمد مرعى على آراء ابن تيمية فى هذا الموضوع .

ونلاحظ فى هذا العصر كثرة الأسئلة التى وجهت إلى العلماء بخصوص

---

(١) مخطوط رقم ٤٠٣٤ تصوف .

(٢) ورقة رقم ٣٣٩ من الجزء الثالث مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .

(٣ ، ٤) مخطوط ٣٩٥ مجاميع تيمور .

الخضر ، وهل هو حى أم ميت ؟ ونلاحظ كثرة الرسائل التى وضعت فى هذا الموضوع ، مما يدل على أن السائلين كانوا فى شك من حقيقة أمره . وقد يكون شكهم هذا ناجماً عن اطلاعهم على آراء ابن تيمية . ومن الرسائل التى وضعت لإثبات وجود الخضر حياً « القول الدال على حياة الخضر والأبدال » لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ .

* * *

وكانت كتب ابن عربى منتشرة فى دوائر المتصوفة ، لا سيما « الفتوحات المكية » ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلبهم لم يقبلوا نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود . ومنهم من اعتبر القول بها كفراً . وهذا هو محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ رأس المتصوفة فى عصره يقول فى إحدى قصائده :

أطلقوا وحـــدة الوجود وقالوا   كل شىء هو الإله البـــارى
يا لقومى أما لطه نصـــير ؟   غاب من لم يكن من الأنصار

ويقول من قصيدة أخرى :

حلول مُحال ، واتحادٌ مخالفٌ   لوحدته فالوصف فيـــه تلونا

* * *

وقد جاء إلى مصر فى هذا العصر علماء أعلام ما زالوا موضع ثقة واحترام ، وألفوا كتباً قيمة لا يستغنى عنها الباحث . نذكر منهم بهاء الدين العاملى الذى ألف كتابه « الكشكول » بالقاهرة . وداود الأنطاكى وقد سبقت الإشارة إليه . ومرعى بن يوسف الحنبلى صاحب المؤلفات المشهورة التى أسلفنا الكلام على بعضها . وأحمد بن محمد المقرى صاحب « نفح الطيب » وغيره ، وعبد القادر البغدادى صاحب « خزانة الأدب » وبدر الدين العباسى مؤلف « معاهد التنصيص ، شرح شواهد التلخيص » ومرتضى الزبيدى

شارح القاموس . وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الصوفى المشهور .

ومر بها كثير من علماء المغرب . وزارها من علماء الشام والد المحبى الذى ألف رحلة عن هذه الزيارة . والمحبى صاحب « خلاصة الأثر » وعبد الغنى النابلسى الذى خصص جزءاً كبيراً من رحلته مما شاهده بمصر . وأبو بكر العياشى من علماء المغرب ، وصاحب الرحلة التى أشرنا إليها . كما زارها بعض علماء الحجاز .

واستوطنها من شعراء الشام كثيرون نذكر منهم : زين الدين العاملى ، وشمس الدين الحموى . وزارها طرز الريحان البعلى ، وفتح الله النحاس ، وابن الدرا . واستوطنها من شعراء المغرب يوسف بن زكريا المغربى . ومن الحجاز نور الدين القلعى .

وزارها من الرحالة الأوربيين كثيرون ، نذكر منهم الرحالة الفرنسى « فولنى » وألف رحلة مترجمة إلى اللغة العربية تحت عنوان « مصر فى القرن الثامن عشر » وكان حضوره إلى وادى النيل سنة ١٧٨٤ م وقد انتفع نابليون بما كتبه فولنى عن مصر إلى حد كبير . ووصفه برتييه أحد قواد الحملة الفرنسية بأنه الدليل الأمين ، وقال إنه هو فقط الذى لم يغشهم .

* * *

واشتهر فى هذا العصر من المتصوفة : محمد البكرى والشعرانى ، وعبد الرءوف المناوى الذى يقول فيه صاحب خلاصة الأثر « . . . فهو أعظم علماء هذا التاريخ آثاراً . ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع ، وللناس عليها تهافت زائد ، ويتغالون فى أثمانها » .

ومن العلماء : ابن حجر الهيتمى ، وأحمد السجاعى ، وأحمد الدمنهورى ، وأحمد الجوهرى ، وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم .

ومن رجال النحو : الصبان ، والكفراوى ، ومحمد الأمير . وقد ألفوا كتبا مازالت تدرس حتى عصرنا هذا .

ومن المؤرخين : ابن إياس الحنفى ، وهو أشهر من أن يذكر . ومحمد ابن عبد المعطى الشهير بالإسحاقى صاحب كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول» انتهى فيه إلى سنة ١٠٣١ هـ ومحمد بن محمد ابن أبى السرور البكرى صاحب كتاب « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » و« النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » و « الوشى المرقوم من النطق المفهوم » و «المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية » و« اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » وإبراهيم الصوالحى - كان بالقاهرة سنة ١٠٧١ - مؤلف كتاب « تراجم الصواعق فى وقعة الصناجق » ومصطفى بن إبراهيم مؤلف « تاريخ وقائع مصر سنة ١١٠٠ - ١١٥٠ » وشيخ مؤرخى مصر فى ذلك العصر عبد الرحمن الجبرتى الذى انتفع بجهود هؤلاء المؤرخين حينما ألف كتابه « عجائب الآثار » ونقولا الترك مؤلف كتاب « ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية »

ومن كتاب السير والتراجم : نور الدين الحلبى مؤلف « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » ويعرف بالسيرة الحلبية . ومحمد بن على الداودى مؤلف « طبقات المفسرين » والشهاب الخفاجى صاحب « ريحانة الألبا » و « خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا » وأحمد بن سلامة القليوبى مؤلف « تحفة الراغب فى سيرة جماعة من آل البيت الأطايب» ومحمد بن أحمد البهوتى مؤلف « التحفة الظريفة فى السيرة النبوية الشريفة » وأبو الصلاح على بن محسن الصعيدى مؤلف « تعطير الأنفاس بمناقب الشاذلى وأبى العباس» وأحمد الرشيدى مؤلف « حسن الابتهاج فيمن ولى فى مصر إمارة الحاج » وعبد الرحمن الأجهورى مؤلف « مشارق الأنوار فى آل البيت الأخيار» ومرتضى الزبيدى مؤلف « الروض المعطار فى نسب آل جعفر الطيار » و « رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا» ومحمد بن على الصبان مؤلف « إسعاف الراغبين

فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين » ومدين بن عبد الرحمن القوصونى مؤلف «ريحانة الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب» وقد اعتمد صاحب خلاصة الأثر على هذا الكتاب الذى لم يصل إلينا فيما كتبه عن أدباء مصر وشعرائها وعلمائها فى القرن الحادى عشر . وعبد البر الفيومى مؤلف «منتزه العيون والألباب فى بعض المتأخرين من أهل الآداب» جعله على طريقة الشهاب الخفاجى فى ريحانته . وهذا الكتاب لم يصل إلينا كذلك مع أنه اشتهر ببلاد الشام ، وعليه اعتمد صاحب خلاصة الأثر فيما كتبه عن مصر .

* * *

وظهرت فى هذا العصر مؤلفات كثيرة فى الروحانيات ، وفك الأرصاد والطلاسم ، وفى ألعاب المهارة كالسيما والزايرجة. وفى التنجيم وضرب الرمل. ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بهذه الخرافات . فهاهو الإدكاوى الشاعر ينكر على المنجمين ما يزعمونه من معرفة مايقع فى المستقبل ، وله شعر فى ذلك نذكر منه :

الله يعلم ما يكون وما به تسرى الرياح وماله يجرى الفلك
فدع المنجم فى ضلالته وما ينبيك عنه ففى مقالته أفك
واحذر تصدقه فتهلك عامدا يامدعى الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على من يرتضيه من نبى أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به ربى لأسلك ناجيا مع من سلك

وألف رسالة فى تأييد آرائه اسمها « هداية المتوهمين فى كذب المنجمين »

* * *

أما بعد فهذه صورة للحالة الفكرية فى مصر إبان العصر العثمانى . ويمكننا أن نخرج من هذه الدراسة بأمور :

أولا — إن الحركة العلمية فى مصر فى ذلك العصر كانت نظرية محضة ..

ولم يعرف المصريون العلم التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار .

ثانيا — إنها استقت من المصادر القديمة ، ولم يكن فيها تجديد أو ابتكار .

ثالثا — إنها لم تتصل بالنهضة العلمية الأوربية ، لا من قريب ولا من بعيد . فالمعلومات الجغرافية والفلكية القديمة ظلت كما هى . فلم يصل إلى أسماع المصريين أنباء العالم الجديد ، وما كشفه الأوربيون من قارات ومحيطات . ولم يقفوا على شيء من تقدم علم الفلك أو علوم الطبيعة والكيمياء والطب . ولو ترك المصريون وشأنهم فى ظل هذه الحياة العلمية لما تغير حالهم ، ولبقيت معالمهم الفكرية كما هى دون أى تقدم .

لذلك لما اطلعوا على العلوم الحديثة التى صاحبت الحملة الفرنسية أبدوا دهشتهم واستغرابهم ، واعتقدوا أنها أنواع من السحر .

وحينما أرسل محمد على البعوث العلمية إلى أوربا ، رأى الطلبة علوما لا عهد لهم بها من قبل . ورأوا كتبا مؤلفة بطرق تختلف عن الطرق المتبعة فى البلدان العربية . وأدركوا الفرق البعيد بين الشرق والغرب . وقد سجل رفاعة الطهطاوى إعجابه بالطرق الغربية الحديثة فى التأليف ، ونعى على الكتب العربية اهتمامها الشديد بالنحو والإعراب ، وكثرة ما عليها من شروح وتعليقات ، وما فى أساليبها من تعقيد والتواء .

وحسبنا أن نقول إن الطباعة التى انتشرت فى أوربا فى ذلك العصر ، لم تعرف فى مصر . وقد أدرك محمد على أن الثقافة المصرية فى ذلك الوقت لا تصلح لبناء دولة على النمط الحديث . لذلك لم يتردد فى إرسال وفود الطلبة إلى مختلف البلاد الأوربية لتلقى العلوم . كما استقدم الأساتذة والمدرسين من كل فن وعلم للتدريس بمصر . وأنشأ المدارس على النمط الأوربى .

ولكن الآداب لا شأن لها بالحياة العلمية . فقد نشأ الأدب فى صحراء العرب حيث كانت الحياة بدائية ، ولم تكن هناك حضارة ولا مدنية ، ولا كيمياء صناعية ، ولا ورق ولا طباعة . نعم فى هذه الصحراء القاحلة ظهر فحول

الشعراء . إن الأدب لايمكن أن ينعدم لأنه وليد العواطف ، والعواطف موجودة فى كل زمان ومكان . لذلك كان من الخطإ أن نربط بين تأخر العلوم والصناعات وبين الأدب فنحكم عليه بالانحطاط قياسا على انحطاط العلوم .

وكذلك من الخطإ أن نتخذ لغة أمرىء القيس أو المتنبى أساسا للحكم على شعراء العصر العثمانى . وذلك لأن هذا العصر تحكم فيه طابع خاص يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ولكل عصر طابعه، ولكل بيئة معالمها ومميزاتها . والأدباء إنما يعبرون بلغة العصر الذى يعيشون فيه . وهل نحتقر الأدب الشعبى لأنه لم يتخذ لغة المتنبى فى أساليبة وعباراته ؟ ؟

الباب الثانى

الفصل الأول

الشعر ومذاهبه

قال الشهاب الخفاجى فى ترجمة محمد البلينى الشاعر المصرى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ مانصه[1] . . « وله شعر أصفى من الرحيق المعتق ، وأبهى من الوشى المنمق ، إلا أنه تجاوز رقة النسيب إلى التجنيس والغريب » .

وقال فى ترجمة الشاعر يوسف بن زكريا المغربى نزيل القاهرة ، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ بعد أن أورد جملة من شعره[2] «واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء ، وهو كل شعر أكثر فيه من البديع » .

وكتب الخشاب إلى أحد الشعراء ، وكان يعرّض شعره للذم بالتزامه ما لا يلزم :

ألزمت[3] نفسك فى القريض مذاهبًا ... ذهبت بشعرك فى الحضيض الأوهد
وتركت ما قد كان فيه لازمًا ... هلا عكست فجئت بالقول السدى ؟
كدرت فيه بما صنعت بحوره ... فغدت مشارع ليس ينحوها الصدى
فإذا نظمت فكن لنفسك ناقداً ... نقد البصير بذهنك المتوقد
أولا فدع تكليف نفسك واسترح ... من قولهم ما شعر بالجيد

(١ ، ٢) خلاصة الأثر ٢ / ٢٤٦ . ٤ / ٥٠٤ .

(٣) الجبرتى ٢ / ٢١٧ وديوان الخشاب ص ٣٨٠ طبع الجوائب .

فمن هذا وأمثاله نعلم أن الشعراء المصريين فى العصر العثمانى كانوا يكرهون التكلف والتزام الصنعة ، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفوا ، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتها. وهذا المذهب متفق كل الاتفاق مع قوم غلب على كثير منهم ارتجال الشعر فى سهراتهم الخاصة التى كانت تجمع بينهم ، وفى المجالس الأدبية التى كثرت فى ذلك العصر ، وفى الموالد التى تقام للأولياء .

وممن اشتهر بالارتجال : أبو السماع البصير المتوفى سنة ١٠٦٦ ﻫ وفيه يقول المحبى[١] « الشاعر البديهى ، أعجوبة الزمان ، وأحد الأفراد فى البديهة وارتجال الشعر . وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجى . وفى أثناء إنشاده يبتدر على وزن تلك القصيدة فى أى باب كان من أبواب الشعر ؛ مدحاً كان أو غزلا أو غيرهما » .

« وورد دمشق فى أوائل شوال سنة ١٠٤٨ فأنزله أديب الزمان أحمد الشاهينى عنده ، وأقبلت عليه أعيان الشام وأدباؤها لغرابة حاله وتفوقه فى شأنه » .

وقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ﻫ وفيه يقول[٢] الجبرتى « .. وصار وحيد عصره فى هذه الفنون — الشعر والزجل — بحيث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال فى الشعر مع غاية الحسن . وكان الشيخ العيدروس يتعجب منه ويقول : هو ممن يلقنه جنى » .

واجتمع يوماً فى مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى ، وكان يوماً مطيرا . فقال ابن الصلاحى مرتجلا :

(١) خلاصة الأثر ١ / ١٣٩ .

(٢) الجبرتى ٢ / ١٨٦ .

لقدومكم ضحك الغما م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كفك قد حكى

فقال قاسم :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزيز جاهك قد شكا

ومثل هذا كثير تجده منبثاً فى ثنايا الكتب . وقد بلغ من كراهية بعضهم للتكلف أنهم فضلوا نظم المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد .

وكان الفن الشعرى غالباً على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما يستخدم فيه النثر . مثال ذلك أن الشاعر يحيى[1] الأصيلى المتوفى سنة ١٠١٠ هـ ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخر الإذن له ، فكتب يقول :

على الباب مَن كاد من شوقه يموت وذلك يحيى الأصيلى
أتى يتغنى بأوصافكم فهل تأذنون له بالدخول ؟

وحدث أن مرتضى الزبيدى كلف عبد الله الإدكاوى أن ينسخ له كتابا . وقام الإدكاوى بهذه المهمة ، ولكن الزبيدى أخر عليه أجره ، وأراد الإدكاوى أن يطالبه بهذا الأجر ، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه بقصيدة[2] جاء فيها :

صبح الله سيدى بالسعاده وحباه من كل خير مراده
ووقاه الردى وزاد علاه رفعة لا تنى تزيد سياده
خلك المرتجى إجابة ما قد عودته عاداتك المستجاده

(١) خلاصة الأثر ٤ / ٤٨١ .
(٢) ديوان الإدكاوى ورقة رقم ٢٩٣ مخطوط ٧٨٢٨ — أدب ، دار الكتب .

فتفضل وابعث بما قد تبقى ولك الفضل إن بعثت زياده
وابق فى العز والسيادة يا أو حد ما نال ذو احتياج إفاده

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً بحيث إننا نستطيع أن نجمع منها مجلدات. كما أنهم حذوا حذو أسلافهم فى استخدام الشعر فى الإجازات العلمية، وفى تقريظ الكتب والرسائل. وبلغ من تعلقهم بالفن الشعرى أنهم نظموا بعض العلوم.

* * *

قلنا إن الشعراء فى ذلك العصر كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان نفسه على سجيتها. والآن نضرب بعض الأمثلة على ذلك:

قال الشهاب[1] الخفاجى من قصيدة طويلة:

قدحت رعود البرق زندا أضرمن أشجانا ووجدا
فى فحمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى تثاءب نوره وتمطت الأغصان قدا
وأتى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت لها النسمات سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نرداً
فسقى معاهد بالحمى قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى من عنبر للمسك أهدى

(١) خلاصة الأثر ١ / ٢٣١ .

وقال الصبان[1] يمدح شيخ السادات :

بعبير سرك تعبق الأقطار ... وبنور وجهك تشرق الأسرار
وبيمن طلعتك السعيدة طالعا ... يصفو الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت ... للعالمين منازل وديار
وإلى حمى حرم سمـابك مجده ... تسعى العفاة وتهرع الزوار
يادرة الدنيا وغرة وجهها ... ومنار أهليها إذا ما احتاروا
ياقطب دائرة الوجود وعارفا ... بشذا تقاه تهبط الأسرار
ياشمس أفلاك الكمال وسيدا ... دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا ... دهشت لبعض صغارها الأفكار
قد أفرغ المولى عليك مواهبا ... لا عـد يحصيها ولا معيـار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة ... تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السنـد الإمام المجتبى ... صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل ... أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به ... الآية الكبرى لمن يحتار
تاج الأماثل، عين أعيان الورى ... غيث السماحة ، سيبها المدرار
وابن الكرام الشم من آل الوفا ... أبناء من سجدت له الأشجار
كناه مولاه أبا الأنوار إذ ... من نوره تتولد الأنوار
ما جاء ليـل الخطب إلا رده ... من ذلك الوجه المضىء نهار
هو للأحبة رحمة وعلى العدى ... أسد الإله وسيفه البتار
والنـاس بالرتب العلية فخرهم ... ولها بأبناء الرسـول فخار
منح من الوهاب عز مقامها ... ومواهب ما إن لهـا إنكار
ماذا يقول المادحون وفضلهم ... نطقت به الآيات والأخبار ؟
الله فى القرآن أذهب عنهمو ... رجسا وطهرهم فهم أطهار

(١) اللوائح الأنوارية ورقة رقم ٤ مخطوط ٣٥٣٥ ـ أدب

ووِدادهم فرض وحبهمو به تمحى الذنوب وتغفر الأوزار

وقال الشيخ عبد الله الشبراوى متشوقاً إلى مصر ونيلها فى بعض أسفاره :

أعد ذكر مصر إن قلبى مولع بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها فقد ردت الأمواج سائلة نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويداً إذا حدثتنى عن ربوعها فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتى وأشهد بعد الكسر من نيلها جبراً
لقد كان لى فيها معاهد لذة تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لى مر النسيم بها ذكرى
أما والقدود المائسات بسفحها وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما فى رباها من قوام مهفهف علا وغلا من أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لى ذاك السرور بأرضها وقرت بمن أهواه مقلتى العبرى
لأعتنقن اللهو فى عرصاتها وأسجد فى محراب لذتها شكراً
... الخ .

ومن قول الخشاب فى يوسف بن على الكاتب ، وكان يتولى تحرير المنشورات للفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر :

إنى رأيت أبا البرية آدما فى النوم معتجراً ببرد معلم
فدنوت منه مصلياً ومسلماً وسألته فى صورة المستفهم
هل كان يوسف من بنيك فإننا من ذاك فى شك مريب موهم ؟

فأجاب وهو مصعد ومصوب عينيه فى كهيئة المستعظم
حواء طالقة ثلاثاً إن يكن ممن إلى من البرية ينتمى
. . . الخ .

ونستطيع أن نجمع مجلدات من هذا الشعر الذى يرسل فيه الشاعر نفسه على سجيتها . ومعظم نتاج العصر العثمانى فى مصر من هذا النوع . بل إننا نجد ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة ، ورقة وسلاسة وعذوبة ، كما يتضح من مجموعة النصوص التى أوردناها فى نهاية هذا الكتاب .

* * *

ولكن الشعر فى هذا العصر ابتلى بقوم دخلاء ، ظنوا لضعف شاعريتهم أنهم قادرون على أن يكونوا فى عداد الشعراء إذا تكلفوا القول ، وأنفقوا الوقت الطويل فى ضروب الصناعة اللفظية . وهؤلاء الدخلاء على الشعر قلة لا يعتد بها ، ولا ينبغى أن تتخذ أساساً للحكم على العصر كله .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ وله ديوان مطبوع اسمه « الدر المنظم فى مدح الحبيب[١] الأعظم » فهو أحياناً يضع نصب عينيه إيراد جميع الحروف الهجائية فى البيت الواحد . مثال ذلك قوله :

خذوا بدمى حسناً غزالا عشقتها فصرت كظل بالثج فى رحض[٢]

وأحياناً يلتزم الحروف التى لا تنقط ، كقوله :

أسرك دهر سره كله هم ومورد أكدار لوارده سم

(١) المطبعة المحمودية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ ص ٧٠ ، ٩٥ ، ٨٣ ، ١٤٣ .

(٢) الثج ثج الماء أى سال . رحص . رحضه كمنعه أى غسله ، والرحض القربة التى يوضع فيها الماء .

وتارة يلتزم بدء أبيات القصيدة بالحروف الهجائية على الترتيب ، كقوله :

أبت هند وصلى فالكرى مذقست شطا — وحظى ذكا من لاعج متخن ضغطا
بذلى قضت فالوجد زاك وعنه لا — محيص بلا غوث شفى ناظرا سخطا

فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف ، والثانى بحرف الباء ، وهكذا إلى آخر القصيدة التى تنتهى بانتهاء الحروف الهجائية .

وله قصيدة سماها « شفاء العين بمديح العين » فى المديح النبوى ، عدتها تسعة وأربعون بيتا ، كل بيت ينتهى بكلمة « العين » فكأنه جمع المعانى المختلفة لهذه الكلمة ، وأتى فى كل بيت بما يتناسب معه فى المعنى ، شأنه فى ذلك شأن شعراء البديعيات الذين مدحوا الرسول عليه السلام بقصائد ، وجعلوا فى كل بيت لونا من ألوان البديع ، مع فارق وهو أن هذا المادح اكتفى بلفظ العين على اختلاف معانيها فى كل بيت من أبيات قصيدته التى جاء فيها :

يا مائسة القد يا مكحلة العين — كم من حسد فيك قد أصبت من العين
قد حزت جمالا ورقة ودلالا — إذ فقت هلالا أضا، وفقت سنا العين

فالعين فى البيت الأول هى العين الباصرة ، وفى البيت الثانى بمعنى الشمس .

وفى سنة ١١٥٨ هـ قدم إلى مصر شاعر حجازى كسب شهرة ونفوذا فى عصره ، وهو نور الدين على بن تاج الدين القلعى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ وكان مغرما بالصناعة اللفظية . ومنها نوع يسمى « وسع الاطلاع » فاجتمع به بعض الشعراء ومنهم عبد الله الإدكاوى الذى أخذ عنه هذا الفن وأفسد به بعض شعره . ووسع الإطلاع أنواع هى :

١ — كل كلمة فى البيت تبدأ بالحرف الذى تنتهى به الكلمة السابقة ، ما عدا القافية . مثال ذلك :

صبٌ بوعدك كم مطلته هاجرته كلاَّ أجرته[1] ؟!
سهران نام مسامرو ه هجعاً أفلا أعته ؟!

فكلمة « صب » تنتهى بحرف الباء الذى تبدأ به كلمة « بوعدك »وهكذا إلى آخر البيت الأول . وفى البيت الثانى نرى كلمة « سهران » تنتهى بحرف النون الذى تبدأ به كلمة « نام » وهكذا إلى آخر البيت

٢ — نوع يسمى « العود » وهو أن تنظم قصيدة فتقول ·

جماله قد علا قدرا وجل علا ها قد سبانى فلولا عاد يانعمى[1]

ثم تعود فتأخذ من هذا البيت كلمات مناسبة ، وتنظم منها بيتا آخر يبدأ بلفظة « جماله » وينتهى بها فتقول :

(جماله قد سبانى قد جل قدرا جماله)

مثال آخر :

دلاله يأولاة الحب زاد فلو قد عاد بالقرب ياصحبى شفى سقمى

(دلاله زاد صحبى بالقرب زاد دلاله)

٣ — النوع الثالث . أن تلتزم بدء كلمات البيت بحرف واحد مثل :

يتمنى يراك يوما يهى يجتنى يانعا يمينا يساره[3]

فكل كلمة فى هذا البيت تبدأ بحرف الياء

٤ — أن تكون كل كلمة مكونة من حرف مهمل وحرف منقوط على الترتيب ، مثل :

جميل بديع جل ذاتا بهية به زدت حبا ، فاتك بجماله[4]

٥ — نظم البيت مكونا من كلمات مهملة وأخرى منقوطة على الترتيب مثل:

جننت ولوعا فى هواه شغفت كم فتنت عساه يجتنى الكماله

(١ ، ٢ ، ٣) انظر ديوان الإدكاوى ورقة ٢١٠ ؛ ٢٢٢ ؛ ٢٢٧

(٤) ديوان الإدكاوى ورقة ٢٢٣.

٦ — نظم البيت مكونا من حروف مفرقة . مثل :

أدم وده واردد رواه وروه وأول ودم راع ودودا وواله[١]

٧ — أن ينظم قصيدة يبدأ كل بيت منها بحرف بحيث لو جمعت هذه الحروف على الترتيب لكونت اسم الممدوح . مثال ذلك قوله :

١ — سيدى مذغبت عن صبك المغـ ـرم ضاقت عليه أكناف مصر[٢]
٢ — يا فريد البها وحقك لا أصـ ـبر عن أن أراك يوما بدهرى
٣ — داو مضناك باللقا وتكرم ياغزال النقـا بقـولى وجبرى
٤ — يا بديع الجمال يا واحد الحسـ ـن حنانا تشفى سقامى وضرى
٥ — أنت أنسى ولذتى وسرورى ومرادى وكنه سرى وجهرى
٦ — بك هام الفؤاد فامنن عليه منك بالوصل لا ترعه بهجر
٧ — راقنى ما أراه فيك من الحسـ ـن البديع الذى تقسم فكرى
٨ — أحلالا بعدى وأنت بوجدى لك أدرى من كل عبد وحر
٩ — هام لبى فى وصف ماحزت يا أهـ ـيف حتى قل نظمى ونثرى
١٠ — يوم عيد رؤياك بل ومحيا ك هلالى ياذا الجمال وبدرى
١١ — ما لقلبى صبر سوى أن يلا قيك ومن لى حتى اللقاء بصبر

فالأبيات الأربعة الأولى تبدأ على الترتيب بالحروف : س ، ى ، د ، ى . ومن مجموعها يتكون لقب الممدوح « سيدى » وبقية الأبيات تبدأ بالحروف ا ، ب ، ر ، ا ، هـ ، ى ، م . ويتكون منها اسم الممدوح وهو إبراهيم . ويلاحظ أن المعانى كلها غزلية وليست من المدح فى شىء .

٨ — أن ينظم قصيدة ، ثم يدخل زيادة فى أول البيت أو فى آخره بحيث لا يتغير المعنى وإن تغيرت القافية فى حالة ما إذا كانت الزيادة فى آخر البيت . مثال ذلك قوله :

(١ ، ٢) ٢٣٥ ، ٢٤٠ .

يا من تُحلُّ بذكره عُقَدُ النوائب والشدائدْ[1]
يا من إليه المُشْتَكى وإليه أمر الخلق عائدْ

فيقول إذا جعل الزيادة فى الأول :

(ياذا العلا ياربنا) يامن تُحَلْ ـلُ بذكره عقدالنوائب والشدائد
(يا سيدى يا خالقى) يامن إليه الـ ـمشتكى وإليه أمر الخلق عائد

أو تكون الزيادة فى الآخر فيقول :

يا من تحل بذكره عقد النوا ئب والشدائدُ (لا محالة تنجلى)
يا من إليه المشتكى وإليه أمـ ـر الخلق عائدُ (فى المهم المشكل)

هذه هى ضروب الصنعة التى زاولها بعض الشعراء ومنهم الإدكاوى ، والقلعى ، وعبد الرحمن الحميدى .

أما الشعراء الآخرون فإنهم كرهوا مثل هذا التكلف . وقد أنكر بعض معاصرى الإدكاوى عليه هذا المذهب الذى يفسد الشعر ويجعله مجرد صناعة لفظية ، وذكروه بأساليب القدماء التى لم تعرف التكلف ، فرد عليهم قائلا :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأواخر من مفاخِرْ[2]
لا تحقرنّ جديدهم كم فى جديدهمو جواهر
ودع التعصب للأوا ئل يا فتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً فاعقد عليه عرى الخناصر

وهذه الأبيات لا أثر للتكلف فيها .

* * *

وقد انتشر فى هذا العصر تسجيل التواريخ فى القصائد بحروف الجُمَّل .

(١) ديوان الإدكاوى ورقة ٢٤٠ ، وهذا النوع الأخير من الصناعة عرف بقلة فى العصر الفاطمى . مثال ذلك قصيدة الاسكندرانى « ذات الدوحة »
(٢) ديوانه ورقة ٣٣٦

وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

أبجد : ا = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤

هوز : هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧

حطى : ح = ٨ ، ط = ٩ ، ى = ١٠

كلمن : ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠

سعفص : س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، ص = ٩٠

قرشت : ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠

ثخذ : ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ، ذ = ٧٠٠

ضظغ : ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠

واستخدمت حروف الجمل أولا فى عبارات نثرية يتألف من مجموع حروفها التاريخ المقصود . وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم مؤرخاً سبيلا أنشأه الوالى العثمانى بالقاهرة ، وهو[1] « رحم الله من دنا وشرب » فمجموع حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوى ٩٦٦ وهو تاريخ إنشاء السبيل المذكور .

وأقدم تاريخ شعرى قول أحدهم فى مقتل رجل اسمه محمود :

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه[2]
قتله بالنار نور وهو فى التاريخ ظُلمه

فالحروف التى تتألف منها كلمة « ظلمه » بحساب الجُمَّل تساوى ٩٧٥ وهو تاريخ قتل محمود ، لأن ظ = ٩٠٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، هـ = ٥

ومن هذا الوقت نجد من الشعراء من يؤرخون بعض قصائدهم .

(١ ، ٢) لطائف أخبار الأول للاسحاقى ص ٧٢

وهنالك شعراء كثيرون لم يستخدموا هذا الفن ، أو استخدموه مرات قليلة . وأكثر ما يرد التاريخ الشعرى فى قصائد الرثاء ، إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلوا تاريخ وفاة الميت . وكذلك ما ينظم للتهانى والأفراح . وقد ورد فى بعض شعر المديح . أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد فيه قط .

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المبانى . وبعض الشعراء يسجل اسمه فى نهاية القصيدة ، وهذا أمر عرف من قبل العصر العثمانى . كما أن منهم من كان يختم بعض قصائده بالصلاة على النبى . وهذا أيضاً مما عرف من قبل .

وقد ظهر فى هذا العصر ما يقرب من مائة شاعر ، وردت تراجمهم ومقتطفات من شعرهم فى تاريخ ابن إياس ، والكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ، والنور السافر فى أعيان القرن العاشر ، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجى ، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ، وتاريخ الجبرتى .

* * *

وقد اتضح لنا أن الشعر فى هذا العصر تأثر ببيئات مختلفة ، وخضع لاتجاهات متباينة ، بحيث يمكننا أن نقسمه إلى مدارس ، نتناول كلا منها بالبحث لنكشف عن خصائصها . وهذه المدارس هى :

١ — المدرسة البكرية .
٢ — المدرسة العلوية .
٣ — المدرسة الأميرية .
٤ — المدرسة الشعبية .

الفصل الثانى

المدرسة البكرية

ظهور فكرة الصديقية لأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامى

لم يكن للبكريين فى مصر قبل العصر العثمانى شأن كبير . فقد ذكر صاحب « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة(١) » أن جلال الدين البكرى أنكسر عليه مال للسلطان الغورى فهم أن يعاقبه . فاستجار بصديقه عبد القادر الدشطوطى الذى توسط له عند السلطان فسامحه فى المال . واعترافا بهذا الجميل وهب جلال الدين البكرى ابنه أبا الحسن للدشطوطى ليلازمه ويكون فى خدمته . ثم إن الدشطوطى جدد مسجدا ووهبه لجلال الدين ، وهو المسجد الذى مازال قائما بشارع البكرية بناحية بركة الرطلى ، والذى يحمل اسم جلال الدين .

وقال عبد الغنى النابلسى فى رحلته(٢) . « إن العسكر المصرى لما ثاروا على السلطان الغورى وأرادوا خلعه ؛ أتوا إلى الشيخ جلال الدين وقالوا له : نحن نقيمك خليفة على المسلمين فى بلاد مصر ، لأن الصديق جدك كان كذلك فإن السلطان الغورى قد تعدى علينا وظلم ، وجاوز الحدود . فأجابهم بقوله أصبروا فإن سلطانكم قريب . ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم خان من بنى عثمان » .

ومن السهل علينا أن ننفى هذه القصة ، لأنها لم ترد فى كتب التاريخ

(١) ورقة ٣٢٢ وما بعدها مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .
(٢) ورقة ١٨ مخطوط جغرافيا .

الموثوق بها ، فلم يذكرها ابن إياس . ومن ناحية أخرى لوجود الخليفة العباسى المعترف بخلافته . ومن ناحية ثالثة لأن المماليك كانوا يتنازعون من أجل الملك . وكان نزاعهم يقوم على المطامع الذاتية . فليس من المعقول أن يخرجوا ملك مصر من أبناء جلدتهم ويعطوه طائعين مختارين لجلال الدين البكرى .

ثم ذكر عبد الغنى النابلسى قصة أخرى تتعلق بجلال الدين ، وهى :

« ويقال إنه — السلطان سليم — لما دخل مصر كان الشيخ جلال الدين آخذا بزمامه ، والشيخ أبو السعود الجارحى على يمينه ، والشيخ الدشطوطى على شماله . ويقال إن هؤلاء الأولياء الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الشام وجاءوا بالسلطان سليم وأدخلوه إلى مصر ، وهم مشاة فى ركابه . وكان يقصر المنازل لأجلهم . وقالوا له : هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهذه القصة — وإن تكن من غير شك – مختلقة ، إلا أنها تدل على أن جلال الدين كان ممالئا للسلطان سليم . وربما كان مدفوعا إلى ذلك بما حدث بينه وبين الغورى .

وقد ذكر ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور »(١) ـ حوادث سنة ٩١٧هـ أن الشاه إسماعيل الصفوى أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها :

نحن أناس قـــد غدا شأننا ... حب على بن أبى طالب
يعيبنا النـاس على حبه ... فلعنة الله على العائب

فأجابه سليم برسالة جاء فيها :

ما عيبكم هذا ولـكنه ... بغض الذى لقب بالصاحب
كـذبتم عليه وعلى بنته ... فلعنة الله على الـكاذب

وكان ابن إياس معاصرا للحرب بين السلطان سليم وشاه إيران . وإذا كنا نرتاب فى صدور هذا الشعر من سليم ، فإننا لا نرتاب مطلقاً فى وجود

(١) ٤ / ٣٨٥ طبع استنبول .

طائفة بكرية أراد السلطان العثمانى أن يكسبها إلى جانبه فى حربه ضد الشاه الشيعى ، وفى حربه ضد سلطان مصر السنى قانصوه الغورى . ونلاحظ أن سليم لم يذكر فى شعره سوى بغض الشيعة لأبى بكر وكذبهم عليه وعلى بنته، مع أننا نعلم أن الشيعة يبغضون كل من حال بين على والخلافة ويكفرونه .

وعلى كل حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية تعمل على ترويج الخصومة ضد الشيعة ، لأن الدولة كانت فى حرب مع شيعة إيران وشيعة اليمن . ثم إنها رأت بعد تنازل الخليفة العباسى للسلطان سليم بالخلافة أن تبطل مزاعم العلويين فيها . فسخرت المؤلفين فى كل مكان للطعن فى تعاليم الشيعة وتفنيد آرائهم . ومن هؤلاء الكتاب الذين تطوعوا لخدمة الدولة: ابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ فقد ألف كتاباً اسمه « الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة » جاء فى مقدمته[١] « إنى سئلت فى تأليف كتاب يبين حقيقة خلافة الصديق وإمارة الخطاب . فأجبت إلى ذلك مسارعة فى خدمة ذلك الجناب . فجاء بحمد الله أنموذجاً لطيفاً » . وأهل الزندقة هم الشيعة فى نظر المؤلف . والباب الأول من هذا الكتاب فى بيان كيفية خلافة الصديق ، والاستدلال على حقيقتها بالأدلة العقلية والنقلية . والرد على شبه لشيعة وإبطالها . والباب الثالث فى بيان أفضلية أبى بكر الصديق على سائر هذه الأمة . وقد أفرغ المؤلف جهده فى إبطال حجج الشيعة فى خلافة على والوصية التى يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم وصى بها له .

وعلاوة على ماتقدم فإنه ألف كتابا(٢) آخر فى مناقب معاوية . وهذا يعتبر ردا على الشيعة كذلك لأنهم يكفرون معاوية .

وقد ذكر عبد الغنى النابلسى(٣) أن السلطان سليم شيد فى قناطر السباع قصراً كبيرا ووهبه للشيخ جلال الدين . ثم إن العثمانيين منحوا ،شيخ البكريين

(١) ص ١ ، المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

(٢) تطهير الجنان واللسان من التفوه بثلب معاوية بن أبى سفيان مطبوع بهامش الصواعق المحرقة (٣) الحقيقة والمجاز ٣٥ جغرافيا مخطوط

فى مصر امتيازات لم تكن له من قبل ، منها الأوقاف الواسعة . ومنها أنهم جعلوه شيخا لمشايخ الطرق الصوفية ، يعين شيوخها ، ويتنظر على أوقافها . فاستطاع شيوخ البكريين أن يبنوا القصور الفخمة على شواطىء بركة الأزبكية ، وبركة الرطلى . ويغرسوا بها الحدائق الغناء ذات النافورات الجميلة ويزودوها بالرياش الفاخرة ، ويقتنوا الخيول الأصيلة ، والجوارى والعبيد وأن يتشبهوا بالملوك فى حياتهم .

وكانوا يستضيفون الأدباء والعلماء القادمين إلى القاهرة ، فتمكنوا بوساطة هؤلاء من نشر نفوذهم الأدبى وتعاليمهم من اليمن إلى الحجاز ، ومن العراق إلى الشام ، ومن مصر إلى شمال أفريقيا ، بل وفى تركيا . وكانت تحمل إليهم هدايا الملوك والأمراء والأعيان . وكانت شفاعتهم لا ترد ، وكلمتهم مسموعة عند أرباب الدولة . فانظر مثلا إلى ما يقوله صاحب خلاصة الأثر فى[1] ترجمة زين العابدين البكرى المتوفى سنة ١٠١٣ « وبلغ صاحب الترجمة فى آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشيه حكام مصر . وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه »

وانظر إلى مايقوله محمد الأمين الشامى فى كتابه[2] « نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة » .

« السادات البكرية سادات الوجود ، وأولياء النعم الذين عرفوا بالكرم والجود . بيت كالبيت العتيق يزوره من لبى وأحرم ، ومن نال لثم عتبة بابه فقد ظفر بالحجر المكرم . ثبتت أوتاده وأطنابه ، ووصلت بأسباب السماء أسبابه . لا زحاف فيه إلا فى بيوت حساده ، ولا إيطاء إلا على قلوب أضداده . حرم آمن ليس للحوادث عليه هجوم ، ولا لشياطين البغى فيه استراق ، فلذا تستريح شهبه من الرجوم . فهم نور الكون قبل أن يخلق النيران ، وقطب الدائرة قبل أن تؤمر الأفلاك بالدوران . خالصة الله من عباده أهل الصلاح ،

(١) ٢ / ١٩٨

(٢) ورقة ٢٣٤ .

وتراب نعالهم كحل لعيون أهل الفلاح . مامنهم إلا فتى لثوب العز ساحب، وللوقار مع الصِّبا مصاحب . فإذا استوى على كرسيه فلك عليك المهابة قبل الحاجب حاجب . بحار طمت وعلت القلل ، متمهدة منخفض الوهاد فى صوب العهاد ، فتوارت البحار خجلا منها . فى جيد الدهر من مدائحهم عقود وقلائد ، ليس إلا كلماتها شذرات وقوافيها فرائد » .

* * *

وتدور تعاليم البكريين حول شخصية أبى بكر الصديق. افنراهم يذهبون فيه مذهب الإسماعيلية فى على . ومعلوم أن الإسماعيلية قالوا إن نور الله تنقل من الأصلاب إلى الأرحام حتى اجتمع فى عبد المطلب ، ومنه إلى محمد فالأئمة من أبناء على . فقال البكرية إن الحقيقة المحمدية[1] انتقلت إلى أبى بكر وذريته من بعده . فالصديق هو الإنسان الكامل[2] . وعرفوا الإنسان الكامل بأنه الجامع لما تفرق من الكمالات فى سائر الأفراد الإنسانية ما عدا النبوة . فهم والحالة هذه متفقون مع الإسماعيلية فى نظريتهم فى الإمامة التى تقول بمثل هذا القول تماما. وذكروا فى آية (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى) أنها حكاية من القرآن على لسان أبى بكر . فالصديق سأل الله فى هذه الآية

(١) عمدة التحقيق فى بشائر آل الصديق ، تأليف إبراهيم العبيدى : ص ٣ وما بعدها طبع جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

(٢) فكرة الإنسان الكامل عرفت عند الفرس فى ديانتهم القديمة ، وفى [illegible] عند اليونان باسم الإنسان الأول . ويرى بعض المستشرقين أن فكرة الإنسان الأول [illegible] عضة عرفها الإسرائيليون ، ثم أخذها المسيحيون وعرفوها باسم « الكلمة المتجسدة » ثم أخذها المسلمون على يد جمعية إخوان الصفا . ثم عرفها الإسماعيلية وجعلوا [illegible] الوجود . فأحلوا محل « الكلمة المتجسدة » عند النصارى صورة [illegible] هى الأثر المعمول الذى تركه الخالق فى المخلوق ؛ مع وضع نوع من الادراك [illegible] العلو الإلهى . وهذه العين هى النبى محمد ؛ هذا النور النبوى الأزلى الذى [illegible] له « كونى فلولاك ما خلقت السموات » والمطلب فى « كونى » [illegible]

انظر الإنسان الكامل ؛ ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٨٧ [illegible] بالقاهرة سنة ١٩٥٠

صلاحا خاصا لأسرته ، أى أن يعطيهم مقام الصديقية التى تلى مقام النبوة فى الرتبة . وأتى « بنى » الظرفية الشاملة لصلاحهم ظاهرا وباطنا ، وهذا نفس ما ادعاه الإسماعيلية والشيعة عامة فى هذه الآية من أنها نزلت فى على وأبنائه من بعده .

وقال البكريون إن الصديق الذى قال الله فى حقه (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أكرم على ربه تبارك وتعالى من أن يهين ذريته بإدخالهم النار فى الآخرة . وقد قال الشيعة من قبل إن هذه الآية نزلت فى على وأبنائه من بعده .

* * *

والصديقية عند البكريين قاصرة على ذرية[1] أبى بكر التى منحها الله له بصفة خاصة بناء على سؤال أبى بكر . ومن ذلك نراهم جعلوا الصديقية هذه فى مقام الإمامة عند الشيعة . وهنا يظهر وجه الاختلاف بين البكرية والشيعة . فالشيعة يقولون إن ما خُص به أهل البيت إنما كان باختيار الله وبأمر منه دون أن يسأله أحد فى ذلك .

وكما أن الشيعة قالوا بانتقال الإمامة فى ذرية على بحيث لا يخلو عصر من وجود إمام يكون حجة الله فى عصره على عباده ، فكذلك قال البكرية[2]

= وقد عرف عبد الكريم بن إبراهيم الجيلانى الإنسان الكامل بأنه القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره . وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين . ويقول إن الإنسان الكامل يظهر فى صور مختلفة تبعا لا ختلاف الزمان . واسمه الأصلى « محمد » وله فى كل زمان اسم يليق به . ويقول إن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه » انظر الإنسان الكامل؛ تأليف عبد الكريم الجيلانى ٢/٦١ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ]

ويقول صدر الدين القونوى فى رسالته « مراتب الوجود » «الإنسان الكامل ، وبه تمت المراتب ، وكمل العالم ، وظهر الحق بظهوره الأكمل على حسب أسمائه وصفاته . وهو الجامع للحقائق الحقية ، والحقائق الخلقية جملة وتفصيلا ، حكما ووجودا بالذات والصفات » [انظر الإنسان الكامل ، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠]

(١ و ٢) عمدة التحقيق ص ٩٩ ، ١٠٠ .

بانتقال الصديقية فى ذرية أبى بكر بحيث لا يخلو عصر من وجود صدِّيق بكرى. قال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ.

فى كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ماحى الرِّيبْ

وروى عن محمد البكرى أنه قال « يجلس عقبنا مع عيسى ابن مريم على سجادة واحدة ».

ولم يقف البكريون عند نسبة الصديقية إلى أبى بكر، بل جعلوا له حقيقة معنوية تشبه الحقيقة المحمدية كما سنرى. فرووا حول أبى بكر كثيرا من الأحاديث التى تؤيد وجهة نظرهم فى الحقيقة البكرية مثل حديث(١) « بعثت أنا وأبو بكر كفرسى رهان فسابقنى فسبقته، ولو سبقنى لاتبعته » وهذا الحديث ورد فى كتب الشيعة مع إبدال كلمة « أبى بكر » بكلمة « على » فالله لم يبعث محمدا وحده، بل بعث معه أبا بكر، ولم يكن أحدهما يمتاز عن الآخر، ثم أخذا يتسابقان نحو النبوة فسبق محمد. وذكروا تأييدا لهذا الحديث أن أبابكر كان الثانى بعد الرسول فى الإسلام، وأول من آمن به وثانيه فى الهجرة وثانيه فى الغار، وثانيه فى دخول المدينة، وثانيه فى الإيمان بالإسراء، وثانيه فى الميلاد، لأن النبى ولد يوم الاثنين وأبا بكر ولد يوم الثلاثاء. والنبى ولد لاثنى عشر ربيع، وأبو بكر ولد لثلاثة عشر، وثانيه فى القيام بأمر الدعوة الإسلامية، والخليفة بعده. وثانيه فى القبر وكم للقرآن من أسرار هو فيها ثانى اثنين! ؟ فصحبته للنبى أزلية.

وحديث معناه أن النبى لما كان قاب قوسين أو أدنى من العرش أخذته وحشة، فسمع فى حضرة الله صوت أبى بكر فاطمأن قلبه واستأنس بصوت صاحبه. وقالوا إنه كان بين النبى وأبى بكر إشارات أزلية لايعرفها غيرهما

---

(١) العمدة ص٩٩. وهذا الحديث ذكر بغير إسناد. ولا وجود له فى الكتب المعتمدة. وكذلك شأن جميع الأحاديث التى أوردها صاحب العمدة.

فكان النبي يقول «يا أبا بكر ، أتدرى يوم لا يوم ؟فيقول أبو بكر . نعم ». ومعناه : أتدرى لما كان كذا وكذا قبل خلق الأيام ؟ .

وحديث « خلقت أنا وأبو بكر من طينة واحدة » وحديث « كان جبريل إذا قدم أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحادثه يقوم إجلالا للصديق دون غيره . فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال جبريل: أبو بكر له على مشيخة فى الأزل. وما ذاك إلا أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم حدثتنى نفسى بما طرد به إبليس ، فحين قال الله تعالى اسجدوا ، رأيت قبة عظيمة عليها مكتوب : أبو بكر ، أبو بكر ، مرارا ، وهو يقول : اسجد ، فسجدت من هيبة أبى بكر ، فكان ما كان » .

ورووا أنه لما مات أبو بكر واستخلف عمر كان يتبع آثار أبى بكر ويتشبه بفعله . فأخذ يتردد على عائشة وأسماء ويقول لهما : ماذا كان يفعل الصديق إذا خلا ببيته ليلا ؟ فيقال له : ما رأينا له كثير صلاة بالليل ولا قيام . إنما كان إذا جنه الليل يقوم عند السحر ويقعد القرفصاء ويضع رأسه على ركبتيه ثم يرفعها إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول : آخ ، فيطلع الدخان من فيه . فيبكى عمر ، ويقول : كل شىء يقدر عليه عمر إلا الدخان. وأصل ذلك كما ذكروا أن شدة خوف أبى بكر من الله أوجبت احتراق قلبه ، فكان جليسه يشم منه رائحة الكبد المشوى . وسببه كما زعموا أن الصديق لم يحتمل أسرار النبوة الملقاة إليه .

وقالوا فى حديث[1] « أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه » إن المعرفة التامة تكشف عن جلال المعرف وجماله . وكلاهما أمر عظيم جدا تنقطع دونه الغايات . ولولا أن الله تعالى ثبت من أراد ثباته وقواه على ذلك

---

(١) العمدة ص ٨٧ ، ٨٨

ما استطاع أحد الوقوف ذرة على كليهما جلالا وجمالا . والغاية فى الطرفين قد نالها الصديق فقد ورد فى الحديث « ماصب فى صدرى شىء إلا صببته فى صدر أبى بكر . ولو صبه جبريل عليه السلام فى صدر أبى بكر ما أطاقه لعدم مجراه من المماثل ، ولكن لما صب فى صدر النبى وهو من جنس البشرية فجرى فى قناة مماثلة للصديق ، فبواسطتها أطاق حمله ومع ذلك احترق قلبه » .

ومن هنا نرى أن البكرية كفرقة صوفية امتازت عن غيرها من الفرق، وذلك بأن أضافت إلى مفهوم الحقيقة المحمدية الصوفى عنصرا جديدا ، هو الحقيقة المعنوية لأبى بكر الصديق، بحيث تكون هذه الحقيقة الأخيرة ملازمة للحقيقة الأولى ، ولا تنفك عنها منذ الأزل . وقد مر بنا قولهم إن صحبة أبى بكر للنبى أزلية ، أى أن الحقيقة البكرية وجدت مع الحقيقة المحمدية .

وإذا كان الصوفية يقولون إن الأولياء يتصلون بالحقيقة المحمدية فإن البكريين قالوا إن الأولياء يتصلون بالحقيقة البكرية . وقد صور لنا محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ الحقيقة البكرية فى شعر كثير نذكر منه[١] :

هو الجمع فى عين الشهود بلا مرا ... تجلى بأنواع من الفيض بالأمر[٢]
هو الملكوت الواسع المطلق الذى ... تعالى عن الأوهام والذهن والفكر
هو الرحموت الجامع الكل فى العلا ... ومرشد أرباب الهدى سبل الذكر
هو العين من عين لعين تنقلت ... وعين هداه قد أفاضت على البحر[٣]

---

(١) ديوان محمد البكرى ورقة ١٢٠ مخطوط ٨٥

(٢) الجمع : الحالة التى يشعر فيها الصوفى بوحدة الحق والخلق ، ويفنى عن نفسه وعن كل ماسوى الله . بلامرا : بلاشك . الفيض : هو تجلى الذات الإلهية .

(٣) العين : موضع تجلى الذات الإلهية . أو النور الإلهى .

هو المركز النورى فى كل حضرة
وجامع ملك الكون فى قبضة الأسر
هو الكل والكل العظيم جميعه ... بباطنه كالدر فى مهمه قفر
هويته منه إليه مسيرها ... تحدث عن أسراره كل ذى قدر
هو الجامع الأسرار من آدمية ... ووارث خير الخلق فى السر والجهر
ومشهد كل العالمين مقامه ... ورافعهم فى الله فوق ذرى الفخر
وكل ولى بعـــد طه وعارف ... فنقطة ماء من بحار أبى بكر
وما زال هذا المجد فيه حقيقة
إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى

ومعنى هذه الأبيات أن أبا بكر اجتمع فيه الحق والخلق فتجلت فيه الذات الإلهية ، وأصبح هو هذا العالم المترامى الأطراف الذى لا يستطيع الإنسان أن يحيط به أو يدرك كنهه. وهو الذى اجتمعت فيه الرحمة وأصبح هاديا ومرشدا للناس . وهو العين أى النور الذى تنقل فى الأصلاب من آدم وهو مركز النور الإلهى ، وفى كل مجال يظهر فيه أثر للسر الإلهى . وفيه تركز هذا الوجود ، فهو الخلق والحق والوجود ، والصورة التى يتجلى فيها الحق يوم القيامة تبدأ منه وتنتهى إليه معربة عن أسراره . وهو الذى اجتمعت فيه الأسرار الإلهية من لدن آدم ، والذى ورث خير الخلق ، أى النبى محمد عليه الصلاة والسلام . فهو يمثل العوالم كلها ، ويكسبها فخرا لاحد له . وكل ولى وعارف بعد النبى محمد لا يغدو أن يكون نقطة من بحار أبى بكر . وما زال هذا المجد يتنقل فى ذرية أبى بكر حتى ظهر فى شخص أبى الحسن البكرى .

* * *

وقالوا إن داوم[1] ناموس آل الصديق وقيام عزتهم إلى انتهاء الدنيا

(١ ، ٢) العمدة ص ١٠٠ ، ١٢٢ .

ثابت بقوله تعالى « فى ذريتى » فإن عدتها بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وعشرة ، وهى مظنة تمام الدنيا . وعندهم أن من أحب آل الصديق نجا من كل سوء ، ومن كل مكروه . وأن خلافتهم صدق وحق وقد نص عليها القرآن . قال محمد زين العابدين[١] البكرى :

وحاشا الذى بالحب والود ينتمى إلينا يرى سوأ وحافظه الولى
خلافتنا بالحق والصدق قد أتت أدلتها عن نص ذكر مرتل

وقال محمد البكرى إنه ورث الخلافة عن النبى :

ورثت النبى فلى من رباه مقيل الخلافة والمسرح

ومنكر آل الصديق كافر. قال :[٢]

إن الذى ينكرنا لقد أتى إحدى الكبر
وكل من يعرفنا نال الأمانى وظفر

وقالوا إن الألف فى «ألم»[٣] تشير إلى أبى بكر ، واللام إلى الله ، والميم إلى محمد . وفى ذلك يقول محمد البكرى :

لئن كان نخر الأكرمين صحائفا فإنا لآيات الكتاب فواتح

وأطالوا القول فى آية « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه» وفى الحديث الوارد عن النبى عليه السلام حين مرض وهو « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

* * *

ومع أن البكرية غالوا فى أبى بكر غلوا قبيحاً كما رأينا ؛ إلا أنهم طعنوا فى الشيعة ، واعتبروهم جميعاً رافضة[٤] وقالوا إن الرافضى إذا أشرف على الموت يقلب الله صورة وجهه وجه خنزير ، فلا يموت إلا إذا صار وجهه كذلك ، فإذا رآه أهله فرحوا واستبشروا لأنه مات على الرفض . أما إذا لم يحدث ذلك فإنهم يحزنون ويقولون إنه مات سنياً .

(١ ، ٢) ديوانه ورقة ٥٠ ، ٩٨ (٣) العمدة ص٨٧ والمراد ألم نشرح لك صدرك ، وكل آية وردت فيها «ألم» (٤) العمدة ص ٨٦

وأول شخصية بكرية ظهرت فى العصر العثمانى وتركت آثاراً أدبية ؛ هى شخصية أبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ وسبق أن ذكرنا أن أبا الحسن لازم الدشطوطى . وقد حدث أن زار مصر أحد كبار متصوفة الشام فى ذلك الوقت وهو « رضى الدين الغزى » فأمر(١) الدشطوطى أبا الحسن أن يأخذ عنه التصوف . ولم يلبث أبو الحسن أن استوعب تعاليم الصوفية وبخاصة ابن عربى وابن الفارض . ثم ذهب لأداء فريضة الحج واتصل بكثير من علماء الأقطار الإسلامية . ولما رجع من الحجاز زاول التدريس بمسجد والده جلال الدين ، وبالجامع الأزهر . ومؤلفاته التى وصلت إلينا يغلب عليها الجمع ، إذ هى أحاديث نبوية فى موضوعات شتى . مثال ذلك « غاية الطلب فى فضل العرب » و « تحفة العجلان فى فضائل عثمان » و « الانتباه إلى فضائل لا إله إلا الله » ، وغيرها . وكل مؤلف من هـذا يحتوى على أربعين حديثاً بإسنادها . وقـد ترجم له الشعرانى فى ذيل(٢) طبقاته فقال « الصوفى المحدث ، نادرة الزمان ، الشيخ أبو الحسن البكرى — رضى الله عنه — أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسـلام والتصوف كالشيخ رضى الدين الغزى . وتبحر فى علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك . وكان له النظم الشائق فى علوم التوحيد . وأطلعنى مرة على تائية عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله فى طريق القوم ، ثم إنه غسلها وقال إن أهل زماننا لا يتحملون سماعها لقلة صدقهم فى طلب الطريق » .

وقال محمد اليمنى فى كتابه « السنا(٣) الباهر » ما نصه « وقال جماعة إنه — يعنى أبا الحسن البكرى — بلغ رتبة الاجتهاد ، وصنف التصانيف الكثيرة المحررة الشهيرة . منها ثلاثة شروح على المنهاج ، وثلاثة شروح على الإرشاد ، وشرح العباب ، وشرح الروض ، ومختصر الإيضاح وشرحه .

(١) الكواكب السائرة ورقة ٣١٢ مخطوط رقم ١٢٠٦ تاريخ .
(٢) ص ٥٠ طبع مصر سنة ١٣٠٢
(٣) ص ٣٨ طبع مصر سنة ١٣٠٨

وعدة متون فى الفقه ، وعدة رسائل فى التصوف ، وغير ذلك . وكل كتبه محررة ، ومسائلها مقررة . وانتشرت تصانيفه فى سائر الأقطار ، وانتفع بها الكبار والصغار. وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، وتخرج به العلماء العارفون. وله نظم نضد فيه عقود الجواهر ، يقصر عنه كل أديب وشاعر . وله موشحات توحيدية لم ينسج على منوالها أحد من البرية » .

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب الكواكب السائرة(١) قصيدة طويلة فى التصوف والحب الإلهى ، والوعظ والإرشاد والمناجاة ، نذكر منها :

أنتم معانى الكائنات فأينما أنتم حللتم حلّتِ البركاتُ
لله ما أحلى قديم حديثكم ذاك الذى هو للقلوب حياة
تحيا قلوب العارفين بذكركم والجاهلون قلوبهم أموات
غنّى الزمان بمدحكم متعللا فرحاً فكل جهاته نغمات

ومنها :

وبدا سنا مصباحكم فقلوبنا كزجاجة وصدورنا المشكاة
وقع النداء لنا ألست بربكم ؟ قلنا : بلى وأجابت الذرات

والقصيدة كلها على هذا النمط من الرقة والسلاسة والبعد عن التكلف ، ولكن المذهب الصوفى لأبى الحسن لا يظهر فيها . ولا يستنتج من قوله :

. . . . . . فأينما أنتم حللتم حلت البركات

أنه يدين بمذهب الحلول ، لأن أتباع هذا المذهب يقولون بحلول الله فى جميع المخلوقات الطاهرة والشريرة . والمخلوقات الشريرة لا يمكن أن تكون محلا للبركة الإلهية التى يذكرها الشاعر .

---

(١) ورقة ٣٠٢ مخطوط .

وقد نوه البكريون بشأن أبي الحسن كثيراً فى كتبهم ورسائلهم ، ورووا له الكرامات والخوارق . واعتبروه مؤسس مجـدهم الأدبى والصوفى والاجتماعى فانظر إلى ابنه محمد البكرى حين يقول :

وكل ولىّ بعد طـه وعارف فنقطة ماء من بحار أبى بكر
وما زال هذا المجد فيه حقيقة إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى
فحاز جميع الإرث وازداد أمره به منه ما يبديه عن شأنه ذكرى
فمن ذاك أن العين حقاً تقابلت بعين تجلِّى الحق فى أحمد السر
فودّت تجليها بهـا فتعينت بطلعتها فى الذات من دون ماستر
فأصبح مخطوبَ الجمال ورونق الـ كمال وحامى الحق بالبيض والسُّمر
وعالمَ هذا العالمِ الأكبرِ الذى توسع حقـاً فى مراتبه الغُـرِّ
وهيكلَ أسرار التجـلِّى وقطبَها ومشرق بدر السر فى ليلة القدر
ولا عجب أن يطلع البدر فى الدجى بأية وقت شاءه ملك الأمر
ووارث تكليم الـكليم وحائز الـ كلام بما يبديه فى الكَلِمِ العشر
فروّض ربى روض تربته التى يفوق شذاها المسك فى طيِّب النشر
ولوح به رقم العلوم بأسرها وسرُّ نظام الكون فى البرّ والبحر

فلم يذكر الشاعر أحداً من أجداده ، بل قصر كلامه على والده . وقال إنه كالبدر الذى طلع فى الظلام ، ولا عجب فى أن يطلع البدر فى أى وقت متى أراد الله ذلك . ويريد بالدجى خمول الذكر الذى لازم أسرته مدة من الزمن ، ولم يتبدد إلا بظهور أبى الحسن الذى حاز إرث الصديق وأضحى موضعاً لتجلى الأسرار الإلهية ، متعمقاً فى علوم الحقيقة التى تلقاها عن الله مباشرة كما تلقى موسى الوصايا .

* * *

ولما مات أبو الحسن خلفه فى مشيخة السجادة ابنه محمد البكرى الـكبير المشهور بأبيض الوجه ، المكنى بأبى بكر ، وأبى المكارم . وقد ترجم

لنفسه فذكر أنه ولد عام ٩٣٠ هـ ثم تحدث عن نشأته وحياته الدراسية واشتغاله بالتدريس والتأليف ، وما له من نظم ونثر . ووردت هذه الترجمة في كتاب « عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق » تأليف أحد دعاة البكريين في القرن الحادي عشر ، وهو إبراهيم العبيدي المالكي الذي شغل وظيفة الإفتاء في البحيرة . وقد رآه عبد الغني النابلسي حينما زار مصر سنة ١١٠٥ هـ وذكره في رحلته .

قال محمد البكري إنه ختم القرآن في أواخر السابعة من عمره ، وصلى به إماما[١] في تراويح رمضان في مقام السادة المالكية عند الكعبة وهو في الثامنة . ثم حفظ ألفية بن مالك والتنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فقه الشافعي قبل تمام العاشرة . وكان مواظبا على حضور دروس والده ، فأخذ عنه التفسير والفقه والحديث . ولم يذكر أنه تتلمذ لأحد سوى والده .

ثم شرع في التأليف وهو في السادسة عشرة . فشرح كتاب الاختصار في فقه الشافعي ، وقطعا من مؤلفات فقهية ، ورسائل كاملة في التصوف . وزاول التدريس في مسجد جده المشهور بالجامع الأبيض . ثم خلف والده في التدريس بالجامع الأزهر .

* * *

ورث محمد البكري عن والده ثروة طائلة مكنته من أن يعيش كما قال الشعراني عيشة الملوك في مسكنه ومأكله ، وملبسه ومركبه ، وجواريه وعبيده . وكان الناس ينكرون على البكريين الجمع بين الغنى وحياة التصوف التي ينبغي في نظرهم أن يكون طابعها التقشف والفقر . ولكن البكريين ومنهم محمد البكري كانوا يرون ألا تناقض بين الغنى والتصوف . ويحتجون بقولهم[٢] إن أبا بكر كان له ثلاثمائة وستون كرسيا ، على كل كرسي حلة بألف دينار . وأن[٣] عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة . ونحن نعرف من

---

(١) إمامة الصبي جائزة عند الشافعية والمالكية

(٢،٣) العمدة ص ٨٧ ، ١٢٣

التاريخ أن أبا بكر عاش فى الإسلام فقيراً ومات فقيرا . فإن صحت دعواهم فى عبد الرحمن بن عوف فإنها لاتصح فى أبى بكر . واحتجوا كذلك بقوله تعالى «قل من[1] حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» وقوله صلى الله عليه وسلم « كل طيبا ، والبس طيبا ، واعمل صالحا » .

تمتع محمد البكرى فى حياته بنفوذ أدبى واسع ، وتبادل الرسائل مع الملوك والأمراء والوزراء والأعيان فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى . وكانت تصل إليه الهدايا النفيسة ، وكان مقبول الوساطة . وقد ذكره الشعرانى فى ذيل طبقاته وأثنى عليه كثيرا . كما ذكره عبد الرءوف المناوى فى[2] طبقاته ـ الطبقة العاشرة فقال ـ « ... رزق من القبول والحظ التام عند الخاص والعام مالا تضبطه الأقلام . وكان فصيح اللسان ، ذكى العصر والزمان . يلقى دروسا فى التفسير محررة موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزمخشرى وأضرابه . ويأتى فى تقريره بما يدهش الناظر ويحير الخاطر . واختص فى زمنه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة . ولم أر أحدا من علماء عصره كهو فى صفاته وخلو مجلسه من اللغط واللغو والغيبة . فكان مجلسه لا يذكر فيه شىء من ذلك البتة ، بل كله فوائد علمية ، إما تفسير بعض آيات قرآنية أو أحاديث نبوية . وسمعته يقول : هذا القص الواقع فى وعاظ زماننا يستحقون عليه القص . وكان الباشا وقاضى العسكر فمن دونهما من الأمراء والكبراء يأتون إليه ويخصونه من بين أقرانه بالزيارة مرارا وكرارا كثيرة »

وإذا كان بعض معاصريه أنكر ولايته لأنه لم ير له كرامة ، فإن البكريين اعتقدوا فيه الولاية ، ورووا له الكرامات الكثيرة . وقالوا إذا كانت لك حاجة إلى الله وأنت فى أى مكان من الأرض فتوجه نحو قبره وقل « ياشيخ محمد ، ياابن أبى الحسن ، ياأبيض الوجه ، يابكرى ، توسلت بك إلى الله تعالى فى قضاء حاجتى » فإنها تقضى ، وهى مجربة فيما زعموا .

---

(١) الأعراف آية ٣٢

(٢) الكواكب الدرية ، ويعرف بطبقات المناوى ورقة ٣٢ ؛ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

ويعتبر محمد البكرى أعظم شخصية بكرية ظهرت فى مصر خلال العصر العثمانى . فهو الذى وضع الحزب البكرى المشهور الذى انتشر بين أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة . وهو أول من اتخذ شعره وسيلة للدعاية للتعاليم البكرية . وقد ترك ديوانا ضخما ، منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية . الأولى تحت رقم ٨٥ ـ أدب ، والثانية تحت رقم ١٧٢٢ ـ أدب . وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية إسكندرية تحت رقم ٣٥٥٢ ج ، كما أن الجامعة العربية أحضرت شريطا من استنبول من نسخة خطية لهذا الديوان ، رقمها ١٢١٥

ولمحمد البكرى ، عدا هذا الديوان الضخم ، مجموعة رسائل عنوانها «دستور الغرائب ومعدن الرغائب » منها نسخة خطية بمكتبة بلدية سوهاج . وقد أحضرت الجامعة العربية شريطا من هذه النسخة تحت رقم ٩٥٤ ـ أدب وله كذلك بعض رسائل فى التصوف . وسنقصر الكلام هنا على شعره .

* * *

شعر محمد البكرى ، عدا القليل منه ؛ فى التصوف . ولكى نقف على حقيقة مذهبه الصوفى سنضع أمامنا بعض ما يكشف لنا عن آرائه الصوفية .. فمن ذلك قوله :

كم أناس توغلوا فى الدعاوى زعموا أنهم من الأبرار
بل من العارفين بالله لكن قسما إنهم من الكفار
أطلقوا وحدة الوجود وقالوا كل شىء هو الإله البارى
يا لقومى أما لطه نصير قاب من لم يكن من الأنصار ؟
أى شخص يقول آمنت بالله ويرضى مقالة الفجار ؟
وتراهم تمشدقوا بأكاذيب افتروها بالنثر والأشعار
أطرقوا الرأس حيلة لحطام وسعوا فيه حيلة الأفكار
قائل منهمو أنا الحق والكل . أنا وحدة بلا إنكار

وغدوا في أثواب زور ولبس وشنار وذلة وعوار

في هذه الأبيات تعريض شديد بالاتحاديين[1] والحلوليين[2] والقائلين بوحدة الوجود . واتهام لهم بالكذب والتزييف ، والغش والخداع ، فضلا عن الكفر والفجور . وقد كرر هذا في مواضع كثيرة من شعره . فمن ذلك قوله :

ما حلت الذات ، بل جلت وما اتحدت بمشرق ، لا ولا المعنى بمنقسم

وقوله :

حلول محال واتحاد مخالف لوحدته فالوصف فيه تلونا

وقوله :

حيرة عمت الوجود فأعمت عن سناها قوما وصحبا وآلا
فاستمع لي واستنصت الكون وافقه ما إليك انتهى وخل الخيالا
ليس في مظهر يحل حبيبي هو أعلى قدرا وأبهى كمالا
لا ولا باتحاده قال قوم عرفوه حاشا لذا أن يقالا

فإذا كان محمد البكري كما نرى ينكر مذهب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ويكفر أصحاب هذه المذاهب ، فبأي رأي كان يدين ؟ الواضح من شعره أنه كان يقول بوحدة الشهود ، أي أنه يذهب مذهب ابن الفارض مع فارق عظيم ، وهو أن محمد البكري يقول بالحقيقة البكرية التي تنتقل في ذرية الصديق ، والتي امتازت بها هذه العائلة عن غيرها من الناس . ولو أنه قال بمذهب الاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود لفقد هو وأفراد بيته الميزة الوحيدة التي يتمتع بها ، وذلك لأن المذاهب السابقة تسوي بين الناس وتجعلهم كلهم متصلين بالذات الإلهية ، فلا ميزة لأحد على أحد . وهو يريد أن يكون لبيته مكانة خاصة وميزة لا يشاركه فيها غيره ، ألا وهي وراثته للحقيقة المحمدية والحقيقة

(١) مذهب الاتحاد ينص على أن الخلق متحد مع الحق

(٢) مذهب الحلول ينص على أن الله حال في المخلوقات .

البكرية . وإذا كان محمد البكرى قد كفر القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، فإن الإسلام الصحيح يبرأ من التعاليم البكرية والقائلين بها ، والمروجين لها .

* * *

ذكرنا أن محمد البكرى كان يدين بمذهب وحدة الشهود . والمؤمنون بهذا المذهب يقولون إن الله يتجلى لكل من يخلص له فى عبادته ويفنى فى حبه . قال محمد البكرى :

ولاحت لنا فاستغرقت كل واحد　　وصارت له فينا عن الأين طاويه
مقدرة سر الوجود بوحدة الشـ　　ـهود فلا تلقى هنالك ثانيه

والمعنى أن الذات الإلهية تجلت وتكشفت وجذبت نحوها هؤلاء المتصوفة فغابوا عن الزمان والمكان ، ولم يشعروا بوجودهم من فرط النشوة .

ويعبر محمد البكرى عن مذهب وحدة الشهود مستدلا بقصة موسى عليه السلام حينما رأى النار وتوجه إليها فتجلى له الله سبحانه وتعالى وكلمه . قال :

جمعتنى منك حتى كنت منك بما　　قدست فيه لموسى ذلك النادى
جعلت بالشجر المخضر نارك فا　　نزت بنورك جمعا سرحة الوادى
فظنها المطلب المقصود فابتدر الـ　　ـمشهود حتى تبدى أنك البادى
ما أنت نار ولا نور تقسمه الـ　　ـأحلام هيهات أنت الواحد الهادى
فامنن بكشف حجاب أنت ناسجه　　عليك منك وقرب كل قصاد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى على لسان[1] موسى « امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ويقول المتصوفة

---

(١) سورة طه آية ١٠ .

إن الله تجلى لموسى فى صورة النار لأنها عين مطلوبه من جهة. ومن جهة أخرى فإنها رمز القهر والمحبة ، لأنها تفنى كل ما اتصل بها . وكذلك الله يفنى كل ما اتصل به ، أى كل من تحقق من وحدته الذاتية . وهذا الفناء هو الذى يعبر عنه المتصوفة بالجمع . والنار كذلك رمز المحبة لأنها مصدر النور المحبوب لذاته .

وينكر محمد البكرى لبس الصوف والمرقعات ؛ لأنها لا تتفق مع ما كان عليه من غنى . قال :

وما مذهب للفيلسوف وفرقة   بلبسته للصوف مذهب شرعتى

* * *

ومن مصطلحات[1] الصوفية الواردة فى شعره :

١ — الجمع والفرق : الجمع الحالة التى يشعر الصوفى فيها بوحدة الحق والخلق ، ويفنى عن نفسه وعن كل ماسوى الله . فهى حالة غيبية روحية . وعكسها حالة « الفرق » التى يكون فيها فى حالة صحو ، أى حينما يشتغل بأمور الدنيا . قال :

وأبعد الجمع عنهم فى شئو نهمو   ما يحجب العين من غبن ومن كدر
فالحق بالحق مرآة لشاهدهم   وليس ثم سوى المعشوق للفطر

٢ — البسط والقبض : البسط هو النشوة التى يشعر بها الصوفى فى حالة فنائه بالذات الإلهية . وعكسه القبض ، وهو الضيق والتبرم الذى يقع فى حالة الصحو . قال :

وأطلقهم بسطا بكل لطيفة   وقيدهم قبضا بدائرة الفنا

٣ — الطى والنشر ، وهما كالجمع والفرق . فالطى : انطواء الخلق فى الحق فى حالة الفناء ، أو الغيبة الروحية . وعكسه النشر . قال :

---

(١) رجعت فى شرح هذه المصطلحات إلى تعريفات الجرجانى ، وشرح فصوص الحكم لصدر الدين القونوى .

نشر وطىٌ حكمة قدسيه سُعدى وَمىٌ ظلة رسميه

٤ — الوتر والشفع : الوتر هو الذات الإلهية ، والشفع هو العالم . ويقول المتصوفة إن الذات الإلهية إذا نظر إليها مجردة عن جميع العلاقات والنسب لم يكن لها دلالة ولا إشارة إلا على نفسها . أما العالم الذى هو كثرة من صور الوجود فله إشارتان : إشارة إلى نفسه ، وإشارة إلى الذات المندرجة فى كل صورة من صوره . والحقيقة أن الوتر هو الشفع ولكنهما متغايران فى الذهن ، كما أن الواحد العددى هو عين الأعداد كلها ولكنه مغاير لها ذهناً . وهذا الرأى الرياضى قديم ذهب إليه اليونان ، فقالوا إن الواحد أصل العدد ، وكل ما يأتى بعده فهو مندرج فيه . فالإثنان عبارة عن واحد زائد واحد . والثلاثة عبارة عن واحد ، زائد واحد ، زائد واحد . وكذلك سائر الأعداد . وقد أخذ إخوان الصفا عن اليونان هذه الفكرة فقالوا إن الواحد أصل العدد ومنشؤه ، وأوله وآخره . قال محمد البكرى :

ومنه شفعه الأزهر بدا فى الخلق بالوترِ

وقال :

واستغرقِ الشفعَ بالوترِ المحيطِ ولا تترك لنفسك سهماً غير مرمى

٥ — اللاهوت والناسوت : يقول المتصوفة إن لكل موجود ناحيتين : ناحية الباطن أو الحق ويسمونها باللاهوت . وناحية الظاهر أو الخلق ويسمونها بالناسوت . قال محمد البكرى :

فلم أدر ما الناسوت أين ولا الذى تعيَّنَ باللاهوت عن وصف نسبة

٦ — الفيض : تجلى الذات الإلهية . قال :

هو الجمع فى عين الشهود بلا مرا تجلى بأنواع من الفيض بالأمر

وتكون بمعنى خروج شىء من شىء ، مثال ذلك قوله :

وعطّر الأَرَجُ القدسىُّ حِلّتنا وفاض من مُعصَرات الغيب وادينا

٧ — التعينات : وهى مجالى الذات الإلهية . فكل ما يتجلى فيه الله يسمى التعين . قال :

وفى العروش وألواح النقوش كما شاء التعين فى مثلٍ وفى مَثَل

٨ — البرزخ : حالة مابين الفناء والصحو . قال :

فأشباحهم فى برزخ من شهوده وأرواحهم فى غيبة القرب والغنى

٩ — الحيرة : الحالة التى يرى الصوفى فيها الحق فى كل شىء . ويرى الواحد كثيراً ، والكثير واحدا ، والأول آخراً ، والآخر أولا ، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة التى توقع النفس فى الحيرة وتجعلها هائمة على وجهها ، دائبة الحركة فى دائرة الوجود . قال :

هديت بالغرة من ضل فى طرتك الدهما وحيرتنى

١٠ — القدوس والسبوح : هما من أسماء الله . ومعناهما المنزه ، وإن كانوا يقولون إن القدوس أخص فى معنى التنزيه من السبوح وأبلغ ، إذ التقديس تنزيه الله عن كل صفات الممكنات ولوازمها حتى كمالاتها ، وعن كل ما يتوهم ويتعقل فى حقه تعالى من الأحكام الموجبة للتحديد والتقييد . وبعبارة أخرى التقديس هو نهاية التجريد ، ولا تقول به إلا النفوس المجردة التى لا صلة لها بالأمور المادية قال محمد البكرى :

إلى القدس الذاتىّ والمعهد الروحى إلى ملكوت منه يظهر سبوحى

وقال :

وقد دخلوا لكن بيوت وجودهم وأدخلنى القدوس أى جناب

١١ — السر المحيط والسر البسيط . يطلق الأول على الذات الإلهية ، والثانى على الإنسان قال .

وبعزة السر المحيط مركب السر البسيط بطينة وتراب

١٢ ـ النفخ ، وهو خروج شيء من شيء ، أو فيض شيء من شيء .
قال :

ولقوله ونفخت فيــه آية تعطى القلوب من المنى ما تطلب

١٣ ـ الأحدية والصمدية : الأحدية اسم للذات المجردة عن جميع الأسماء والصفات . والصمدية نسبة إلى الصمد ، من أسماء الله تعالى . قال :

فى روضة أحــدية صمــدية أنا لى بهـا منى المغنى المطرب

١٤ ـ الهوية : الصورة التى يتجلى فيها الحق يوم القيامة . قال :

يا هويات صــفات ظهرت فى ذوات بالتجـلى قهرت

١٥ ـ قرآن وفرقان : استخدم المتصوفة كلمة « قرآن » بمعنى الدعوة إلى تنزيه الله . فمن دعا إلى تنزيه الله فهو قرآنى . وقد ردد محمد البكرى هذه الكلمة فى شعره فقال :

قرآن عرفانىَ الأعلى يكلمكم فاسمعوا وانصتوا ياجلة الأمم

وكذلك استخدموا كلمة « فرقان » ومعناها لا يختلف عن « قرآن » قال محمد البكرى :

فبعينى منه لائحــة ، ظهرت جمعاً بفرقان

١٦ ـ النكاح : يرى المتصـوفة أن أعظم اتصـال جسمانى بين الرجل والمرأة هو النكاح ، إذ فيه يتوجه الرجل لإيجاد ولد يكون على صورته ويخلفه من بعده . ولذلك شبهوا توجه الله إلى خلق آدم ونفخه فيه من روحه ليكون على صورته ويخلفه ويرى فيه نفسه ؛ شبهوا هذا بالنكاح .
قال محمد البكرى :

وعَزة قد أنكحتها بكُـثَـيِّر وقيس لليلى صار فى شرعتى بعلا
فولَّد ذاك البعل منها مشاهداً يعدّدها شكلا ويجمعها شملا

١٧ ـ التابوت : وهو فى اصطلاح الصوفية الجسم الإنسانى . وقد ورد

ذكر التابوت فى قوله تعالى « وقال لهم[١] نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة » والمراد بالسكينة عند المتصوفة : الحضور الإلهى ، أو الله نفسه . وفى هذا المعنى يقول محمد البكرى :

وقابلك التابوت فيه بقية ... يضم بها التابوت من سره شملا

١٨ ـ العارف : هو الولى أو الإنسان الكامل الذى تحققت فيه كل صفات الوجود ، فكان مظهراً تاماً وكوناً جامعاً لها وقلب العارف من رحمة الله ، وهو أوسع منها لأنه وسع الحق جل جلاله . ومن خصائصه أنه يشاهد الحق فى كل مجلى ، ويراه فى كل شىء ، ويعبده فى كل صورة من صور المعتقدات . وقد وصف محمد البكرى نفسه بأنه عارف الوقت ، ومخصوص الزمان . قال :

الفتى البكرى مقدام الوغى ... عارف الوقت ومخصوص الزمان

١٩ ـ الحكمة : والمراد بها عند الصوفية التعاليم الباطنية التى اختص بها النبى محمد عليه السلام وورثها من بعده . وأطلقوا على هذه التعاليم اسم العلم الباطن . وهو عندهم علم الطريق الصوفى ، وما ينكشف للصوفية من حقائق الأشياء ، ومعانى الغيب . قال :

ينزل الحكمة فى روضها ... غيثاً تعالى الله من ودقه

ومن خصائص الحكمة أنها تنزل على القلوب ، لا على العقول .

٢٠ ـ المطلق الأعلى : ومعناها الذات الإلهية . قال :

تجلى المطلق الأعلى ... فجلى نوره الأدوار

٢١ ـ ذات الذوات . ومعناها الحقيقة المحمدية . قال :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩

هو السر فى ذات الذوات تقابلت   شواهده فى فىء نفس وطينة

٢٢ ـ الولى : الولاية عند المتصوفة أساس المراتب الروحية كلها . فكل رسول ولى ، وكذلك كل نبى . وأخص صفات الولى المعرفة ، أى العلم الباطن . والنبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان . أما الولاية فلا تنقطع . وقد وردت كلمة « ولى » فى مواضع مختلفة من شعر محمد البكرى . قال :

فعساه يذكرنا وذلك سؤلنا   فهو الولى ابن الولى ابن الولى

٢٣ ـ الحضرة : المجلى الذى يظهر فيه أثر إلهى من نوع خاص . أو المجال الذى يظهر فيه فعل إلهى خاص . قال :

وانجلت آزال حضرته   من شئون البدء فى الأبد

وقال :

حدثنا الواحد عن واحد   عن حضرة المشهود والشاهد

وقال :

هى الروح والروح أمر خفى   دق إلا عن حضرة الرحمن

فحضرة الرحمن هى مجموعة المجالى التى يظهر فيها أثر الرحمة الإلهية .

٢٤ ـ التخلل : هو سريان الحق فى صورة الموجودات جميعها . قال :

تخلل روحى حبه فهو شاهدى   ومشهود روحى فى جميع المشاهد

ويفسر الصوفية كلمة « خليلا » فى قوله تعالى « واتخذ(١) الله إبراهيم خليلا » بالتخلل وهو السريان

٢٥ ـ أسماء الذات : قال المتصوفة إن الكون هو الأسماء التى أطلقها الله على نفسه . وغاية الخالق عنده أن يرى الله نفسه فى صورة تتجلى فيها صفاته وأسماؤه . أو بعبارة أخرى يرى نفسه فى مرآة العالم . وإلى هذا يشير محمد البكرى فى قوله :

---

(١) النساء ـ ١٢٥

أسماء الذات تجلت في ستر الأوصاف وذا الأَرَبُ

هذه أهم المصطلحات الصوفية التي أوردها محمد البكري في شعره . وقد أخذها كلها من كتب ابن عربي وبخاصة فصوص الحكم الذي يشير إليه بقوله:

نُقشت في فصوصنا حكم الـ وصف فرحنا نحيرُ في الحكماء

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أن البكريين أضافوا إلى جانب الحقيقة المحمدية بمعناها الصوفي ، حقيقة أخرى هي الحقيقة البكرية . قال محمد البكري :

وأعلنتُ نوري في مشاهد حضرة الـ جمال على أعلام أعلام ملتي

وقدست هاتيك المنازل عن سوى تنزل عرفاني ببطحاء مكة

ومنيٌّ بصدِّيق صديق مظهر الـ وجود ومرآتي وعين سريرتي

وما ثم إلا أن أمرى أمره وتحقيقه في نظرة أي نظرة

ولولاى ما وُلى ولىّ ولاية وقد وُليت هذا اللوا أوّليتي

فقل لأهيل الحق قالة صادق تأَلّى عليها بالعهود الوثيقة

عليكم بباب الله باب محمد فلوذوا به قبل انخرام المنية

وفوزوا بتقبيل الثرى في رحابه ولا تنثنوا عنه بصارف شهوة

فهو في هذه الأبيات يشير إلى وراثته للحقيقة البكرية ، فأمره أمرها . ولولاه ماظهر الأولياء . ثم ناشد أتباعه ومريديه أن يلجأوا إليه ويلتفوا حوله ، ويلوذوا ببابه الذي هو باب الله حتى يفوزوا برضى الله . وقد عنى نفسه في قوله « عليكم بباب الله باب محمد » إذ أن اسمه محمد . فمن لاذ ببابه وقبل ثراه فقد ظفر بالحسنى وزيادة ، وأصبح مقربا من الله . وقال :

أما بالصدق والتصديق موالى حضرة الصِّديق

مجالى طلعة التحقيق وأهل الفيض والذكر

وفي آل أبي بكر يقول :

لهم نفحات هب نشر نسيمها ... فمن طيبها كل المعاهد عطروا
لهم ألسن عن ربهم بشئونه ... تحدث عنه منه فيه وتخبر
لهم عزمات لو أشاروا ببعضها ... ليذبل أو رضوى لهدوا وفطروا
لهم رحمات لو يقابل فيضها ... ذنوب البرايا أصبحت وهي تغفر
لهم نظرات صاحبتها عناية ... بها الفقر يفنى مثلما الجبر يكسر
مفاتيح أسرار القلوب وحضرة ال ... غيوب ومن أسرارهم ليس تحصر
خلائف أقطاب ملوك أئمة ... ميامين من جدواهمو فاض كوثر
بنو الصدق والصديق أفضل سيد ... مآثره بعد النبيين تذكر
محبهمو في ذمة الله آمن ... بعزمهمو يرعى ويحمى وينصر

هذه بعض خصائص العائلة البكرية. فهم أهل التقوى والورع ، وأهل العلم الباطن . وهم أولو العزم والطول ، وأهل الرحمة الذين أودع الله فيهم أسراره ، من أحبهم فقد نجا من الهلاك ، وأمن على نفسه من شرور الدنيا وعذاب الآخرة .

وأبو بكر الصديق أفضل الوارثين للنبي صلى الله عليه وسلم . قال :

عليك صلاة الله ثم سلامه ... يدومان ما قلب لنحوك منبعث
وآل وأصحاب ولا سيما الذى ... هو الصادق الصديق أفضل من ورث

ويصف محمد البكري نفسه بأنه يضيء العالم بخلافته ، ويغيث الملهوف ، ويحمى الضعيف ، ويكشف الخطوب ، ويفرج الكروب . وباسمه يزول البؤس والضر . قال :

وإني لقدس العالم الأحدى من ... إضاءة بدرى بالخلافة لألاء
وإني إذا المضطر نادى أغثته ... وتكشف عنه بالعناية حوباء
وإني أحمى من أشاء بإذنك ال ... على وتأتيه بمنك سراء
وإني كشاف الخطوب وفارج ال ... كروب وباسمي زال بؤس وضراء
وإني سبط المصطفى أحمد الذى ... شريعته يمن ويسر وسمحاء

وإنى من أبنـاء صديقه الذى   بأسراره سادت أصولٌ وأبناء
ففخرا لأتباعى وخُدّام حضرتى   وبالله أوليهم جميع الذى شاءوا

نجد مثل هذا منبثافى ديوانه . فهو لم يترك الناس ليعتقدوا فيه ماشاءوا ، وينسبوا إليه ما يحلو لهم من الكرامات والخوارق ، بل أخذيدعو لنفسه ، وينوه بفضائله وخصائصه ، وما حبى به من القدرة الفائقة على إغاثة الملهوف وحماية الضعيف . ودعا أتباعه لأن يفخروا به ويتمسكوا بأهدابه . وقد وضع لأتباعه ومريديه أناشيد خاصة يتغنون بها فى حلقات الأذكار . وفيها تقديس عظيم لآل الصديق . فمن ذلك قوله :

يا نفحة   نبويه   يا نفحة   بكريه
يابهجة   أحديه   يا عزة   صمديه
ياحضرة   قدسيه   فيها الأمانى للأريب

الغوث بالفرج القريب
يا آل صديق الحبيب

اصدق وصدق يامريد   واترك مماراة العميد[١]
واسلك على النهج السديد   واتبع لنا الرأى الحميد
فأنا المخصص بالمزيد   وأنا النجيب ابن النجيب

الغوث بالفرج القريب
يا آل صديق الحبيب

هكذا اتخذ محمد البكرى شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق . وكأنه هو كرئيس حزب دينى كبير يرغب فى طبع أتباعه بطابع خاص حتى يمتازوا عن غيرهم . وهذا الطابع هو تربيتهم على حب آل الصديق وتقديسهم ، والولاء لهم فى السر والعلن ، وإخلاص الاعتقاد فيهم . ولا يتيسر ذلك إلا إذا شغلهم بمثل

---

(١) العميد : السيد .

تلك الأناشيد ، يضعها فى أسلوب سهل عذب ، له رنة موسيقية حلوة . وكان أتباعه يحفظون هذه الأناشيد ويتغنون بها ، وينقلونها من مكان إلى مكان فذاعت وانتشرت على كل لسان . وهو يذكر بعد النفحة النبوية النفحة البكرية . وهذا طبيعى لأنه يريد أن يصرف الناس عن حب آل على ، ويجعلهم لا يؤمنون إلا بأبى بكر وآله . فالحقيقة البكرية التى هى هدفه الأول والأخير ، والتى اجتهد فى الدعاية لها وحمل الناس على الإيمان بها ؛ ظاهرة ظهورا واضحا فى هذا الشعر وتلك الأناشيد .

* * *

وكما أن محمد البكرى تأثر بكتب ابن عربى وخاصة فصوص الحكم ، فإنه تأثر كذلك بابن الفارض . فنظم فى الحب الإلهى والخمرة الإلهية شعرا كثيرا نسج فيه على منوال ابن الفارض ، وأضاف إلى جانب الخمرة الإلهية خمرة أخرى هى الخمرة البكرية . قال :

وإذا أديرت خمرة بكرية أذّن وقل لا عاش من لا يستقى

وإلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق .

ونجد فى هذا الشعر غزلا بالأماكن الحجازية وتشوقا إليها مثل : سلع ، ورامة ، والوعساء ، وحاجر وغيرها . وهو لا يقصد بها ظاهرها ، وإنما يكنى بها عن الحقيقة المحمدية . كما يذكر الكثيب ويكنى به عن المقامات المحمدية التى تشبه رمال الكثيب فى عدم القدرة على حصرها . ومثال ذلك قوله :

ذكر العذيب ورامة فتشوّقا يبكى حذارا أن يقال تعوقا

لا والذى خلق النوى وقضى به لست المخلف عن أثيلات النقا

والنقا : كناية[1] عن المقام المحمدى الذى انتقاه الله واختاره

ونجد كذلك غزلا ببعض النساء كسعاد وزينب ومى والرباب وغيرهن . وهو حين يذكر هذه الأسماء يكنى بها عن الحضرة الوجودية المحتجبة بصور

(١) انظر شرح ديوان ابن الفارض لعبد الغنى النابلسى ، وتعريفات الجرجانى

الأكوان العدمية . مثال ذلك قوله :

أدعو سعادا ثم أدعو زينبا ها قد عشقت فقيدى أو أطلق

ويذكر الحمى ويكنى به عن الروح الأعظم أو الذات الإلهية . قال :

جدد بذكر الحمى عهدى وأشواقى واهتف بعن حبهم عهدى وميثاقى

والربوع كناية عن مقامات العارفين ومنازلهم، وما يجدون فيهما من الحقائق والعلوم . قال :

درت بين الربوع أسأل عنهم أين حلوا وجدتهم فى فؤادى

ويذكر حادى الأظعان ، فيريد بالحادى : الله ، والأظعان : الناس . قال :

ويا حادى الأظعان روّح بذكرهم فؤادى وقل عن ظبى رامة منشدى

والأقمار كناية عن العارفين بالله . قال :

ما رأينا الأقمار تهتز بالتيـ ـه دلالا وتنثنى كالغصون

ويكنى بالخمر عن شراب المحبة الإلهية . قال :

فهاتها خمرة لو أنها ذُكرت عند اللسيع لأغنته عن الراقى

وقد سبق ابن الفارض إلى هذا المعنى فقال :

ولو أن ركباً يمموا ترب أرضها وفى الركب ملسوع لما ضره السم

ويكنى بالحان عن حضرات الذات العلية . قال :

فسر معى نحو حانات تُزفُّ بها عروسها سير مشغوف ومشتاق

وقد أتى فى شعره بكثير من معانى ابن الفارض . مثال ذلك قوله :

أنا يعقوب هواها فارحموا مَن تفانى فى الجمال اليوسفى

وهو شبيه بقول ابن الفارض :

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة فى وجهه نسى الجمال اليوسفى

وقوله :

أو باسمها دعى الأموات لابتدروا   من فورهم يحسبون الحشر للباقى

مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت   لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وقوله :

أو أنها جليت والليل معتكر   لأشرق الليل منها أى إشراق

مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو خضبت من كأسها كف لامس   لما ضل فى ليل وفى يده النجم

وكذلك تحدث عن الوتر والعود ، والسماع والغناء ، والشطح والرقص وغير ذلك مما عرف به الصوفية ، فمن هذا قوله :

لم تسمع الأذن أنباء من الوتر   وإنما الوتر أهدى طيب الخبر
والعود إن رن أن الصب فابتدرت   دموعه فحكت صوبا من المطر
ما ذاك من طرب باللهو بل طرب   بحكمة أشهدتها العين بالأثر

ونجد أمثال هذا كثيراً فى شعره .

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أنه أضاف إلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق ، والتفانى فى الإقبال عليهم والإخلاص لهم . وكان يعتبر نفسه صديق زمانه ، الوارث للحقيقة البكرية . وشعره فى هذا يشبه شعره فى الحب الإلهى . انظر إلى قوله :

لا تشتغل عن شهودى   إياك إياك واحذر
فكل شىء مليح   منه جمالىَ أكبر
البدر أشرق منى   وحاجب الشمس أسفر

وناسم من حديثى كل الأماجد أسكر
والله والله لولا جمال ذاتىَ يستر
لأحرقت نيرانى أهل الوجود المعمَّر
ولم يكن قط عبد لحسن وجهىَ أبصر
هل ظن غيرى مولى من الأئمة يُذكر ؟
فمن يؤمل جودى بغاية السُّؤل يظفر
ومن يخالف أمرى فى حضرة المقت يقبر
أحمى الذمار وإنى ليث الزمان الغضنفر
سبط الحبيب ونجل الصديق أكرم معشر
قد فاز قومى وصحبى بذاك حالىَ بشَّر

فهو يدعو الناس إلى ترك كل ما يشغلهم عن شهوده ، ويحذرهم من الانصراف عنه ، ويقول إن جماله يفوق كل جمال ، وأن البدر والشمس طلعا منه . وحديثه مسكر ، ولولا جمال ذاته لأحرقت نيرانه الدنيا وما فيها . والأئمة كلهم لا يذكرون إلى جانبه ، ولا ينبغى لأحد أن يذكرهم . ومن أمل جوده ظفر بمطلوبه . ومن خالفه ولم يؤمن به أصابه غضب الله ، وحقت عليه اللعنة . وهو حامى الناس من البلاء . وقومه وأصحابه ومحبوه هم الفائزون . وقال :

ألذ من رشف زلال الضَّرَب ومن مدام تُوِّجت بالحَبَب
وضرب قينات بأعوادها تهيِّمُ القلبَ بحسن الطرب
ومن سرير الملك رقِّيته يُبلِّغ العبد رفيع الرتب
ألذ من ذاك ومن ذا وذا حب بنى الصديق فخر العرب
جحاجح المجد ومُلاّكه مظاهر السر محلّ العجب[1]

(١) جحاجح : سادة ، مفردها جحجاح .

في كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ماحي الريب
ما أمه في الكرب من أمه إلا وزالت عنه كل الكرب
فاقصد حماهم خاضعاً سائلاً رضاهم فهو أجل القرب
وإن يضق أمر فقل سادتي هذا بني الصديق وقت الحسب(١)

لا نجد شاعراً من ذرية أبي بكر — قبل محمد البكري — نظم مثل هذا الشعر ، ولا اتخذ شعره وسيلة للدعاية إلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة البكرية . فهو من هذه الناحية يعتبر مجدداً في الشعر المصري أي أنه أضاف إلى أغراضه المعروفة في عصره غرضاً جديداً هو الحب البكري .

وقد اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه ، والمتصل بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالا عظيما للفخر . فنظم في هذا الصدد قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضي في الفخر . ولا غرابة في ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضي . فمن ذلك قوله :

أنا ابن أبي بكر المجتبى وسبط كرام بهم أمدح
بني حسن سبط طه البشير ومن نوره الزاهر الأوضح
به شرّف البيت والركن والـ ـحطيم وزمزم والأبطح
إذا وُزن الناس طرًّا به فكفّة ميزانه أرجح
فتحتُ كنوز الهدى للعفا ة فأعطيهمو خير ما يُمنح
ولست براض وحاشاي أن يخيب مريدي فلا ينجح
أسَرُّ إذا أمّني سائل فإني بإسعافه أفرح
ولي همة فوق فرق الأثير ونفس لما فوقه تطمح
بحد لساني ذبحت العدا ة فلله سيف به أذبح

---

(١) المعنى : إذا وقعت في شدة فقل يابني الصديق ساعدوني وأعينوني فإني محسوب عليكم ؛ وهذا وقت المساعدة .

وُيذْكرنى الحلمَ خُلُقى الكريـمُ فأعفو ومثلى من يسمح
ورثتُ النبى فلى من رُباهُ مَقيلُ الخلافة والمسرح
وقمتُ بأعتاب عِرْفانه مقيما هناك فلا أبرح

فهو هنا يفخر بنسبته إلى أبى بكر وإلى النبى صلى الله عليه وسلم . ويقول إنه يهدى الناس إلى الحق ، وأن قاصده لا يخيب . فهو كريم يفرح بقدوم السائلين عليه . وبعد أن قدم الفخر بحسبه ونسبه وكرمه ، أخذ يفخر بفصاحته وقوة بيانه التى أهلك بها أعداءه . ثم فخر بحلمه وعفوه . وانتهى من ذلك إلى أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية . والبكريون يعتقدون أن النبى حينما عهد إلى أبى بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه بالخلافة . وعلى ذلك فمحمد البكرى هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية فى عصره . فهو فى فخره بحسبه ونسبه ، وكرمه ، وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ، وفصاحة لسانه وقوة بيانه ووراثته للنبى عليه السلام يشبه تماماً الشريف الرضى من حيث المعانى والأساليب .

ومما روى عنه قوله « جدتى لوالدتى من بنى مخزوم ، فولدنى فى قريش ثلاثة بيوت : بنو تيم ، وبنو مخزوم ، وبنو هاشم » وقد ردد هذا فى شعره فقال :

أنا ذو المجد أثيلا وابن فياض الهباتِ
من بنى تيم قريش صفوة العرب السراة
وذؤابات بنى ها شم الغرّ الحماة
وزعامات بنى مخزو م الصيد الكفاة
نحن بالصديق فزنا بالأمانى العاليات
فلمَن يهوَى هوانا كل أنواع الهبات

وكما أن الشريف الرضى يقرن الفخر بالحماسة ، فكذلك فعل محمد البكرى فى أسلوب قوى رائع لا يكاد يختلف عن أسلوب الرضى من حيث جودة الصياغة وفخامة الألفاظ ، فضلا عن الصور والمعانى . ومثال ذلك قوله :

وسرتُ وثغر النصر يبسم سابحا ... لهامابه وسع النَّفا نِف طافحُ (١)
كأن مَجرّ الجيش بالقوم زاخر ... خضم وفلك الخيل فيه سوابح
كأن مَثار النقع أهدى لنا شذا ... من المسك تذريه علينا اللواقح (٢)
كأن مدار الحرب حانٌ وخيلنا ... نشاوَى نجيع أرسلته الجوانح (٣)
كأن أعادينا ولا بلغوا المنى ... أكفٌّ لأسياف المنايا تصافح
ونحن ملوك الحرب والصَّيدُ صيدنا ... وليس لنا إلا الأسود جوارح
وفتياننا شمّ العرانين عزة ... وكيف وإناَّ فى السراة جحاجح (٤)
ومقعدنا فوق الثريا جلالة ... وأبصارنا من فوق ذاك طوامح
ومجد معالينا تعالى مقامه ... فإن سيم مدحا لم تنله القرائح
فإن كان فخر الأكرمين صحائفا ... فإنا لآيات الكتاب فواتح

وإذا كان محمد البكرى صادقا فى فخره بحسبه ونسبه ؛ فإنه لم يصدق فى هذا الشعر الحماسى الذى يصور نفسه فيه فى صورة البطل المقدام الذى تهاب لقاءه الشجعان . وذلك لأن واقع حياته لا يدل على ذلك ، فلم يكن من رجال الحرب ولم يذكر عنه أنه قاد جيشا أو اشترك فى معركة . وإنما كان يحيا حياة دعة وسلام ، ويعيش فى ترف ونعيم ، مشتغلا بعلوم الدين والتصوف ونظم القصائد . ومثل هذا يقال فى الحماسة عند الشريف الرضى .

وقد صبغ فخره بصبغة تصوفية . مثال ذلك قوله :

فمِنْ أى أفق تشرقين بهذه ا ... لمعارف إشراقا على غيره سما

---

(١) اللهام : الكثيف والضخم . النفانف ، جمع نفنف ، أى الصحراء المتسعة .
(٢) اللواقح . المحملة بالأمطار . (٣) النجيع . الدم السائل .
(٤) شم. جمع أشم وهو المرتفع. العرانين: الأنوف (٤) جحاجح: جمع جحجاح وهو السيد

فقالت بأفق العبد صديق وقته ... ومن ملأ الأدوار جودا وأنعما
إمام بنى الصديق فى الوقت مطلقا ... ومن أتقن الأسرار علما وأحكما
ومن جاء فى العصر الأخير لتنتهى ... به رتب التدوير كيسا وتختما

فهو منبع الأسرار الإلهية ومشرق المعارف الربانية . وهو صديق وقته وإمام عصره . والأدوار جمع دور ، أى الوقت الذى يقوم فيه الإمام ، وهو صاحب الدور . ويقول محمد البكرى إن الأدوار انتهت به وختمت بظهوره .

* * *

ويدخل فى باب التصوف ما نظمه الشاعر فى الوعظ والإرشاد وآداب المريد كما يراها، مثال ذلك قوله :

مدارُ أحوالنا فى كلّ مرتبة ... حفظُ الحدود وتركُ الحظ والأرب
وأن يكون الذى يهوى مشاهدنا ... مجانبا لسبيل اللهو واللعب
وأن يقوم إذا ما الليل تم له ... نصف لمولاه بالإخلاص فى الطلب
يئن شوقا إلى المحبوب تحسَبُه ... ثكلَى أثار شجاها نوحُ منتحب
مُفرغ القلب مِن غيرِ الحبيب له ... فى بابه ذلٌ مسكين ومكتئب
والصوم يكثِرُ منه حيث قدره ... رب العباد ليلقى غاية الأرب
والصدق يجعله زادا لرحلته ... والذكر أعظم ما يختار من سبب
يطهر السر يجلو القلب يمنحه ... من المعارف سرا باهر العجب
وينزل الفيض من غيث الغيوب بما ... يختاره الله من كشف بلا ريَب
والله نسأله عونا لطالبنا ... على أوامره فى سائر الرتب

هذه هى الآداب التى وضعها محمد البكرى لأتباعه ومريديه. المحافظة على أحكام الدين وفرائضه ، وترك اللهو واللعب ، والإعراض عن الشهوات . ثم القيام فى منتصف الليل للعبادة والذكر والتواجد ، والاتجاه إلى الله بكل ما يملك الإنسان من جوارح مع إظهار الذل والمسكنة ، ثم الإكثار من الصوم

الذى يطهر النفس ، والتزام الصدق . وبهذه الأمور تستقيم حال المريد . وقد صاغ كل هذا فى شعر سلس عذب .

ومحمد البكرى يدعو فى كثير من شعره إلى التمسك بالفضائل والاعتصام بأحكام الدين ، وترك الدجل والشعوذة ، وإخلاص العبادة لله . وهذه دعاية نافعة جداً لأن عصره زخر بالمشعوذين والنصابين الذين كانوا يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل ، ومدّعى الولاية الكاذبة الذين أسقطوا عن أنفسهم الحدود فتركوا فرائض الدين وانغمسوا فى الشهوات إلى الأذقان :

ويدخل فى باب التصوف كذلك ما نظمه فى التوسل والاستغاثة بالله وبالرسول ، وما نظمه فى المديح النبوى . فمن قوله متوسلا ومستغيثا :

إلهى إلهى أغث سائلا ... فقيرا ذليلا كثير التعبْ
إلهىَ ضاقت عليه الأمور ... ففرِّجْ بجودك كل الكرب
إلهىَ هذا مقام الحقير ... وعندك ما يبتغى من طلب
إلهى حاشا تردُّ الكسير ... وفيما لديك تناهى الرَّغب

فهذه أدعية وضعها للأتباع والمريدين لينشدوها فى أوقات تعبدهم . فهى أدعية شعرية تؤدى وظائف الأدعية النثرية التى كان يضعها أقطاب المتصوفة.

ونظم بعض القصائد التى تؤدى وظائف الأحزاب والأوراد . من ذلك قوله :

أعوذ بالله الصمدْ ... من كل همٍّ ونكد
أعوذ بالله الأحدْ ... من كل ضيق وشرد

. الخ

بدأ بالاستعاذة بالله من الهم والحزن والضيق . ثم أخذ يستغفر الله ويدعوه أن يحفظه من كل سوء ويجنبه كل مكروه ، ويصرف عنه الكيد والحسد. ثم أكثر من الصلاة على النبى ، وتوسل إلى الله أن يمتعه بالعيش الرغيد والحياة السعيدة .

وله سدائح نبوية قصيرة لم يتعرض فيها لذكر شىء من المعجزات ، وإنما هى تصوير للحقيقة المحمدية التى أودع الله فيها أسراره . ثم يخلص من ذلك إلى ذكر ذنوبه الكثيرة ، ويظهر الندم والتوبة ، ويعرب عن أمله فى شفاعة الرسول . ويختمها بالتوسل والدعاء .

وله جملة قصائد فى مدح أحمد البدوى تظهر فيها آراء الصوفية فى الأولياء. فمن ذلك قوله :

لله جلّ جلاله بالحق أشهدْ ... أن الإله جماله للقوم أشهدْ
وأنالهم رُتَب السيادة والعلا ... لا سيما بدويهم ذو المجد أحمد
سر الحقيقة والخليقة والذى ... مصباحه من نور خالقه توقد
مَن ذاته القدُس العلىّ ومن له الـ ... ـكشفُ الجلى ومن له التصريف يسند
هذا الكمى فلا يطاق نزاله ... يوم الوغى ، هذا المثقف والمهند

فالبدوى كما صوره محمد البكرى تمتع بوحدة الشهود ، وفنى مع الذات الإلهية فنال أسنى المراتب . وهو سر الله ، أودع فيه العلم الباطن ، وأجرى على يديه الكرامات وخوارق العادات ، والبدوى بطل مقدام وشجاع تضرب به الأمثال . ثم استطرد فذكر بعض الكرامات التى تنسب للبدوى .

وكان محمد البكرى شافعى المذهب . وله بضعة مقطوعات فى مدح الإمام الشافعى وتحبيذ زيارة ضريحه على سبيل التبرك . ولكن شعره فى الشافعى لا يكاد يذكر إلى جانب ما نظمه فى أحمد البدوى . ولعل السر فى ذلك أن الشافعى لم تروله كرامات ، ولم تنسب إليه الخوارق التى رويت لأحمد البدوى ونسبت إليه. انظر إلى قوله فى مدح الإمام الشافعى:

هو البحر لكن فاض كوثر بره ... على البرّ حتى ما هناك مقايس
هو البدر بل شمس الظهيرة أشرقت ... فلم يبـق ما بين البرايا حنادس
أبى الله إلا أن يسود ويعتلى ... فليس له فى المنقبـات مجانس

فهذا من المدح الذى يقال فى أى إنسان . وأين هذا من قوله فى البدوى

سر الحقيقة والخليقة والذى　　مصباحه من نور خالقه توقد

لم يحاول البكرى فى مقطوعاته التى نظمها فى الشافعى أن ينوه بمكانة هذا الإمام كواضع لأحد المذاهب الأربعة ، وكمشرع له قيمته وخطره ، لأن المتصوفة لا يهتمون بعلم الظاهر ، وإنما يهتمون بعلم الباطن ، ولا يقدرون قيمة التشريع ، وإنما يقدرون قيمة الكرامات .

* * *

وكان له بعض حساد يطعنون فيه وينالون منه ، وينكرون عليه عيشة الترف التى كان يعيشها . وقد شكا من هؤلاء الحساد وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور . فمن ذلك قوله :

يانفوسا تود يوما ترانى　　نازحا عن منزلى ومكانى
مُدرَجا بعد عزتى وبهائى　　وجميع البرود فى أكفانى
إن تموتوا غيظا فموتوا سريعا　　حسبى الله فيكمو وكفانى
احسدوا ما استطعتم رشقتكم　　بنبال الوبالِ قوسُ الزمانِ
هذه لحيتى وضعتُ عليها　　يدَ موفٍ لها بحقّ الضمان
عن قريب يُدعى بياغارة الله　　فتغدو بهلككم شُجعانى

ففى هذه الأبيات صور محمد البكرى ما انطوت عليه نفوس حاسديه من حقد ونقمة بلغت بهم أن تمنوا له الموت. ثم قال لهم : افعلوا ما شئتم، واحسدوا كيفما أردتم فلن يفيدكم هذا ، بل ستموتون بغيظكم . ثم أمسك لحيته مهددا متوعدا بحرب يشنها عليهم يكون فيها هلاكهم .

* * *

وله شعر قليل عرض فيه بعلماء عصره ، فمن ذلك قوله :

أغفل الناس علوما قُدِّست　　أحكمت عزَّتها أيدى الحكمْ

يا زمانا ضيعوه باطــلا في رسوم ما بها الحق رسمْ
خلطوا الحق بهزل منهمو فلهذا ما استقاموا في أَممْ
يطلبون العلم للدنيــا فهل بعدهذا الوصف في الأوصاف ذم ؟
شغلهم قالوا وقلنـا ولهم صبوة في « صح » أم فيه « سلم »

ففي هـذه الأبيات ينعى على معاصريه اشتغالهم بالعلوم الدنيوية ، وإنفاقهم أعمارهم في استظهار مختلف الآراء في النحو والفقه وغيرها . ويعيب عليهم أنهم يطلبون العلم لينتفعوا به في الدنيا ، وينصحهم بترك هذه العلوم التي لا فائدة فيها والإقبال على علوم المتصوفة لأنها هي التي تقربهم من الذات الإلهية .

ولمحمد البكرى مقطوعات قليلة في أغراض مختلفة ، بعضها في الألغاز ، وبعضها في الإخوانيات ، وبعضها في وصف الرياض ، وأخرى في الدعوة إلى شراب القهوة . وكلها من الشعر الجيد الذي يجرى فيه على سجيته .

* * *

ولا شك في أن محمد البكرى يعتبر أعظم شاعر مصرى ظهر في القرن العاشر . فله نتاج أدبي امتاز بالغزارة والجودة . انظر إلى قوله :

هل المجد إلا عَزْمة قرشيــةٌ تَطَـامَن رَضْـوَى دونها وثَبيرُ ؟
وصـولة فتــاك عزيز تطاولت له رتبٌ عنها السماك قصيرٌ
إذا استل ما بين البواسل سيـفَه ترى الهام فوق الهام منه تطير
حليف المعالى ربُّهـا وإمامُـها خليق بها والمدَّعون كثير

قد يقال إنه لم يأت بمعنى جديد في مثل هذا الفخر ، ولـكن من ادّعى أن الشعراء كلهم كانوا مجددين مبتكرين في كل ما أتوا به من المعاني ؟ حسبه أنه تمثل هذه المعاني وصاغها في عبارات قوية جميلة وتراكيب عربية مبينة تعيد إلى أذهاننا شعر القرن الرابع .

وانظر إلى قوله :

كيف النفور من الصور ؟   والحق فيها قد ظهر
حقاً ولو حققته   لم تلق فيه من أثر
فاقرأ معى كتب الهوى   واحفظ معى هذى السور
كى لا تخف قول الفقيه   ولا يدانيك الحذر
ما ثَمَّ غيرى والفقيه   وجوده بعض الستر
إن شئت صيرت الفقيه   معربداً بين البشر
سكرانَ لا يدرى بمن   عنه تغيَّبَ أو حضر
حيران ولهاناً ولا   فكرٌ لديه ولا نظر
نسى الحرام مع الحلا   ل ومن تحجب أو نظر

هذا من غير شك شعر لطيف يفيض رقة وعذوبة ، ويدل على روح صافية ، وموهبة سامية . ولن تجد فيه أثراً للتكلف ولا إسفافاً ولا ابتذالا . ونلمس فيه سخرية لطيفة بالفقهاء . وانظر إلى قوله :

إن منشئ الصورِ   قد حباك يا قمرى
بالعيون زينها   بالسواد والحور
والجبين جمّله   بالضياء والطُّرر
بالذى اصطفاك بما   حزته على البشر
صل فتى لواحظه   قد بكتك بالمطر
فى هواك طاب له   ما براه من سهرِ

والقصيدة كلها على هذا النحو الموسيقى الجميل . وله قصائد كثيرة تجرى هذا المجرى ، فهى من الشعر الغنائى الذى تتقبله النفس قبولا حسناً ، وتطرب لسماعه الآذان . وهو كلف باختيار البحور القصيرة لمثل هذا الغزل

الرقيق . وأحياناً يمزج الغزل بالحماسة ويستخدم أسلوب الحوار . وألفاظه كلها سهلة لا يحتاج فى فهم معانيها إلى الرجوع إلى كتب اللغة ما عدا القليل . وله موشحات فى التصوف والحب الإلهى . وله مزدوجات فى الغرضين المتقدمين . وله قصائد لم يلتزم فيها نظام القافية الواحدة .

ولم يكن محمد البكرى فى شعره متكلفاً وإنما كان شاعراً مطبوعاً ، ذا موهبة ممتازة ، وصاحب أفكار معينة يدعو لها بين الناس . وهو شاعر يزخر شعره بالعواطف الدينية الحارة ، وأعنى بها عاطفة الحب الإلهى وعاطفة الحب البكرى . وهو صاحب ذوق بيانى وملكة فنية تظهر فى جودة أساليبه ، وحسن صياغته للعبارات واختياره للألفاظ والبحور الموسيقية . فلا شك أن عناصر الشاعر الممتاز قد توفرت عنده .

وإذا كانت آراؤه فى التصوف قد سبق إليها فيكفيه أنه صاغ هذه الآراء فى أساليب جديدة ، وقربها من الأذهان ، وأذاعها بين الناس فى قصائد وموشحات ومزدوجات لا غموض فيها ولا تعقيد ، بل من السهل علينا أن نفهمها فهماً جيداً . وكذلك أذاع التعاليم والآراء التى تتعلق بأبى بكر والحقيقة البكرية . وهو كشاعر يعتبر بحق مؤسس المدرسة البكرية التى امتدت من ذلك الوقت حتى العصر الحديث .

* * *

وأما أثر البيئة المصرية فى شعره فيتجلى فى رفضه للآراء المتطرفة كالقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وذلك لأن البيئة المصرية تكره التطرف .

ومن أثر البيئة المصرية فى شعره استخدامه لبعض الكلمات والعبارات التى تجرى على ألسنة العامة فى مصر . مثال ذلك قوله :

دنا بحبك متيم ما على من حد

فكلمة « دنا » عامية . وكذلك عبارة « ماعلى من حد » مصرية عامية .

وقوله :

ما السبب ما السبب حتى تجنيت وأسيت

فعبارة « ما السبب ما السبب ؟ » مصرية عامية . ولفظة « أسيت » مما يدور على ألسنة العامة ، وهى بالفصحى : قسوت . وتكثر مثل هذه الألفاظ فى موشحاته .

* * *

الآن قد فرغنا من دراستنا لمحمد البكرى . وبهذا ننتقل بالمدرسة البكرية إلى القرن الحادى عشر .

توفى محمد البكرى سنة ٩٩٤ وترك أبناءهم :

١ - أبو السرور المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ .

٢ - زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ .

٣ - أبو المواهب المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ .

فأبو السرور توفى سنة ١٠٠٧ هـ وفيه يقول صاحب[(١)] خلاصة الأثر « وكان له الذوق الصحيح فى معارف الصوفية والبلاغة الكاملة فى التقرير . وكان له اتساع فى الدنيا ومخالطة الحكام، ومداخلة فى أمور كثيرة . ودرّس بالخشابية . وكان ينظم الشعر ، وشعره لطيف » ولكننا لم نعثر على شىء مما نظم .

وزين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ وفيه يقول[(٢)] صاحب خلاصة الأثر «قام مقام أبيه من بعده ، ودرّس وأفتى . وكان فى مصر مالك أزمّة الوجاهة، وسالك رتبة اليراعة والبراعة . وكان أخوه أبو السرور المقدم ذكره من العلماء

(١ ، ٢) ١/١١٧ ، ٢/١٩٦ .

إلا أنه لم يبلغ درجة زين العابدين فى التصوف والتكلم بلسان المعرفة . وكان عالما بارعا فى العربية والتفسير وعلوم البلاغة . وله شعر لطيف سائغ »

« وبلغ صاحب الترجمة فى آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشيه حكام مصر وكانوا يداورونه ويتوقعون رضاه . فلما كان ثالث شهر ربيع الأول سنة ١٠١٣ طلع إلى إبراهيم باشا بعد العصر على عادته . فأحضر السماط ثم القهوة . فلما أكلوا وشربوا خر زين العابدين مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته فمات . هذا هو المستفيض على ألسنة المؤرخين . وروى بعضهم أن موته كان خنقا أو غيره . وأنه طرح على باب قلعة الجبل . واشتهر ذلك فى دمشق فبنى عبد الحق بن محمد الحجازى الدمشقى قوله فى رثائه عليه . وأبياته هى هذه :

لم يهدموا أركان مصر وإنما هدموا بقتلك قبة الإسلام
وتناوشتك يد الكلاب وطالما خضعت لعزك صولة الضرغام
فسقى ثراك سحابة قدسية تهمى عليك برحمة وسلام

ولم يبق إبراهيم باشا بعده إلا أياما قليلة حتى وقع بينه وبين عساكر مصر فقتلوه وحملوا رأسه على رمح وطوفوا به مصر . وعوقب بذلك على الجراءة على قتله صاحب الترجمة »وله شعر فى التصوف والحب الإلهى . ومن قوله فى القهوة :

إن تشرب القوة فى حانها فاللطف قد حف بندمانها
حان حكى الجنة فى بسطها برقة العيش وإخوانها
بمائها نغسل أكدارنا ونحرق الهم بنيرانها
لاهمّ يبقى ولاغمّ إذ قابلك الساقى بفنجانها
يقول من أبصر كانونها أفّ على الخمر وأدنانها
شراب أهل الله فيها الشفا جواب من يسأل عن شانها

كان المتصوفة فى ذلك الوقت ينظمون الشعر فى الدعاية لشراب القهوة

معارضة لبعض الفقهاء الذين قالوا بتحريمها . وكان البكريون يقدمون فى سهراتهم هذا الشراب لضيوفهم . فأخذ الشعراء والأدباء يتنافسون فى نظم أمثال هذه المقطوعة ويتسابقون فى ابتكار المعانى اللطيفة والصور الجميلة ويبدو أن الصوفية وجدوا فى القهوة شرابا ماديا محسوسا يقابل الخمرة الآلهية التى هى من الأمور المعنوية . ولاشك فى أن إفراطهم فى الحديث عن الخمرة الإلهية والساقى والحان قد ترك عندهم فراغا نفسيا هائلا ، فرأوا أن يسدوا هذا الفراغ بالإقبال على شرب القهوة فى الطقوس التى تتخذ لشرب الخمر ، وقلدوا شعراء الخمر فى وصفهم لها وتغنيهم بمحاسنها ومزاياها ، وما تتركه فى نفوس شاربيها من إبعاد الهموم والأحزان . كما ذكروا الحان والساقى والندمان ، واستعاضوا عن الكأس بالفنجان. أضف إلى ما تقدم إطلاقهم كلمة «القهوة» على هذا الشراب وهى من أسماء الخمر، فكانوا يقولون «قهوة البن» ومعناها خمرة البن . ويتخذونها أحيانا من قشر البن ، وأحيانا من لبه وبمرور الزمن أصبحت كلمة « قهوة » تدل على هذا الشراب المكون من الماء المغلى والبن ، ونسى المعنى الأصلى للكلمة . ولم يفت زين العابدين أن يحدثنا عن الكانون الذى تصنع عليه القهوة ، فيقول إنها وهى فوق الكانون تنبعث منها رائحة طيبة تجعل الخمرة بجانبها شيئا محتقرا تعافه النفس .

* * *

وأبو المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ ، ذكره صاحب خلاصة الأثر(١) فقال : «كان فى بداية أمره مائلا إلى الخلاعة ، وكانت مجالسه مشحونة بأنواع الطرب من المسمِّعين وصنوف الملاهى » إلا أنه اضطر إلى ترك هذا بعد وفاة أخويه وتصدره لمشيخة السجادة البكرية . وكان بينه وبين الدين الحلبى ؛ الأديب المؤرخ صاحب السيرة الحلبية ؛ مودة

---

(١) ١١٨/١

أكيدة ، وهو الذى شجعه على تأليف هذه السيرة « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » وقد أشار إلى ذلك فى المقدمة[١] فقال « ... ولا زلت فى ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكونى لست من أهل هذا الشأن ، ولا ممن يسابق فى ميدانه على خيل الرهان ، حتى أشار على بذلك وبسلوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع ، ومخالفة أمره لا تستطاع ، ذو البديهة المطاوعة ، والفضائل البارعة ، والفواضل الكثيرة النافعة . من إذ سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف ، لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صواب ولا يتعسف . وهو الأستاذ الأعظم مولانا أبو عبد الله وأبو المواهب محمد ، فخر الإسلام البكرى الصديقى » .

ولأبى المواهب ديوان اسمه « ترجمان العوارف » منه شريط بمكتبة الجامعة العربية تحت رقم ٨٣٢ ــ أدب ، منقول عن نسخة خطية بمكتبة جامعة استنبول . ومعظم شعره فى التصوف والحب الإلهى ، والدعاية للتعاليم البكرية . وله مقطوعات فى وصف القهوة والتغزل فيها ، وفى الدعوة إلى تعاطى التبغ . فمن ذلك قوله :

يا يوم بولاق وأنسى به حكاك من شوّال يومُ الهلال
وأقبل النيل جنوبا وما من عارض إلا نسيمُ الشَّمال
ياعارضا أوجب للنيـــل ما سلسله وهو طليق المجـــال
وقهوة تنضح مسكا ولا بدع ففى الفنجان شكل الغزال
حبابها من فوقها مانع نفاره فهو شباك اللآلى
تديرها هيفاء ممشوقة خود تثنت فى برود الدلال
كاد حجى من أقبلت نحـــوه يذهب من رنات تلك الحجال
تقول للشمس وقد أقبلت تلثمى ما أنت إلا خيالى

قال الشهاب الخفاجى[١] « وبيت الغزال من السحر الحلال ، وهو بيت القصيد » وكان الفنجان يحمل صورة غزال

(١) ص ٣ طبع مصطفى الحلبى بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ

(٢) ريحانة الألبا ص ٣١٦ .

تقدم أن أبا المواهب كان فى شبابه يميل إلى اللهو والخلاعة ، يخرج مع أصدقائه من الأدباء والشعراء إلى الحدائق والمزارع للتمتع بالهواء الطلق والمناظر الطبيعية الجميلة . وكان حى بولاق فى ذلك الوقت كما كان منذ عصر المماليك من الأمكنة التى تقصد للتريض واللهو . ففى الأبيات السالفة يذكر أبو المواهب يوما من تلك الأيام الطيبة التى قضاها على شاطىء النيل بناحية بولاق . وإذا كان الشعراء فيما مضى ذكروا الخمر فى هذه المناسبات ـ أعنى مناسبات اللهو والرياضة ـ فإن بعض شعراء هذا العصر ذكروا القهوة ووصفوها وهى فى الفناجين تنبعث منها رائحة جميلة يعلوها حباب لطيف. ثم أخذ أبو المواهب يتغزل فى الساقية التى قدمت له ولأصحابه شراب القهوة

وكان للبكريين حدائق ومزارع يخرجون كثيرا للتريض فيها. ولذلك غلب فى بيئتهم هذا النوع من الشعر الذى يصفون فيه أوقات اللهو والسرور ، حيث الرياض النضرة ذات الأشجار الباسقة ، والجداول الرائقة ، والفواكه المختلفة . ولأبى المواهب رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من الأدباء يدعوه للرياضة معه جاء فيها «إن[1] مدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور بفلك الحبور . طفحت بالنيل لاجزر عن جزره المديد ، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » وقد أفسد أسلوبها بما استخدم فيها من ضروب الصناعة اللفظية .

ومن قوله وربما كان فى مدح والده :

أيها البكرىُّ يامَن فضله	فاق كل الناس عُجبا وعربْ
لى جُـدْ ياسيـدى يامصطفى	يا إماما قد حوى كل الرتب
لا رعى الرحمن من عاداكو	فهو فى همّ وغمّ ونصب
وعـليه الخزى فى طول الحيا	ثم عنـد الموت يُلـقى للتّـعب

---

(١) الريحانة ص ٣١٦ .

باء بالرفض إليكم مبغض وعليه من إلهنا الغضب

في هذه الأبيات نجد التعاليم البكرية واضحة كل الوضوح . فشيخ السجادة البكرية هو الإمام المصطفى الذى اختاره الله وخصه بكل منقبة وفضيلة . ومن عاداه فهو رافضى استحق غضب الله فى الدنيا والآخرة ولقى الذل والتعب فى حياته وبعد مماته .

ومن قوله ولعلها فى مدح والده أيضا :

ألا أيها البكرىُّ إنك مفردُ وفوقك أعلام المسرة تفرد
وذكرك بالمعروف شاع بلا خنًا ومدحك فى الأعناق در منضدُ
وكل امرىء عاداك أو قصد الأذى عليه من الرحمن خزىٌ مؤبدُ
ومن صدّ نى عن مدح ذاتك سيدى فذاك أبو جهل وأنت محمد

فانظر إلى البيت الأخير وما فيه من قوة . فالمنكر لمدح والده كافر يشبه أبا جهل فى كفره وجحوده . وقد شبه والده بالنبى محمد ﷺ . وله فى مدح والده أيضا :

لدار محمد البكرىِّ زوروا وخلّوا عنكمو ذكر السواءِ
محمد عقد عين الدين حقا فمن عاداه فى شكل الهواء

وقال :

عصابة الصدّيق قالوا محمد لا يضاهى
له الخلافة حقا رب العباد قضاها

وقال :

عابد الرحمن أضحى قطب مصر بحقيق
حاز فخرا وعلوا وهو فرع لعتيق

فمن هذه الأمثلة وغيرها نعلم أن أبا المواهب اتخذ من شعره وسيلة لمعاونة الناس إلى الالتفاف حول البيت البكرى ، والتفانى فى حب أفراده ،

والإخلاص لهم ، والابتعاد عمن سواهم . والتحذير من معاداة هذا البيت لما في ذلك من الكفر الذى يؤدى بصاحبه إلى النار .

ومن قوله :

عبد الإله البكرى مواهبِ الأزمانِ
سبط النبى الهادى المصطفى العدنانِ
صلى عليه ربى والآلِ والإخوانِ
مع السلام الزائد له من الدّيانِ

وله غير هذا كثير نجده منبثا فى ديوانه . وشعره سهل لطيف لا أثر للتكلف فيه .

* * *

ومن الشعراء البكريين الذين ظهروا فى القرن الحادى عشر : أحمد بن عبد الرحمن الوارثى المصرى الصديقى الإمام الكبير المفسر المحدث المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ « كان[١] من الأدب فى سنامه وكاهله ، تحوم الآراء حول موارده فترتوى من مناهله . وله نظم ونثر كما انتظمت الأزهار بعد ما انتثرت عليها درارى الأمطار » فمن نظمه قوله يمدح أحد وزراء مصر :

يا أيها المولى الوزير ومن لـه   مِنَن حللن من الزمان وثاقى
من شاكر عنى يديك فإننى   من عظم ما أوليت ضاق نطاقى
مِنَن تخف على يديك وإنما   ثقلت مواهبها على الأعناق

وقال :

وكم لله من نعم يعم السكون ما طرها
تذكرنا أوائلهـا بما تولى أواخرها

(١) الخلاصة ١ / ٢٠١

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا ، ولا نعرف من نظمه سوى مقطعات قليلة وردت فى خلاصة الأثر .

وأحمد البكرى المتوفى ١٠٤٨ ه وهو ابن زين العابدين « (١) كانت له اليد الطولى فى تفسير القرآن ، وإليه النهاية فى علوم الطريق ومزيد الإتقان ، مع كرم يخجل المزن الهاطل ، وشيم يتحلى بها جيد الزمان العاطل . وجاه عريض وتمكين ، ومكان عند الناس مكين . يستلمون أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق . ومن مؤلفاته كتاب جعله على أسلوب « لوعة الشاكى ودمعة الباكى » سماه « روضة المشتاق وبهجة العشاق » وله شعر يدل على علو محله وقصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه »

ومن هؤلاء الشعراء فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ ه حيث يقول (٢) :

يا بنى الصديق لى فى حبكم شأن عجيبْ
كل يوم منه فى لحمى وفى عظمى دبيبْ
حبكم آل أبى بكر به تُمحَى الذنوب
حبكم دينى ومَن يبغضكمو طاع مريب
غضب الله عليه فهو بالحق كذوب
لكمو الرفعة والسطوة والحال المهيب
ذكركم عند ملوك الأرض تعويذ وطيب
كل عصر حضرة القدس لها منكم خطيب
ابن زين العابدين السيد البر الوهوب
ابن من يصدع بالحقِّ ويعفو ويثيب
ابنُ مَنْ كان به الغَوثُ مع الغيث يصوب
شاهَدَ الحضرة واختُصّ وناجته الغيوب

---

(١) الخلاصة ٢٠١/١ (٢) العقود الدرية فى الدواوين الحلبية ٩/٢

واستمر الفيض للـ أستاذ والفتحُ القريب
بلبل الحق لسان الـ غيب هطّال سَكوب

والتعاليم البكرية واضحة فى هذه القصيدة كل الوضوح . فالشاعر يقول إنه يحب آل أبى بكر حبا امتزج بلحمه ودمه. ويرى أن حبهم سبب لغفران الذنوب ، ودينه الذى يدين به . ومبغضهم كافر حق عليه غضب الله . ويقول إن الملوك يتعوذون بذكرهم ، أى يتخذون ذكرهم تعاويذ وتمائم يتقون بها الشرور والمصائب . وإن الله يصطفى منهم فى كل عصر إماما بحيث لايخلو عصر من وجود صديق بكرى . ثم أشاد بمناقب أحمد البكرى صديق زمانه الذى ورث الصديقية عن آبائه .

وقال:[1]

وأنت ابن صديق خير النَّبيئين خير الأواخر خير الأوال
ألست ابن من فضله قد أتى على ألسن الوحى من ذى الجلال؟
أيخفى سناك وأنت الشها ب على الرافضية أهل الضلال ؟
فمن ذا يساميك أو من يدا نيك أو من يقاويك يوم النضال؟
لك الحال والقال فى نحر شانيك من ذا مواضٍ ومن ذا عوالِ
فياويل أعداك إن مجلت أو قلـ ـتَ الله أكبر يوم النزال

فالنحاس يقول إن أحمد البكرى منحدر من ذرية أبى بكر صديق النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الأولين والآخرين . وأن القرآن قد شهد بفضل أبى بكر . ثم عجب من الرافضة أهل الضلال الذين ينكرون مكانة البكريين . ويجب أن نلاحظ أن الشاعر لم يذكر « الرافضة أهل الضلال » عبثا ، وإنما جاء تعريضه بهذه الطائفة لوجود قوم يتعصبون لآل على ويرون أنهم أحق بالتقديم من البكريين ، وينكرون التعاليم البكرية . والأبيات التالية تعريض شديد بهؤلاء الخصوم ، وإشادة بمناقب الممدوح وقوة بأسه

(١) العقود الدرية ٢ / ٤٣

وعظيم فتكه بأعدائه . وقد يتبادر إلى الذهن من قول الشاعر « يوم النزال » أن حروبا نشبت بين البكريين وخصومهم ، ولكن الواقع غير ذلك . وقال :

أبى الله إلا أن يكون لك البقا وشانيك إلا أن يكون له الرغم
وعلمك إلا أن يكون مجسدا فأنت لسان العلم ما نطق العلم
وما الويل كل الويل إلا لحاسد عرانين مجـــد كلها فى العلا شم
ذوى صاحب الغار الذى أنت منهمو
ذوى الصدق إن قالوا ، ذوى العزم إن هموا
عصابة ترب المصطفى أنجم الهدى عليكم سلام الله ما نجم النجم
دعوا خصمكم يكفيه فى يوم بعثه فإن إله العالمين له خصم

فى هذه الأبيات تعريض بخصوم الممدوح الذين كفروا بالله بسبب عدم إيمانهم بالتعاليم البكرية التى تجعل حب آل أبى بكر أساسا لصحة إسلام المسلم . وحسب هؤلاء المنكرين أن الله سيكون خصما لهم يوم القيامة ، وأن مصيرهم سيكون فى نار جهنم . وأشاد بفضائل البكريين نجوم الهدى وأئمة الدين .

* * *

أما ديوان أحمد البكرى فلم يصل إلينا، وإنما وصلت إلينا بعض مقطوعات من شعره ، نذكر منها على سبيل المثال قوله يمدح السلطان مرادا

آل عثمان لهم دولة إلى المعاد(١)
عمر الله بهم كل أقطار البلاد
وحباهم سطوة دائما بين العباد
ومحا الله بهم كل أرباب العناد

(١) النزهة الزهية ورقة ٥٠ مخطوط ٢٢٦٦ تاريخ .

كم أزالوا ضيغما عن سبيل الحق حاد
وأبادوا عسكر الرفـ ض عن حسن اعتقاد
خلف عن سلف سلكوا طرق الرشاد
ما تولى ماجد منهمو إلا وساد

نظم أحمد البكرى هذه القصيدة عقب انتصار السلطان مراد على دولة إيران الشيعية . وكان من الطبيعى أن يطرب الشاعر البكرى لهذا الانتصار الذى قضى على الرافضة . و نوه بعقيدة أهل السنة التى يدين بها العثمانيون .

وربما كانت هناك دوافع نفسية هيأت الشاعر لنظم هذه القصيدة وغيرها مما عسى أن يكون قد نظمه فى هذا المقام . فقد مر بنا فى مدائح النحاس له تعريض بخصومه من الرافضة أهل الضلال . فأراد الشاعر أن يروى غليله من هؤلاء الخصوم ، فمدح السلطان مرادا ، وأظهر الشماتة بهزيمة الرافضة . ولن يستطيع خصومه بالطبع أن يردوا عليه فى تلك المناسبة .

ومن شعره :

أحن إذا جُنّ الظلام تشوقا إلى زمن بالقرب زاد تألقا
وأقطع ليلى ساهرا متفكرا لعل زمان الأنس يسعف باللقا

وقد أولع بنظم الألغاز ، وكان له فيها الباع الطويل ، فمن ذلك قوله

غزالة فى بردها رافله تقتنص الأسد من القافله
فى حرم الأمن وقد خلتها قائمة بالفرض وبالنافله
قلت لها رقى فقالت لمن كأنها عن مطلبى غافله
ثم انثنت تلغز لى باسمها لغزا به أفكارنا كافله
ما اسم خماسى وتصحيفه شبه بدور لم تكن آفله
فى سنة المختار خير الورى بيانه وهى له شاملة

في سِنة نبه مستيقظا وإن تشا في سنة كامله

وهذه المقطوعة تمتاز بالسهولة والوضوح والبعد عن الصناعة اللفظية .

* * *

ومحمد زين العابدين البكرى المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر [١] «كان فصيح العبارة، طلق اللسان، كثير الفوائد، جم النوادر وكانت الولاية ظاهرة عليه مع الدين المتين، والعقل الكامل، والتظاهر بالنعمة فى الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقا، مبجلا عند الكبراء والوزراء ، ذا جاه عريض ، معتقدا عند عامة الناس وخاصتهم ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة ، يرجع إليه فى مشكلات الأمور . اشتغل بطلب العلوم وأتقنها ، وبرع فى كثير من الفنون سيما علم التفسير والحديث . وكان له فى علوم القوم وأصول التصوف قدم راسخ . وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكرى . فكان يدرس على عادة أسلافه فى الجامع الأزهر فى الليالى المشهورة كليلة المولد والمعراج والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة فى بيتهم المعمور » .

وقد نزل فى ضيافته كثيرون من الأدباء والعلماء الوافدين على مصر ، نذكر منهم المحبى والد صاحب خلاصة الأثر ، وقد ألف كتاباً عن رحلته إلى مصر وكان المحبى متعصبا للبكريين فكتب عن محمد زين العابدين فصلا جاء فيه «فرع غصن الدوحة البكرية ، وفنن الشجرة الطاهرة الصديقية التى لم تزل من البركة والسمو فى النماء ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . رونق الليالى والأيام ، وتاج رأس العلماء الأعلام . بهجة الجميع ورواء حسنها البديع . من أضحت له فى العلوم الحقيقية الرتبة الشامخة ، وفى المعارف الإلهية القدم الراسخة . ولو لم يكن له من عموم الشرف إلا خصوص هذه النسبة لكفاه ذلك فى الفخر وعلو الرتبة . وناهيك فخراً بأنه من ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة ، واصطفاه

---

(١) ٣/٦٧٤ . (٢) مخطوط رقم ٨٧ جغرافيا

للخلافة على ملته وشريعته الطاهرة . فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا ويسعوا إلى هذا البيت فى كل وقت وساعة »

كما ذكره إبراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى فى رحلته إلى مصر بمثل ماتقدم .

وقد ترك محمد زين العابدين ديوانا اشتمل - كما يقول صاحب خلاصة الأثر على نفائس القصائد والموشحات ، والمقاطيع والألغاز . ولكن ديوانه لم يصل إلينا ، بل وصلت إلينا مجموعة من شعره فى كتاب ألفه أحد أتباعه ؛ المسمى بدر الدين ؛ وهو كتاب « المجاز فى رحلة محمد زين العابدين إلى الحجاز » فمن هذه المجموعة قصائد فى التصوف والحب الإلهى . ومنها قصائد فى الدعاية لآل أبى بكر . مثال ذلك قوله :

ونحن حمـــاة الحى والحال شاهد	بمشهدنا الأعلى عن الحق بالحق
إذا جردت أسيافنا بمجالها	يشب لظاها فى دجى النقع كالبرق
وأسهمنا قتالة فهى لا تذر	عدوا يعادينا بجهل ولا تبقى
عتيق العتيق الجد أفضل صاحب	خليفة طه المصطفى أشرف الخلق
فسلم لنا تسلم ولاتك منـكرا	فيوقعك الإنكار فى المحو والحرق
وإن غرك الشيطان يوما فلاتقف	بموقفنا نرميك فى أضيق الطرق
نصحتك فاسمع إن أردت نصيحة	ودع عنك طيش النفس والكبر بالحمق
وخالف هوى النفس الذميمة واتبع	هوانا ولاتخش هوانا مع الصدق
وكن عبد حق مخلصا فى ودادنا	تنال الذى تهوى وتظفر بالعتق

فالأبيات الأولى فى الحماسة وتهديد الخصم بالقتل والإفناء ، ثم تحدثت فى بقية القصيدة عن جده عتيق ، وما خصت به ذريته ، ووجوب الانقياد لآل الصديق ، والإيمان بالتعاليم البكرية التى تدعو إلى حب البكريين ، والالتفاف حولهم ، وعدم التصدى لهم بالخصومة التى تؤدى بصاحبها إلى نار جهنم . ومن قوله :

فنحن بنى صديق أشرف مرسل   وأكرم من أسدى الأمان لخائف
مشاهدنا جلت فجلّت بنورها   مرايا مزاياها لكل مكاشف
فجاهد تشاهد من سناها أشعة   تحير فى أوصافها كل واصف
تدلّت بنور الفضل من قدس البقا   إلى عين أعيان حماة خلائف
هم رفقتى فى حضرة العز والتقى   وندمان حانى من دهور سوالف
أقمت بهم فى مركز الجمع مفردا   أهز بسكر الشكر فيهم معاطفى
أنا وارث الأسلاف لى بسلافهم   مقام تعالى فوق أعلى الرفارف

ومنها :

فمن نور شمس الأصل وصلى محقق   وقد نشرت بالمكرمات صحائفى
فطف شرق أقطار البلاد وغربها   لتسمع ما تنبى بصدق هواتفى

ففى الأبيات الأولى يحدثنا عن الحقيقة البكرية التى ورثها عن آبائه الذين كانوا مأمن الخائفين . ويذكر أن وراثته للحقيقة البكرية جعلت له مقاما ممتازاً عند الله وعند الناس. وفى الأبيات الأخيرة ينوه بقوته وبأسه وهيبته التى خصه الله بها حتى غدا كالسلطان الجالس على عرشه يسمع له ويطاع أمره. وقد ردد هذه الآراء فى معظم شعره . فانظر إليه حين يقول :

إنى محمد زين العابدين أبى   وثانى اثنين جدى صاحب الهادى

وحين يقول :

نحن قوم من آل صديق طه   مجدنا قد علا على فرق فرقد
خلفاء عنه بحال وقال   فتمسك بنا تعز وتسعد

وحين يقول :

وأنا ابن زين العابدين محمد   قد طبت فى روض المعارف مغرسا
جدّى عتيق والعتيقة مشربى   من كأسها خمر الحقائق تحتسى

وحين يقول :

واسجد بمحراب الشهود واقترب لنا بنا ولا تخف من مكر
واسلم وعد مسلما بعزة وادخل لحان بكرنا يا بكرى
وارو الحديث عن عتيق راحنا لجدك العتيق عالى القدر
أنا الفتى وابن الفتى بلا مرا جدى أبو بكر صديق الطهر

وهكذا اتخذ شعره وسيلة للدعاية للبيت البكرى كما فعل غيره من لدعاة والصديقيين . وله قصائد فى الشكوى من أهل العناد والضلال . مثال ذلك قوله :

ضلت عقول اهل العناد عن سبل أهل مودتك
سلكوا طريقا فى الفساد تبعدهمو عن حضرتك
ركبو جواد غرورهم
وتطاولوا بفجورهم
وتعصبوا فى زورهم
وبغوا على أهل الرشاد الصادقين بخدمتك
كل يقول أنا أنا
بالجاه قد نلت المنى
وأظنهم نالوا العنا
بالزيغ عن طرق الفساد ووقوعهم فى شدتك
فأميرهم ومشيرهم
وكبيرهم وصغيرهم
وجليلهم وحقيرهم
ظل وللظل النفاد ولك البقاء بقدرتك

... الخ .

وهذا من الشعر العذب الرقيق .

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى القرن الثانى عشر لنتابع الدراسة لشعر البكريين .

كان يعيش فى أول القرن من شيوخ البكريين : زين العابدين . وقد نزل عبد الغنى النابلسى الذى زار مصر سنة ١١٠٥ هـ فى ضيافته ، وتحدث عنه كثيرا فى كتابه الذى ألفه عن رحلته واسمه « الحقيقة والمجاز فى الرحلة من الشام إلى مصر والحجاز » فقال[١] « . . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهمام ، بركة الأنام ، الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى فتلقانا بصدره الرحيب ، وجلست عند حضرته حصة من الزمان فى مجلسه المطل على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان ، التى فيها نفحة من نفحات الجنان . وتذاكرنا معه فى بعض المسائل العلمية ، والمطارحات الأدبية ، والقصائد الشعرية . واجتمعنا هناك عنده بقريبنا وعزيزنا الفاضل الكامل محمد أمين[٢] المحبى الشامى . وبصديقنا الفاضل الأديب الشيخ شاهين بن فتح الله وقد أنزلنا الشيخ فى دار لصق داره ، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره » .

وقال فى موضع آخر[٣] . « . . . . وكان الشيخ زين العابدين قد دعانا فى ذلك اليوم إلى ضيافته ، وكان المجلس حافلا بأفاضل العلماء وأعيان الكبراء . وحضر السماع وتحركت الآلات ، وسكنت النفوس والأصوات . ولم نزل فى ابتهاج وسرور ، ومؤانسة وحضور حتى مدت الموائد وجرت العوائد . وكان ذلك فى المجلس المطل على بركة الأزبكية . ثم بعد صلاة المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة . فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع الأحجار ، وقد أوقدت الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار . فوصلنا

---

(١) ورقه ٩١ مخطوط ٣٣٤ جغرافيا .

(٢) هو صاحب خلاصة الأثر .

(٣) ورقة ١٠٣ .

إلى ميدان مفروش بالرخام والمرمر فى ألوان كأنه قلائد العقيان . وهناك إيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام ، وأجمل من صفحات الوجوه ، وأعطر من الزهر فى الأكمام . ورأينا الثريات من القناديل المشعولة ما تبقى ببهجته النفوس والعيون مشغولة . وانطلقت مباخر العود ، وقامت مواسم الشهود . ونادى لسان الحال حين خاطب وقال :

يا صاحب العودين لا تُهملهما حرِّكْ لنا عوداً وحرِّق عودا

إلى أن قطعنا حصة من مسافة الليل ، وتقلص ضوء الثريا فشمر للمغيب الذيل ، فقدمت المآكل السكريات ، والحلاوات الشهيات . ثم قدم العود والعنبر المشهور ، وانهلّ ماء الورد من تحت غمام البخور . وقد تفرق الجمع ووقف نور اللمع » .

وقال فى موضع ثالث(١) « . . . نزلنا إلى مجلس الشيخ زين العابدين حتى صلينا الظهر ، ثم ركبنا وسرنا معه إلى دارهم الأولى التى كان يسكنها السادة البكرية سابقاً بالقرب من قناطر السباع ، ذات قصور عالية ، أرخصت غيرها وهى غالية . ورياض أنيقة ، وكيفما التفت وجدت حديقة . وفيها مجلس مطل على بركة الفيل ، كل كثير من البلاغة فى وصفه قليل . لطيف الأرجا ، هو لنور الكمال معتمد وملجا . يحيط به شبكات من الخشب المدهون ، مطلة على حوض من الرخام الملون بفنون . وعلى حافة ذلك الحوض شكل رقعة الشطرنج من الحجر السماقى والرخام » .

« ثم دخلنا فى تلك الدار إلى بيت الولى العارف بالله تعالى الشيخ جلال الدين البكرى الصديقى — رضى الله عنه — وهو الذى كان يسكنه فى أيام حياته . وتبركنا به وبآثاره القديمة ، ومعاهده العظيمة . ودخلنا إلى قاعته التى هناك المسماة بقاعة التجلى . فإن الشيخ جلال الدين المذكور

---

(١) ورقة ١٠٦

فتح عليه فيها لما كان ملازماً للخلوة والعبادة والعزلة بها ، وهى مقفلة لايدخلها أحد إلا القليل . ففتحت لنا ودخلنا إليها مع الشيخ زين العابدين ، فرأيناها قاعة صغيرة جداً بإيوانين متقابلين ، وهى لطيفة البنـاء ، ظريفة الفناء ، بها النور الساطع ، والسر اللامع القاطع » .

ولا شك فى أن عبد الغنى النابلسى قد أعطانا فكرة واضحة عن بيئة البكريين فى القرن الثانى عشر ، وحدثنا عن الندوات العلمية والأدبية التى كانت تعقد فى قصورهم ، وتضم عدداً من رجال العلم والأدب . وفى رحلته قصائد كثيرة من نظمه ونظم غيره من الشعراء فى مدح زين العابدين وأخيه محمد أبى المواهب . وكثير من هذه المدائح تبـدأ بوصف بركة الأزبكية وما يحيط بها من الحدائق والقصور . ثم يتخلص أصحابها من ذلك إلى المدح . انظر إلى قول محمد أمين المحبى :

يا حبذا خـُضر الخما ئل فى رياض الأزبكيه
وخفوق أردية النســـيم سرى ببقعتها النديه
أرض تـكنفها الحدا ئق والرياض الأريضيه

واستمر فى هذا الوصف إلى أن قال :

فاختر هـنالك مربعاً تُـكْـفَى به كلَّ الأذيَّـه
وتقيم موفور المنى وتحفك المنن الخفـيَّه
فى ظل زين العـابديـ ـن الشهم أستاذ البريَّه
مولى أناخ المجد فى أعتابه البيض النقيـه

فالمدرسة البكرية امتازت بهذا الشعر الكثير الذى نظم فى وصف الحدائق والبساتين ، والقصور والبرك ، والنسيم العليل وما يتركه فى النفس من أثر . ولعبد الغنى النابلسى قصائد من هذا القبيل نذكر منها :

رعى الله من مصر على القرب موردا به النيل وافى ماؤه يُذهب الصدا

يسمونه بالأزبكية بركة مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها كوجه عروس لاح فى الحسن مفردا

واستطرد من هذا الوصف إلى ذكر قصور البكريين ثم انتقل إلى المدح فقال :

وفيها شبابيك عليها مطلة وعيدانها صيغت لجيناً وعسجدا
بها قطبنا البكرى يبدو برَوْشَن له ثَمَّ مملوء من العز والهدى

وهذا الشعر كله من وحى البيئة ، وهو خير من الغزل المتكلف الذى كانت تبدأ به المدائح . وخير من ذكر الأماكن الحجازية التى اعتاد الشعراء أن يرددوها فى قصائدهم . ويبدو من رحلة النابلسى وغيرها من كتب الرحلات والتاريخ أن القاهرة كانت تتمتع فى ذلك العصر بكثير من البساتين ، وببعض البرك . وكان الأمراء والأعيان يشيدون قصورهم حول تلك البرك . وهؤلاء الأعيان — ومنهم البكريون — لا يكتفون بما حول هذه البرك من البساتين ، بل يخرجون للنزهة فى جهات بولاق وقصر العينى والروضة ومصر العتيقة ويتبارى أدباؤهم وشعراؤهم فى وصف تلك الجهات ، وما فيها من زروع وطيور ودواليب . قال عبد الغنى النابلسى وقد خرج للنزهة فى صحبة زين العابدين « . . . ثم مررنا هناك على الروضة وهى جزيرة مصر ذات الحسن المشهور ، المشتملة على الخضرة وألوان الزهور الخ . . »

وقال فى موضع آخر « . . . وتوجهنا إلى الجهة المشهورة بقصر العينى ، فدخلنا إلى منتزه لطيف الأوصاف ، متسق الأكناف . فيه أنواع الفواكه والثمار ، ومحفوف بفنون الرياحين والأزهار . وفيه دولاب لإخراج المياه بالدواب . وهناك بركة من الماء وسواقى جارية رقيقة الهواء . فجلسنا تحت تلك العرائش من العنب وحولنا هاتيك الغصون المائلة ميل العرائس عذبة الشنب ، إلى أن حضرت المائدة ، وحصلت من الاجتماع الفائدة . . . ثم عدنا

من ذلك المزار فى أخريات النهار وقد امتلأنا سروراً ، وقلدنا بعقود اللطائف الأدبية أعناقاً ونحوراً » ، ثم أورد له شعراً نظمه فى وصف هـذا البستان وما فيه من الدواليب .

وقد زار عبد الغنى النابلسى مدافن العائلة البكرية ، ونظم قصيدة نوه فيها بشأن أقطاب البكريين ، وبما خصوا به من المناقب والفضائل ، ووراثتهم الحقيقة البكرية . كما نظم قصيدة حينما دخل قاعة التجلى المتقدم ذكرها ، جاء فيها :

لما دخلتُ قاعة التجـلّى قلوبنا مالت من التّمـلّى
وكيف وهى من جلال الدين فى جلالها وهيبة التجـلّى
أعنى به البكرى نسل الصادق العتيق كوكب الهُـدَى الأجلّ
صاحب طه الخليفة الذى عنه نشا فى أشرف المحل

ومنها :

لا زال منهم واحد فواحد فى كل عصر بالمقام الإلّى
ومصر لا زالت بهم محفوظة وأهلها لشمسهم كالظل

فالنابلسى كما يبدو من هذه الأبيات مؤمن إيماناً عميقاً بما يقول به البكريون من وجود صديق بكرى على الدوام بحيث لا يخلو عصر منهم . وقد أورد فى رحلته بعض قصائد من شعر زين العابدين ، نذكر منها :

أنا نجل الصِّـدِّيق غيرُ مُدافعْ لى فى نسبتى وغيرُ ممانـعْ
أنا أصبحت للمفاخر جامع أنا زين العباد فانهض وسارع
لى فإنى لـكل خير مَظَـنَّـهْ

ولنترك عبد الغنى النابلسى لنلقى نظرة على مصطفى بن كمال الدين البكرى المتوفى بالقاهرة سنة ١١٦٢ هـ وهو ليس من البيت البكرى ، وإنما أصله من الشام ثم جاء إلى مصر واستوطنها . وله مؤلفات كثيرة موجودة

بدار الكتب المصرية . وربما لقب بالبكرى لانتمائه إلى الطريقة البكرية أو لانتسابه إلى بكرية الشام . وقد نظم فى شيوخ البكريين بعض المدائح نذكر منها :

أهل المكانة والأمانة والتقى   مَن مدحهم فى سورة الأحقاف
أهل الصديق مقرهم طال به   إذ تتبع الأبناء للأسلاف

ومنها فى مدح أبى بكر :

يا أول الخلفاء ثانى اثنين فى   غار الوفا يا وافر الإسعاف
يا منقذ الإسلام يوم سقيفة   رجعت به الأرواح خوف طواف
فسكت عاموداً له وقتلت مُرْ   تداً فعاد الأمر للإيلاف

وفى قوله « من مدحهم فى سورة الأحقاف » إشارة إلى قوله تعالى « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على » إلى قوله «وأصلح لى فى ذريتى » . وقد مر بنا ما يزعمه البكريون بخصوص هذه الآية .

* * *

وقد بقيت المدرسة البكرية حاملة لواء الدعاية للبكريين على النمط المتقدم حتى العصر الحديث . فهذا محمد البكرى الذى عين شيخاً للسجادة البكرية عام ١٢٧٧ هـ كان قبلة أنظار الأدباء والشعراء . وقد مدحه شهاب الدين المصرى بقصيدة جاء فيها :

وإذا خفت صولة الدهر فاقصد   آل صديق أحمد المختار
هم مقر الأمان مجلى الأمانى   مظهر الخير موضع الأسرار
حيهم منزل الرضا وحماهم   حيث تمحى كبائر الأوزار
هم نجوم الهدى ولا سيما من   لاح فيهم كالبدر بين الدرارى
وهو شيخ الشيوخ مولى الموالى   صفوة الصفو خيرة الأخيار

وفى سنة ١٨٩٢ م تولى مشيخة السجادة السيد توفيق البكرى . وقد أقيمت بهذه المناسبة حفلة رسمية فى قصر عابدين حضرها جم غفير من علماء الأزهر ورجال الطرق الصوفية . وبعد أن شرب الحاضرون القهوة نهض الخديو عباس وقلد الشيخ تاج الشرف . ثم نزل السيد توفيق ومعه مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء وسار فى موكب ضخم حتى وصل إلى قصره بالخرنفش . وهناك أقبل عليه الشعراء مهنئين مادحين . ومن هؤلاء الشيخ حمزة فتح الله الذى يقول من قصيدة طويلة :

إنا نهنّى المكرمات وأهلَها بخليفها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكرىّ فرع أرومة الصدّ يق زهرة دوحة الزهراء
العالم النحرير والعلَم الذى أحيا رسوم المجد والعلياء

ومنها :

يا ابن النبى إليك أوفد مخلص أمدوحة تمشى على استحياء
فإليكها جهد المقل لأنكم فى غنية عن مدحة وثناء

وفى أول مارس سنة ١٩٠٣ صدر أمر خديوى بتعيينه نقيباً للأشراف ، فمدحه بعض الشعراء ، منهم أحمد نسيم الذى يقول :

بشراك توفيق أنت اليوم راعيها فهل نهنيك نظماً أم نهنيها ؟
خذ النقابة والعلياء تحملها إلى رحابك والرحمن يحميها
غابت زماناً وبانت بعد أن حجبت كأنها الشمس تمثيلا وتشبيها
فانهض بها يا ابن آل البيت ما طلعت شمس الضحى نهضة لله تبغيها
حتى يقول أبو بكر لصاحبه بشراك عباس أعطى القوس باريها

. . . . . الخ

والآن قد فرغنا من دراستنا لشعر البكريين . وأهم خاصية لهذه المدرسة هى كما مر بنا تقديس ذرية أبى بكر ؛ ودعوة الناس إلى الإيمان بالتعاليم البكرية التى تقدم ذكرها . ومن خصائصها كذلك تلك الروح الصوفية المتأثرة بابن الفارض وابن عربى . والميل إلى وصف الحدائق والبساتين ، والجداول والبرك ، والأشجار والطيور والدواليب ، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة . وهى بذلك قد أضافت إلى الأدب المصرى فى العصر الذى ندرسه ثروة طائلة من النثر والشعر والموشحات والأزجال .

الفصل الثالث

المدرسة العلوية(١)

سندرس فى هذا الفصل الشعر الذى قيل فى آل البيت . وأول شاعر نصادفه هو بهاء الدين العاملى الذى وفد إلى مصر سنة ٩٩٢ وأقام بها مدة من الزمن ، وألف بها كتابه « الكشكول » وفيه قصيدة(٢) من نظمه تحت عنوان « وسيلة الفوز والأمان فى مدح صاحب الزمان » وهى :

خليفةُ ربٍّ العالمين فظلُّهُ	على ساكن الغبراء من كل ديَّارِ
هو العروة الوثقى الذى مَنْ بذيله	تمسَّك لا يخشى عظائم أوزار
إمام هدًى لاذ الزمان بظله	وألقى عليه الدهر مِقْود خوَّار
علوم الورى فى جنب أبحر علمه	كغرفة كف أو كغمسة منقار
إمام الورى طود النُّهى منبع الهدى	وصاحب سر الله فى هذه الدار
به العالَم السفلىُّ يسمو ويعتلى	على العالَمِ العُلْوىّ من دون إنكار
ومنه العقول العشر تبغى كمالها	وليس عليها فى التعلّم من عار
أيا حُجَّةَ الله الذى ليس جاريا	بغير الذى ترضاه سابق أقدار
ويا مَن مقاليد الزمان بكفِّه	وناهيك من مجد به خصه البارى

(١) كانت سياسة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت تقضى بإيجاد فرق تتنافس فيما بينها على النفوذ ، وهى تقف بعيداً مطمئنة إلى سلطانها . فشجعت قيام حزبين كبيرين من المماليك هما : القاسمية والفقارية. ولم يكن عندها ما يمنع من قيام فرقة تناظر البكريين، وبهذا نفهم السر فى ظهور النزعة العلوية إلى جانب النزعة البكرية . على أن النزعة العلوية بدأت بمدح أصحاب الأضرحة من آل البيت ، ثم أخذت تشتد يوما بعد يوم نتيجة لاضمحلال النفوذ العثمانى وظهور المماليك كحكام حقيقيين للبلاد .

(٢) ص ٨٧ ، ٨٨

أغث حوزة الإيمان واعمر ربوعه … فلم يبق منها غير دارس آثار
وأنقذ كتاب الله من يد عصبة … عَصَوْا وتمادَوْا فى عُتوٍّ وإصرار
يحيدون عن آياته لرواية … رواها أبو شعيون عن كعب الاحبار
وفى الدين قد قاسوا وعاثوا وخبطوا … بآرائهم تخبيط عشواءَ معثار
وأنعش قلوباً فى انتظارك قُرِّحت … وأضجرها الأعداء أيَّة إضجار
وخلِّص عباد الله من كل غاشم … وطهر بلاد الله من كل كَفَّار
وعجِّل فداك العالَمون بأسرهم … وبادر على اسم الله من غير إنظار
تجدْ من جنود الله خير كتائب … وأكرَم أعوان وأشرَف أنصار
بهم من بنى همدانَ أخلصُ فتية … يخوضون أغمار الوغى غير فُكَّار
بكل شديد البأس عبل شمردَلٍ … إلى الحتف مقدام على الهول مصبار
تحاذره الأبطال فى كل موقف … وترهبه الفرسان فى كل مضمار
أيا صفوة الرحمن دونَك مِدحةً … كدُرٍّ عقود فى ترائب أبكار

وقد أثبتنا هذه القصيدة كلها نظراً لأهميتها . فهى تسجل الآراء الشيعية التى نشرها العاملى فى مصر فى ذلك الوقت . فصاحب الزمان هو خليفة الله الذى مد ظله على العالم . وهو العروة الوثقى ، ومن تمسك به نجا . وهو الإمام الهادى الذى حاز جميع المعارف والعلوم . وهو منبع الهدى ، وصاحب الأسرار الإلهية فى الدنيا . ومنه تستمد العقول العشر كمالها . وهو حجة الله الذى تجرى الأقدار بإرادته ، ويمضى الزمان بمشيئته . ثم أخذ الشاعر يخاطب صاحب الزمان طالباً منه أن ينقذ الإيمان ويعيد إليه رونقه وبهاءه وجدته ، لأن ربوعه قد تهدمت وزالت ، ولم يبق منها سوى أطلال بالية . والقرآن أصبح فى يد قوم عتاة عصاة ، أهملوا ما جاء فيه واتبعوا ما روى عن كعب الأحبار وغيره . ثم إنهم اتخذوا القياس فى أحكام الدين ، واجتهدوا بآرائهم ، وضلوا سواء السبيل .

وبعد أن وصف الشاعر ماوصل إليه العالم من فساد وانحلال ، التمس من

صاحب الزمان أن يظهر فإن القلوب متعطشة لرؤيته . وأن ينقذ العالم من الظلم والطغيان ، ويطهر البلاد من الكفار . وسيجد فى انتظاره جيشاً من جنود الله من بنى همدان المعروفين بالإخلاص له ، والمشهورين بالشجاعة والإقدام . وخصص بنى همدان لأن المتعارف عند فريق من الشيعة ومنهم الإثنا عشرية أن الإمام المنتظر سيظهر فى بنى همدان . ومن العجيب[1] أن رجال الدين فى مصر لم ينكروا على بهاء الدين هذه الآراء مع ما فيها من تعريض بأهل السنة ، وما جروا عليه فى الأحكام من القياس والاجتهاد . ومع قوله إن كتاب الله أصبح فى يد عصبة من الكفار .

وله قصيدة أخرى ردد فيها المعانى السابقة نذكر منها :

صاحب العصر الإمام المنتظر	مَن بما يأباه لا يجرى القدَرْ
حجــة الله على كل البشرْ	خير أهل الأرض فى كل الخصالْ
من إليه الكون قد ألقى القيادْ	مجرياً أحــكامه فيما أراد
إن تزل عن طوعه السبع الشداد	خرّ منها كل سامى السمك عال
شمس أوج المجد مصباح الظلام	صفــوة الرحمن من بين الأنام
الإمام ابن الإمام ابن الإمام	قطب أفــلاك المعالى والكمال
يا أمين الله يا شمس الهُــدى	يا إمام الخلق يا بحر النــدى
عجِّلَنْ عجل فقد طال المدى	واضمحل الدين واستولى الضلال

ثم إنه خصص فى كتابه « الكشكول » فصلا طويلا عن السيدة فاطمة ، ذكر فيه كثيراً من مناقبها وفضائلها . وأورد أخباراً متفرقة عن الحسين ابن على وبعض كبار آل البيت .

وفى تلك الفترة جاء داود الأنطاكى إلى مصر ، وكان كما نقل المحبى[2] « شيعياً مخالفاً لعقيدة الأشعرية ، وموافقاً لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا عليًّا وقالوا بإمامته نصًّا ووصيةً . والحق أحق أن يتبع فى بيان معتقد

(١) كان من مصلحة الدولة العثمانية أن ينقسم المصريون إلى فرق يأخذ بعضها بخناق بعض، وهى تقف موقف المتفرج .

(٢) الخلاصة ٢/١٤٤

الإنسان . وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكم له من اعتقادات فاسدة ، وأقاويل كاذبة باطلة » وقد ذكر داود فى مقدمة تذكرته ما نصه « ... صلاة تزيد على حركات المحيط على من اخترت من النفوس القدسية لقوام الأدوار فى كل زمان ، والإرشاد إلى منهاج الحق وقانون الصدق » والنفوس القدسية يراد بها الأئمة . والدور عند الإسماعيلية هو الفترة بين نبى وآخر .

والأقوال متضاربة فى أمر داود ، فمن الناس من قال إنه كان ملحداً ، ومنهم من قال إنه كان شيعياً . وظاهر مما ورد فى مقدمة تذكرته أنه كان يدين بمذهب الشيعة الإسماعيلية .

وعلى كل حال فإن الأفكار الشيعية الفلسفية لم تجد رواجاً فى مصر لوجود البكريين الذين كانوا ينشرون تعاليمهم بين الناس ، ويؤثرون على كثير من الشعراء والأدباء بالعطاء الجزيل . ولوجود حكام يدينون بمذهب أهل السنة . وكانت الدولة العثمانية كما سبق أن ذكرنا تشجع العلماء على تأليف الكتب ضد الأفكار الشيعية .

وقد حدثتنا كتب التراجم عن شعراء مصريين كانوا ينظمون القصائد فى مدح أشراف مكة أملاً فى نوال عطائهم ، ولكن لم يصل إلينا شىء من هذه المدائح .

ويجب أن نذكر أن عواطف المصريين كانت ولا تزال مع أهل البيت بالرغم من عدم رواج الفلسفة الشيعية بينهم .

* * *

وفى هذا العصر جددت أضرحة آل البيت فى مصر ، وانهمك الناس فى إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة . وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدح آل البيت ، وبخاصة الحسين . مثال ذلك قول عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧٢ هـ :

آل طه ومن يقل آل طه   مستجيراً بجاهكم لا يُردُّ
حبكم مذهبى وعقد يقينى   ليس لى مذهب سواه وعقدُ

بيتكم مهبط الوحـ ـى ومنكم نور النبوّة يبدو
ولكم فى العلا مقام رفيع ما لكم فيه آل ياسين نِدُّ
يا ابن بنت الرسول من ذا يُضا هيك افتخاراً وأنت للفخر عِقْدُ
كل من رام حصر فضلك غِرٌّ فضل آل النبى ليس يُعدُّ

فخصائص الشعر العلوى ظاهرة فى هذه الأبيات . فالشاعر يذكر آل طه ، ويقول إن حبهم دينه الذى يدين به ، وقد انعقد إيمانه على هذا الحب . وبيتهم نزلت فيه الرسالة والوحى . ويذكر نور النبوة وآل ياسين ، وابن بنت رسول الله . وكل هذا وغيره من مميزات الشعر العلوى .

وله من قصيدة أخرى :

لست أخشى ريب الزمان وأنتم عمدتى فى الخطوب يا آل أحمدْ
من يضاهى فخاركم آل طـه وعليكم سرادق العز ممتـد
كل فضل لغيركم فإليكم يا بنى الطُّهر بالأصالة يُسند
أى بيت كبيتكم آل طه طهر الله ساكنيه ومجد
ولكم فى الكتاب ذكر جميل يهتدى منه كل قارى ويسعد
وعليكم أثنى الكتاب وهل بعـ ـد ثناء الكتاب مجد وسودد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » والشيعة يذكرون أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا عليًّا والحسن والحسين وفاطمة ، وألقى عليهم عباءته وكان هو معهم تحت العباءة ، وحينئذ نزلت الآية المتقدمة .

وقال :

لئن كان رفضاً حبكم يا آل أحمدٍ فقد لذ لى فى حبكم ذلك الرفض
عرضت عليكم آل ياسين قصتى ويحسن من مثلى على مثلكم عرض
وعاداتكم إكرام من زار حيَّكم وحاشا لتلك العادة الخلف والنقض

على حبكم أفنيت عمرى وهل لمن ... بحُبِّكمو بُعدٌ من الله أو بغضُ
وها أنا يا آل النبى وحق مَن ... تذلّل لعلياه السموات والأرض
محب أتاكم آل طه يزوركم ... وقد صح فى التاريخ حبكمو فرض

والبيت الأول مأخوذ من البيت المشهور المنسوب للإمام الشافعى وهو

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أنّى رافضى

ولن نجد عند الشبراوى فى مدائحه لآل البيت أكثر من المعانى المتقدمة فلنتركه ولننظر فى شعر الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ قال يمدح فاطمة الزهراء

أمَا هى من طه المكرم بضعة ... على حبها من مات كانت له البُشرى
أما هى مَن قد حرّم الله جسمها ... على النار تحقيقا وأحبابها جهرا
أما هى من قد أحصنت فرجها فلا ... تدانى لها نار وأولادها طرّا
وخير نساء العالمين بلا مرا ... ومن شك فى هذا عليه بالاستقرا
وكان رسول الله يقبضه الذى ... يكون لها قبضا ويبسط بالأخرى
وقال لها صلى عليه إلهه ... لأجل رضاك الله يرضى فيا بشرى
وفى الحشر يأتى المصطفى وهو راكب البراق وتأتى خلفه بنته الغرّا
على الناقة القصوى فتدخل تلوه ... إلى جنة المأوى التى حسنت ذكرا
وفى خبر يغدو المنادى مناديا ... لدى ذلك الجمع الذى عز أن يدرى
ألا نكسوا روسا وغضوا نواظرا ... لئلا يروا شخصا لمن ظهرت مرا
وفى مدحها جاءت أحاديث جمة ... تفوت على من رام تعدادها حصرا
وخصت من المولى بأشيا تميزت ... بها عن نساء العالمين حاث نشرا
فلا حيض يأتيها ولا فى نفاسها ... يرى دمها من أجل ذا لقبت زهرا
ولا جوع تشكو قط من أجل دعوة ... دعاها لها طه ولو مكثت شهرا
وسر أبيها قد غدت كنية لها ... فيا حسنها من كنية قد زكت نشرا
وكان لها دوما يقوم إذا أتت ... إليه ويحبوها بمجلسه جبرا

وما بين عينيها يقبل مثلما | يمصى لسانا قد حلا وزكا طهرا
وقد ضمها تحت الكسا وعليها | ونجليها ضما به زادهم فخرا
وقال إله العرش إنى أحبهم | فطهرهم من كل مايوجب الإصرا
وأحبب إلهى كل من قد أحبهم | ونوله ما يرجوه وارفع له ذكرا
لقد ولدتها من تسامت خديجة | حليلة خير المرسلين علا قدرا
فقد كرمت أما كما شرفت أبا | وقد أنجبت شبلين سادا الملا الزهرا
هما كوكبا فضل وبدرا سيادة | وريحانة المختار من فاز بالإسرا
شهيدان مسعودان بران سيدا | شباب جنان من عبيد ومن أحرا[1]
مصابهما لم ينسه خاطرى وما | أتاه العدا من سوء بغى غدا أمرا
مصابهما أبكى العيون وأوقع النـ | ـفوس بكرب مثلما للحشا فرا
ألا لعن الرحمن من قد سعى بما | أباح دماء بالنفائس لا تشرى
همو آل بيت الطهر طه الذين قد | نفى الرجس عنهم ربنا فاقرإ الذكرا
وفى سورة الشورى العجائب فاتلها | تنل ماتشا بل تغنم الفوز والأجرا
بها وبنجليها الكريمين والرضا | على والمختار ذى الآية الكبرى
توسلت يارب العباد بهم عسى | أنال بحبيهم مرادى والنصرا

فإذا تأملنا فى هذه القصيدة وجدنا الإدكاوى قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث التى رويت فى السيدة فاطمة . وبالرجوع[2] إلى صحيحى البخارى ومسلم وجدت حديثين هما « فاطمة سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة » فى رواية مسلم . وفى رواية البخارى « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» . وحديث « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » فى رواية مسلم .

---

(١) من حرا : من حرار . (٢) إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ٦/١٤٤ وصحيح مسلم ١/٣ المطبعة المصريه

وعند البخاري « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني » وفي رواية عنده « ويؤذيني ما آذاها »

وقول الإدكاوي « وسر أبيها كان يودعه لها » فيه إشارة إلى حديث ورد في البخاري ومسلم ومعناه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة وأخبرها أنه سينتقل إلى الرفيق الأعلى فبكت . ثم أخبرها أنها ستكون أول من يلحق به فضحكت . وقد كتمت هذا الخبر فلم تبح به إلا بعد وفاة الرسول .

أما الأخبار التي أوردها الشاعر عن فاطمة وهي أنها لا تحيض، ولا يخرج منها دم عقب الولادة ، وأن النبي دعا لها بدعاء يقيها شر الجوع ، وأنها تركب ناقة يوم القيامة وتدخل بها إلى الجنة على أثر الرسول ، وأن مناديا ينادي الناس ليغضوا أبصارهم حتى تمر بناقتها ، إلى غير ذلك ، فإن هذه الأخبار لم ترد في الكتب الصحيحة ، وهي من غير شك من مخترعات الشيعة . ومع ذلك فالمسلمون أجمعون يشتركون في حب فاطمة ، ويرتاحون إلى كل ما يقال ويروى من أخبارها . ولا عجب في ذلك فهي بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي قول الإدكاوي « وفي سورة الشورى العجائب فاتلها » إشارة إلى قوله تعالى « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فإن الشيعة فسروا القربى بأنها آل علي ، وبذلك وجهوا الآية توجيهاً يخدم أغراضهم ، في حين أن خصومهم قالوا إن قرابة النبي لا تقتصر على آل علي، بل تشمل كل من يمت إلى النبي بصلة القرابة من ناحية الآباء والأمهات، والمصاهرة والنسب . ومن هنا نرى أن شعراء العلويين في مصر اتفقوا مع الشيعة في تفسير هذه الآية .

وفي قوله « وقد ضمها تحت الكسا وعليّها » إشارة إلى القصة التي رويت حول نزول آية التطهير من الرجس . وقد رجعت إلى الطبري وهو المشهور بالتفسير بالأثر فوجدت كل ما أورده من أقوال في هذا الصدد يتفق

مع ماذهب اليه الشيعة ، اللهم إلارواية واحدة تنص على أن[1] الآية نزلت فى نساء النبى . وخصوم الشيعة يأخذون بهذه الرواية . وأما شعراء العلويين فى مصر فإنهم وقفوا إلى جانب الشيعة ، ولم تخل قصيدة من قصائدهم من الإشارة إليها .

وقد بكى الإدكاوى على ما أصاب الحسن والحسين ، ونوّه بشأنهما ، ولعن معاوية وابنه يزيد الذين قتلا هذين الشهيدين . والشيعة يذكرون أن معاوية دس السم للحسن ، وقد تابعهم الادكاوى وغيره من الشعراء العلويين بمصر فى هذا الزعم . أما غير الشيعة فإنهم برأوا معاوية من هذه التهمة ، ونظروا إليه على أنه كان أحد الصحابة . وعندى أن الذى يولى ابنه يزيد إمارة المؤمنين مع علمه بفسقه وفجوره لايبعد عليه أن يسم الحسن .

وختم الادكاوى قصيدته بالتضرع إلى الله أن يميته على حب آل البيت لأن حبهم من الإيمان ، ولا يدخل الجنة إلا من مات على حبهم. كما أن بغضهم كفر يؤدى إلى النار . وقد اشترك جميع الشعراء العلويين فى هذا القول ، كما اشتركوا فى التوسل إلى الله بآل البيت ، والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات .

* * *

وقد التف شعراء العلويين حول شيوخ السادات الوفائية ، ومدحوهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال فى الخلفاء الفاطميين .

ومؤسس[2] بيت السادات فى مصر هو : محمد وفا ؛ الذى ينحدر من ذرية الإمام على . وقد جاء إلى مصر من شمال إفريقية فى أول القرن الثامن الهجرى ونزل بالاسكندرية وأقام بها مدة من الزمن . ثم انتقل إلى القاهرة وسكن

---

(١) ج ٢٢ ص ٧٢٦ المطبعة الميمنية بالقاهرة .
(٢) رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا — تأليف مرتضى الزبيدى .

بجزيرة الروضة . وقد قيل فى سبب تلقيبه بوفا أن النيل توقف فى إحدى السنين ، فتوجه العلماء والصلحاء إلى المقياس ودعوا الله لترتفع مياه النيل كالمعتاد ، ولكن الله لم يجب دعاءهم . وبقى النيل على حالته من النقص . وقد أخبر السلطان بوجود « محمد النجم » وصلاحه وتقواه . فأرسل اليه أن يتوجه إلى المقياس ويدعو الله ، ففعل . فلم يلبث أن ارتفع الماء وظهر الوفاء ، وصار الناس يقولون « وفا ، وفا » وخوطب حينئذ بذلك وصار علما عليه.

وليس من المهم أن نقف عند هذه القصة لنحكم لها أو عليها، فالخرافات موجودة فى كل زمان ومكان .

واشتهرت ذريتـه باسم « السادات » . وقد توفى محمد وفا سنة ٧٦٥ هـ.

وكان كما ذكر منفردا فى التصوف . وله ديوان شعر موجود ، ولكننا سنغفل الكلام على شعره لأنه لا يدخل فى عصرنا الذى ندرسه .

ثم انتقلت عائلة السادات من الروضة وسكنت مصر القديمة . وفى القرن الحادى عشر كان لها مساكن بناحيتى الخرنفش وبركة الفيل . وقد ذكرهم عبد الغنى النابلسى الذى جاء إلى مصر سنة ١١٠٥ هـ فقال[١] « ... ثم ركبنا وتوجهنا مع الإخوان إلى جهة بيت السادة الوفائية المشهورين بالمعارف الإلهية والحقائق الربانية . أهل النظم والنثر من التصانيف الفاخرة ، والدواوين الزاهرة . وكان منهم البدر الكامل ، والسر الشامل الشيخ يوسف ابن متعة البصر والسمع ، ونور الفرق والجمع ، الشيخ أبى التخصيص الوفائى ، رفع لهم الله فى الآفاق رايات المجد ، ولا زال ذكرهم بالكمالات الإنسانية بين مراتب الغور ونجد » .

« فدخلنا إلى دارهم المعمورة التى هى بأنواع الهيبة والاحتشام مغمورة . فتلقانا الشيخ يوسف المذكور بكمال البشاشة والسرور . وجلسنا عنده حصة

---

(١) ورقة ١٢٣ من كتاب الحقيقة والمجاز .

من الزمان حتى جيء لنا بماء الورد والبخور ، وحصل كمال اللطف والإذعان»

وذكرهم الشهاب الخفاجي المتوفى[1] سنة ١٠٦٩ فقال « ومن البيوت العامرة بمصر بيت السادة الوفائية . سادات السادات ، لهم أنفس قدسية قد أفيضت عليها العلوم اللدنية . ما منهم إلا صاحب ديوان نافذ فى سبيل البلاغة بسلطان » .

* * *

ومن أعلام هذا البيت : عبد الخالق بن وفا . وقد ذكره[2] الجبرتى فقال « قطب زمانه ، وفريد أوانه . كان على قدمِّ أسلافه وفيه فضيلة وميل للشعر . وامتدحه الشعراء وأجازهم الجوائز السنية . وكان يحب سماع الآلات » . ومما قيل فى مدحه :

دع عنك حاتم طى وابن زائدة واترك حديث بنى العباس والخلفا
وانظر بعينيك هل أبصرت من رجل فى الجود يشبه عبدالخالق بن وفا

توفى سنة ١١٦١هـ وتولى بعده فى خلافتهم : محمد أبو الإشراق بن وفا .

واشتهر منهم أحمد بن إسماعيل أبو الإمداد ، سبط بنى الوفا . وترجمه الجبرتى بقوله « الجناب الأمجد ، والملاذ الأوحد . علم المجد وناشره ، وجالب متاع الفضل وتاجره ، تولى نقابة الأشراف سنة ١١٦٨ وسار فيهم سيرة مرضية . وقد مدحه عبد الله الإدكاوى بقوله :

قالوا نقابة مصر أودى كفؤها وتسربلت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا ، بل لها الكفء الذى رتب العلا بفخاره قد حفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذاك قلنا أرِّخوا أدبا لأحمدها النقابة زفت

---

(١) الريحانة ص ٣١١ طبع بولاق سنة ١٢٧٣ هـ .

(٢) جـ ١ حوادث سنة ١١٦١ هـ .

ثم تولى مشيخة السجادة الوفائية سنة ١١٧٦ فمدحه الإدكاوى بقوله :

قيل لى هل مدحت آل علىٍّ ... من بهم يكتسى الأديب الشرافه
آل بيت الوفاء من خُصِّصوا بالـ ... ـمجد والفخر والتُّقى والإنافه
قلت ما قدر مدحتى لكرام ... بهم تأمن الأنام المخافه
غير أنى لفرعهم أحمد المجـ ... ـد سأجلو بمنطقى أوصافه
هو بيت الأفضال شمس المعالى ... أوحد الفضل جامعٌ ألطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد ... رٍ خليًّا وما دروا إسعافه
قال أعلى الجدود فى الحال هاتوا ... نجلنا أحمد الزكى العرّافه
قدّموه فقلت فى الحال أرّخ ... جده قد أولاه ركن الخلافه

توفى سنة ١١٨٢ هـ .

* * *

ولعل أشهر أفراد هذا البيت هو : شمس الدين محمد أبو الأنوار . وقد ترجم له الجبرتى(١) ترجمة مطولة نلخصها فيما يلى :

« نادرة عصره ، ووحيد دهره ؛ الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ، ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ؛ سبط بنى الوفاء ، وخليفة السادات الحنفاء ، وشيخ سجادتها ، ومحط رحال سيادتها . وشهرته غنية عن مزيد الإفصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح » .

« تولى خلافة بيتهم سنة ١١٨٢ » .

« ودرس على شيوخ عصره . وكان له اشتغال فى بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية . ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم ، والمناقشة معهم فى النكات واقتناء الكتب من كل فن . كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية ، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن

(١) جـ ٤ ص ١٨٥ — ١٩٧ .

تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار ، بحيث يقضى مرامه من العظيم وجميل الفضل له . ويراسل ويكاتب ويشاحح على أدنى شيء ، ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر . وكذلك دواوين المكوس المبنى على الإجحاف . فكل ما نسب له فيها هو معافى . وكلما طال الأمل زاد المدد ، وخصوصاً إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل كان الأسبق القديم فى أعينهم هو الجليل العظيم . وهم لديه صغار ، لا ينظر إليهم إلا بعين الاحتقار . ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم ، وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عن كل عمل يخل بتعظيم العلم وأهله ، والتباعد عن بنى الدنيا إلا بقدر الضرورة . وخلف بعدهم من هم على خلاف ذلك ، وهم أعاظم مدرسى الوقت فأحدقوا به ، وأكثروا من الترداد عليه وعلى موائده ، وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعاً فى صلاته وجوائزه القليلة ، وحصول الشهرة لهم ، وزوال الخمول ، والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر . وزاد هو أيضاً وجهاً ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلا بسعيهم إليه ، ويزداد كبراً وتيهاً . وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه . ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيلم ثيابه ويقول عند مشاهدته « يا مولاى يا واحد » فيجيبه هو بقوله « يا مولاى يا دائم ، يا على يا حكيم » . فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه . وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه . وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخاطبهم فى أشغاله وهم قيام وانصرفوا ؛ طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم . ولا يجيب فى رد التحية إلا بقوله « خير ، خير » » .

« ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصة مسامريه إلا بانتقاد أهل مصره ، وغيبة غالب أهل عصره . وتنبسط نفسه إلى ذلك ، وإليه يصغى » .

« وفى سنة ١١٩٠ ورد إلى مصر عبد الرازق أفندى رئيس الكتاب ومن أكابر أهل الدولة . فمنحته الدولة بواسطته مائة كيس لإصلاح زاوية أسلافه . وكان معينه فى ذلك الوقت أيضاً الشيخ محمد مرتضى الزبيدى » .

« ثم أرسل وزيره وكتخداه الشيخ إبراهيم السندوبى إلى دار السلطنة بمكاتبات يلتمس فيها رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما فى حوزته من الالتزام من الضرائب التى تدفع إلى الديوان كل سنة . وكان إبراهيم المذكور غاية فى الدهاء والحيل الساسانية ، والتصنعات الشيطانية ، والتخليطات الوهمية ، وتقلبات الملامتية . فتم مرامه بما ابتدعه من المخرقة والإيهامات الملفقة . ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتلب خلاف ذلك فوائد » .

« ولما حضر حسن باشا الجزايرلى سنة ١٢٠٠ هـ وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال وفعل ذلك . فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قائلا له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل ، ورفع الظلم كما تقول ، أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظاً شديداً » .

« وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة . وكذلك مراد بك أودع عند محمد البكرى وديعة . وعلم حسن باشا فأرسل عسكراً إلى السيد البكرى فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده . وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا « إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة ، فلا أسلم ذلك مادام صاحبها على قيد الحياة » . فاشتد غيظ الباشا منه ، وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة انتصاره

للحق . فكان يقول — يعنى حسن باشا — : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى » .

« ولما رحل حسن باشا الجزايرلى عن مصر وعاد الأمر إلى المماليك زادت عندهم مكانته . وآل إليه نظر المشهد الحسينى ، ومشهد السيدة نفيسة والسيدة زينب وباقى الأضرحة الكثيرة الإيراد . وأخذ يتشدد مع القائمين على هذه الأضرحة فى تحصيل أموالها ، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجريد المحمى على أرجلهم »

« وكانت مساكنه مطلة على بركة الفيل . وبها قاعة كبرى تسمى « أم الأفراح » مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها، والرخام الملون . وبها الفسقية والسبيل والقمريات الملونة . فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش ، وعمل بها فسقية بالرخام ، وسماها الأنوارية ، نسبة إلى كنيته وأمامها فسحة عظيمة . وأنشأ بجوار بيته مسجدا ليصلى فيه وذلك لبعد المساجد الجامعة عن داره . وتعاظمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامة . وأنشأ بستانا كبيرا ، وغرس به الأشجار والرياحين والثمار . وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة »

« وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج والحضور بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور فى مجلس وردهم الذى هو محل عزهم . وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء، وبعدا عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين »

« ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه ، والذين كان يستحى منهم ويهابهم

وتقلبت عليه الأحوال ، واندرجت أكابر الأمراء ، وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدى مخاديمهم ، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم ، لا جرم كانت هيبته فى قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغاره هو لهم كذلك . فكان يصدعهم بالكلام ، وينفذ أمره فيهم ، ويذكر الأمير الكبير بقوله « ولدنا الأمير فلان » وحوائجه عندهم مقضية ، وكلامه مسموع ، وشفاعته مقبولة ، وأوامره نافذة فيهم وفى حواشيهم وحريماتهم »

«واتفق أن بعض أعاظم المباشرين من الأقباط توقف معه فى أمر، فأحضره ولعنه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد . ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلد . ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به ، قال للحاضرين : «وماذا تريدون أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ؟! فرحم الله عظامهم»

« واتفق أن جماعة من أولاد البلد ووجهائها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصحابهم ، وتبسطوا فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر ، فوشى المترجم ونقل له أنهم أدرجوه فى سخريتهم . فأحضرهم واحدا بعد واحد وعزّرهم بالضرب والإهانة »

« فكان من حين إلى حين يقع فى بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس . وكذلك فلاحو الحصص التى حازها والتزم بها ، فإنه زاد فى خراجهم عن شركائه ، وفرض عليهم زيادات كان يحبسهم عليها شهورا ؛ ويضربهم بالكرابيج . وبالجملة فقد قلب الموضوع ، وغير الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد ، وولاية واعتقاد ، صار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة ، ويتحاماه الناس من جميع الأجناس . وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه فى شىء ، بل يوافقونه ولا يتكلمون معه إلا بميزان وملاحظة الأركان . ويتأدبون معه فى رد الجواب ، وحذف كاف الخطاب ، ونقل الضمائر عن وضعها فى غالب الألفاظ ، بل حتى فى الآثار المروية ، والأحاديث النبوية . وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات ، والوصف بالمناقب الجليلة ، والأوصاف الجميلة ، حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشىء خطبا يخطب بها

يوم الجمعة التى يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسينى ، وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم فى المترجم ، والتوسل به فى كشف المهمات وتفريج الكروب ، وغفران الذنوب ، حتى إنى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : « لم يبق على الخطيب إلا أن يقول[1] اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات ! ! »

* * *

ولما دخل الفرنسيون مصر كانت للمترجم بعض المواقف المشرفة التى تحمل بسببها كثيرا من الأذى . فقد حدث أن قبض بونابرته على ابن القاضى التركى وحبسه فى القلعة . فتشفع المشايخ عند بونابرته ليطلق سراحه . وكان السادات حاضرا فضم صوته إلى صوت العلماء وأضاف[2] قائلا :

« إنكم تقولون دائما إن الفرنساوية أحباب العثمانية . وهذا ابن القاضى من طرف العثمانلى . فهذا الفعل مما يسىء الظن بالفرنساوية ، ويكذب قولهم وخصوصا عند العامة » فغضب بونابرته من كلام السادات واستدعاه إلى مجلسه وعاتبه ولامه . وحجزه مدة من الليل ، وأخيراً أطلق سراحه وأمره بالانصراف إلى منزله .

ولما نشبت المعارك بين الفرنسيين والجيش العثمانى ، ودخل العثمانيون القاهرة وشرعوا فى الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم ؛ كتب السادات إلى عثمان كتخدا الدولة الرسالة الآتية :

حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير . وما هى من الظالمين ببعيد .

---

(١) الجبرتى ٤ / ١٩٢

(٢) الجبرتى ٣ / ١٠٣

ظننتُ أنك عُدّتى أسطو بها ويدى إذا اشتد الزمان وساعدى
فرُميت منك بغير ما أملتــه والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد ، فقد نقضت عهدى ، وتركت مودة آل جدى . وأطعت الظلمة السفلة ، وامتثلت أمر المارقين الثفلة ، فأعنتهم على البغى والجور ، وسارعت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور ؛ من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى والفقير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات . فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى . فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب . فلذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا » .

« كيف لا ، وأكابرهم أضمرت السوء للمرتزقة فى تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم ، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم . وقد أخفتم البلد بعد أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها . ثم فررتم فرار الفيران من السنور ، وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور . فواغوثاه ! واغوثاه ! أغثنا ياغياث المستغيثين ، واحكم بعدلك ياأحكم الحاكمين ، وانصرنا وانتصر لنا ، فإننا عبيدك الضعفاء المظلومون ، ياأرحم الراحمين » .

هذه الرسالة كتبت عقب انهزام المصريين فى الوقائع التى جرت بينهم وبين الفرنسيين فى مدينة القاهرة ، والتى خرب بسببها معظم أحياء المدينة . وقد أرغم الأهالى شيخ السادات على أن ينفق على جانب كبير من المجاهدين . فلما انتصر الفرنسيون فرضوا غرامات على سكان القاهرة ، وفرضوا على شيخ السادات ٥٣٥ ألف فرنك .

فذهب إلى داره وصحبه بعض الجنود الفرنسيين لحراسته حتى لا يهرب ، ثم اعتقلوه فى القلعة وكان فى نيتهم قتله ، فشفع فيه عثمان بك البرديسى . واعتقلوا فراشه ومقدمه . وحبسوه فى حجرة مظلمة فكان ينام على التراب ،

ويتوسد حجرا . وضربوه ضرباً مبرحا يومين متتابعين . ثم أنزلوه إلى داره في حراسة شديدة . وكان لديه عشرة آلاف ريال فدفعها للفرنسيين . ثم باع بعض أمتعته ولكن هذا لم يف بالمطلوب . فرجعوا به إلى معتقل القلعة ماشيا وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ، ومثلها في الليل . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما . فأحضروا محمد السندوبي تابعه وعذبوه حتى عاين الموت ، فعرفهم بمكانها ، فجاءوا بها وحبسوها معه ، وكانوا يضربونه في وجودها وهي تبكي وتصيح . ثم تشفع المشايخ في نقلها من عنده ، فنقلوها وبقي الشيخ على حاله . وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا .

ولما قتل كليبر وخلفه مينو سنة ١٢١٥ هـ أفرج عن شيخ السادات فرجع إلى بيته بعد أن دفع ماسبق أن تقرر عليه ، واستولى الفرنسيون على ضياعه وأوقافه التي كان متنظراً عليها ، وحرموه من مرتباته ، وأمروه بعدم الاجتماع بالناس . وألا يخرج من بيته دون إذن منهم ، كما أمروه بالاقتصاد في أموره ومعاشه ، وأن يقلل من أتباعه .

* * *

وكان السادات[١] الوفائية يتشبهون بالملوك فيخلعون على أتباعهم الكنى والألقاب مثل أبي الفوز ، وأبي التداني ، وأبي الإقبال ، وأبي العزم . وكانت لهم مواسم خاصة يحتفلون بها وهي :

(١) الميعاد (٢) مولد المحرم (٣) مولد الحسين (٤) ٢٧ رمضان ، وفيه يمنح شيخ السادات أتباعه ومريديه الكنى .

والطريقة الوفائية التي تنسب إلى مؤسس هذا البيت هي شعبة من الطريقة

---

(١) انظر بيت السادات الوفائية تأليف توفيق البكري ص ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٤ ، ٩٥ طبع القاهرة .

الشاذلية ولهذه الطريقة حزب مشهور هو حزب الفتح ، يقرأ فى بيت الشيخ كل أسبوع . ولها خرقة صوفية خاصة . ولشيخ السجادة تاج خاص يلبسه فى المواسم والأعياد .

أما الزوايا التى تتبعهم فهى :

١ ـ زاوية الرباط وهى بناحية الخرنفش . وكانت العادة قديما أن من يتولى مشيخة السجادة الوفائية يتوجه إليها ويمضى بعض الوقت فى قاعة خاصة تسمى « قاعة التجلى » حيث تحل فيه الأسرار الإلهية ، كما يزعمون ، ثم يخرج فى موكب حافل إلى مسجد الحسين .

٢ ـ الزاوية الكبرى وهى شرقى الإمام الشافعى ، وقد هدمت فى عهد الوالى العثمانى عزت محمد باشا سنة ١١٩١ وبنى فى موضعها مسجد ضخم فخم بأمر السلطان عبد الحميد الأول

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا إذا دخلوا على شيخ السادات قالوا « يامولاى ، ياواحد » فيرد عليهم بقوله « يامولاى يادائم ، ياعلى ياحكيم » والآن نريد أن نعرف السر فى اختيار هذه العبارات دون سواها ، وقد وفر علينا مشقة البحث أحد شعراء السادات حيث قال :

جعلت مدحك يامولاى أورادا ياواحد العصر يامن بالتقى سادا
قل ياعلىّ تجده ناصرا أبدا يا دائم السر آباء وأجدادا
وإن يقل قائل ماأصل خيرتها من دون الأسماء للأستاذ أورادا
فكل لفظ أتى قطب الوفاء به يدريه محترزا من كان نقادا
إذ كل من ذكر اسما فى تضرعه لله يطلب معنى مابه نادى
فاختار أسماء مولى مابها طلب لأنه فاق أنجابا وزهادا
لاخوف نار ولا فى جنة طمعا بل يرتجى قربه لم يبغ إبعادا

أعلى المقامات فى التعبيد عندهمو ... يافوز من كان للرحمن عبادا
وشيخنا القطب فوز الأولياء له ... أعلى المراتب تسليكا وإرشادا
ورب عبد غدا رقا لطائفة ... فقال بل واحد ما رمت إلحادا
لا جزء فىّ لغير الله يملكه ... وفيه رد على من رام تمدادا
وأنه كرر المولى للذته ... بكونه لمقام العبد قد عادا
فيه دليل على إثبات رتبته ... قطبا إلى أن وفى للحور ميعادا
أو واحدا كان لكن لا دوام له ... فقال بل دائم جودا وإمدادا
ودائم لا زوال وهو قابله ... فقال لا ، بل على والسوى بادا
ومن تكن هذه الأوصاف فيه فقل ... هو الحكيم وقد وفيت إيرادا
أمر الحكيم مطاع لا خلاف له ... سلم تجد منه إيجاداً وإنجادا
وكل شىء ففيه حكمة بلغت ... فضلا وعدلا وإعداما وإيجادا

فالشاعر يقول إن الناس إذا ذكروا الله ذكروه بأسماء وصفات تعبر عما تنطوى عليه نفوسهم من رغبة أو رهبة . أما شيخ السادات فإنه اختار اسما لا يدل على رغبة فى شىء من الأشياء لأنه زاهد إلى أبعد حدود الزهد ، ولا يدل على خوف من النار أو طمع فى الجنة • وكل مايجول بخاطره هو أن يتقرب إلى الله ، وهذه أعلى مقامات العبادة . وقول شيخ السادات « ياواحد » تأكيد منه لوحدانية الله ، وأنه لايشرك به أحدا ، وإقرار منه بالعبودية • ولكن قد يفهم من الواحد أنه لادوام له ، فلذلك أكد دوام الله بقوله « يادائم » ثم رفع من شأن الله بقوله (ياعلى) ومن كانت هذه صفاته فهو حكيم ، والحكمة ظاهرة فى كل مايصدر عن الله وهو مطاع يجب أن نسلم إليه أمورنا

هذه هى الأفكار التى من أجلها اتخذ شيخ السادات شعاره السالف الذكر فى تحية الناس له ، وفى رده عليهم

وقد ردد شعراء السادات هذه العبارات فى شعرهم • مثال ذلك قول أحدهم

قمت في حضرته مبتهــلا فعسى أبلغ من قصدى المراما
قلت يا مولاى يا واحــد فى وصفه يا دائم الفضــل دواما
يا على الشأن عن درك السِّوَى يا حكيما أحكم الأمر احتكاما

* * *

وقد مر بنا أن شعراء مصر اجتمعوا حول شــيخ السادات محمد أبي الأنوار ومدحوه بقصائد كثيرة . وقد جمع الحسن البدرى العوضى جانباً كبيراً من هذه القصائد فى كتاب اسمه « اللوائح الأنوارية » والآن نريد أن نلقى نظرة طويلة على هذه المجموعة من الشعر لنرى ما فيها من الأفــكار التى يمكن أن تضاف إلى خصائص المدرسة العلوية .

فهذا شاعر يقول من قصيدة فى مدح أبى الأنوار :

الجوهر الفرد الذى بوجوده أنس الزمان وبهجة الأقطار
محيى رباع الفضل بعــد تهــدُّم مُروِى رياض المجد بعد بوار
قطب الوجود إمام كل موحد سعد السعود نتيجة الأعصار
ملك تدين له الملوك وسيد ورث العــــلا عن سادة أطهار
الله توجه بتاج جــــلالة وكساه حــــلة هيبة ووقار
فانزل بواديه المقدس إنه مَجــلَى السرور ومنبع الأسرار

فالشاعر يقول إن شيخ السادات هو الجوهر الفرد . والشيعة يطلقون الجوهر الفرد على الحقيقة المحمدية .

وشيخ السادات أحيا رباع الفضل بعدما درست معالمها ، وعفت آثارها . وهو الذى أعاد للمجد رونقه وبهاءه .

وهو قطب الوجود ، وإمام كل موحد . وهنا تظهر النظرية الشيعية فى

الإمامة والإمام . فشيخ السادات الذى هو رئيس البيت العلوى فى مصر ، هو إمام المسلمين وهو الذى يجب أن يسمع له المسلمون ويطيعوا .

وإنك لتجد هذه الفكرة — أى فكرة الإمامة — أو على وجه أدق إمامة شيخ السادات واردة فى كل ما مدح به من الشعر . مثال ذلك قول أحدهم :

وعش زينة للدهر إنك روحه ... فما دمت لايفنى الزمان ولا يُمحَى
وإنك للدين القويم ابتهاجه ... وإنك منهاج الحنيفية السمحا
وإنك للإسلام أعظم ناصر ... فواليته وُدّا وأوليته نصحا
وإنك كهف المسلمين وركنهم ... وملجأهم فى كل نائبة قبحا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة ... أزلت لهم عن كل مشكلة جنحا

فشيخ السادات هو روح الدهر ، وقرة عين الدين الذى أدخل عليه البهجة والسرور . وهو منهاج الحنيفية ، وحارس الإسلام والمسلمين . وقد جعله الله رحمة للعالمين .

وقال آخر :

وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة ... تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السند الهمام المجتبى ... صدر الصدور المنتقَى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل ... أبداً على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به ... الآية الكبرى لمن يختار
كَنّاه مولاه أبا الأنوار إذ ... من نوره تتولد الأنوار
وَلاّه مولاه خلافة آله ... فلنا به شرف لها وفخار
بعلاه آمنّا فمن يؤمن ينل ... عدنا ونار لظى لها الكفار
يا صفوة الرحمن من أقرانه ... يا من له نعم علىّ غزار

فالله اختار شيخ السادات لرتبة الإمامة . فهو الإمام المصطفى الذى اجتباه ربه . وهو الحقيقة المحمدية ، لا نظير له ولا شبيه . وهو العروة الوثقى والآية الكبرى ، والسراج المنير الذى يهدى الناس بضيائه . وهو مشرق الأنوار ، من آمن به فقد فاز بجنات عدن ، ومن كفر فجهنم مقره ومثواه .

وقال آخر :

أنعم بها من روضة مأنوسة ... محفوفة بطوالع الأنوار
أحيا مآثرها الإمام المرتضى ... صدر الصدور ومطمع الأنظار

وقال آخر :

وأتى أبو الأنوار وارث مجدهم ... عز البرية فخرها وإمامها

وقال آخر :

يا ابن الأماجد يا إما ... م المؤمنين فتى وكهلا

فشيخ السادات هو الإمام المرتضى الذى ارتضاه الله واختاره . وهو إمام المؤمنين فتى وكهلا ، لأنه ورث الإمامة عن آبائه .

وانظر إلى قول أحدهم :

الغياث الغياث يا ابن النبىِّ ... من عدو وحاسد وغبىِّ
فعدوى يحرف القول عمداً ... وهو خصمى وليس بالمرضىّ
وحسودى الكذوب لاشك مغرى ... من خبيث من فتية الأموىّ

ومنها :

هو نجل السادات آل وفاء ... كرم الله وجههم بعلىّ
آلُ بيت مُبَرَّأون من الرجـ ... ـس بنصّ فى المحكم العربىّ
ملجأ اللائذين غوث البرايا ... مأمن الخائفين من كل شىّ
يا إمام التحقيق فى كل فن ... يا مفيد العلوم يا ابن الوصىّ

أنت حقا باب المدينـة للعلـ ـم بحـكم الوراثة الشرعى

فالآراء الشيعية ظاهرة فى هذه القصيدة ظهورا لاخفاء معه . ففى الأبيات الأولى نجد تعريضا بالذين قعدوا عن نصرة الإمام على ، وتعريضا بالأمويين. وفى الأبيات الأخيرة نجد مدحاً لآل السادات الذين هم من ذرية الإمام على . وقد طهرهم الله من كل رجس كما نص على ذلك القرآن الـكريم . وهم ملجـأ اللائذين ، ومأمن الخائفين . وشيخهم الإمام ابن الوصى ، وهو باب المدينة للعلم ، وهذا إشارة إلى الحديث الذى يرويه الشيعة وهو « أنا مدينة العـلم وعلى بابها » والشاعر يقول إن شيخ السادات ورث العلم عن على ، أى أن العلم انتقل فى ذريته إلى أن تسلمه شيخ السادات الإمام المرتضى . والوصية التى ذكرها الشاعر هى الأساس الذى قامت عليه التعاليم الشيعية .

وقال الخشاب :

لو يستطيع لجوده أغنى الورى والعالم العلوى من آلائه
خلف النبى محمد ووصيه نور السراة الغرّ من أبنائه
لو كان فى عهد النبى وُجوده أمسى مع السبطين تحت عبائه
شهم عليـه الله فى تنزيله أثنى فأعيا اللسنَ حسنُ ثنائه

فالخشاب يقول فى البيت الأخير إن الله مدح شيخ السادات فى القرآن الكريم . وهكذا يقول الشيعة فى الأئمة . انظر إلى قول ابن هانىء الأندلسى فى المعز لدين الله الفاطمى :

شهدت بمفخرك السـموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا

فالقرآن الكريم مدح أهل البيت حين وصفهم بالطهر والبراءة من الرجس. والخشاب يؤمن بنظرية الشيعة فى الوصية ، ويقول إن أبا الأنوار هو الوصى ولو أنه كان موجودا فى عصر النبى عليه السلام لأدخله مع الحسن والحسين تحت عبائه . وقد سبقت الإشارة إلى قصة العباءة .

وانظر إلى قول محمد بن شبانة :

لبنى الوفا فى الكون أعلى رتبة بعد النبى وصحبه الأبرار
ورثوا السيادة عن على جدهم باب المدينة قاتل الكفار
هذا هو النسب الذى يعلو على كيوان والبدر المنير السارى
كالشمس فى أفق السماء ونورها نفع الأنام وبهجة الأعصار
من مثلهم والعلم ميراث لهم كالجد حيدرة الرضا الكرار
فهو الخيار بنو الخيار وجدهم فخر العلاء وأصل كل فخار
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم سلمت عقيدته من الأوزار

ففى هذه الأبيات نجد محمد بن شبانة يردد الأفكار التى مرت بنا من القول بوراثة آل السادات للإمام على ، والإشارة إلى حديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وغير ذلك من المميزات التى انفردوا بها ، وأن من أحبهم سلمت عقيدته وصح إيمانه .

* * *

وشيخ السادات هو المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . قال أحد الشعراء :

إذا لم يك المهدى هذا تيقنوا ببطلان ما قد يزعمون فلا مهدى

فإن لم يكن أبو الأنوار هو المهدى الذى ينتظره الناس فلا مهدى إذن على الإطلاق .

وانظر إلى قول عبد الرحمن الصفاقسى :

وقد بلغت آمالكم سورة الضحى وأوصافكم فى سورة الفيل تذكر
إذا جاء نصر الله تبت يد العدى وقابلها الخذلان من حيث تنصر
وتبقى لهذا الدين كهفاً وملجأ ورداً به الإسلام يعلو ويظهر

وتبتهج الأيام بالعدل والهدى ... وتصبح أهل الفضل بالفضل تفخر
ويصبح داعى النصر فى كل موطن ... ينادى على الكفار الله أكبر
هنالك يعلو ديننا بمحمد ... على دين إبراهيم بالنسخ يظهر
سلالة خير الخلق من آل هاشم ... ومن هو للسر الوفائى مظهر
فقم يا أبا الأنوار لله حسبة ... فإنك فى كل الأمور المظفر
وكن واثقاً بالله معتصما به ... على ثقة بالفوز والله ينصر
فإنك داعى الحق والحق دامغ ... لباطلهم وهو الزهوق المتبرُ
وإنك مهدى الزمان فلا تدع ... بعصرك شيئاً ماله الشرع ينكر
فلا زلت بالمعروف والخير آمرا ... وتنهى عن الفعل القبيح وتزجر

ففى هذه القصيدة ترى فكرة مهدوية محمد أبى الأنوار واضحة وضوحاً تاما. وقد أشار الشاعر إلى ماورد فى سورة الضحى من خطاب الله للنبى عليه السلام بأنه ماودعه وما قلاه . وأنه سيعطيه عطاء يرضى معه . وقال إن موقف محمد أبى الأنوار يشبه موقف النبى محمد فى هذه السورة ، أى أن الله سيعطيه مايرضيه كل الرضا ، فى حين أن خصومه ومنكرى مهديته سيهلكهم الله كما أهلك أصحاب الفيل ، وسينصره نصراً عزيزا مؤزرا ، فيعلو به الدين، ويملأ الدنيا عدلا وهداية . ثم التفت الشاعر إلى شيخ السادات وأخذ يحرضه على القيام للجهاد فى سبيل الدين ، فهو داعى الحق ، ومهدى الزمان ، الآمر بالمعروف الناهى عن الفحشاء والمنكر .

وهذا شاعر آخر يقول إن شيخ السادات هو الإمام المعصوم :

الإمام الهمام ذو المجد والقد ... ر الرفيع ذو الآيات

وعصمة الأئمة من النظريات الشيعية المشهورة .

ومن زار شيخ السادات فكأنما زار النبى صلى الله عليه وسلم . قال أحد الشعراء :

لازم أبا الأنوار تحس بعيشة منه هنيئه
ابن النبى فكل من وافاه قد وافى نبيئه

وشيخ السادات هو روح الله . قال أحدهم :

شمس الشموس وسر مرآة السنا روح الإله المنتقى من وهبه
جمعت له متفرق الفضل الذى للأولياء عناية من ربه

وقال مرتضى الزبيدى :

هو روح الإله فى كل مجلى هو تاج الجمال والعلياء

وكثيرا ما شبهوا شيخ السادات بالنبى محمد عليه السلام . من ذلك قول أحدهم :

رقيت سمى المصطفى وابن سبطه مراتب عز قد غدا فضلها جما
تبوأت منها رغم شانيك منصبا مكان رسول الله فى هاشم قدما

أو يذكرون اسمه كما يذكر اسم النبى محمد . مثال ذلك قول أحدهم :

سريرته كسيرته وأسنى فيا حسناه إذ يعنى ويقصد
فذاك السيد السند المفدى أبو الأنوار سيدنا محمد

وقول الآخر :

ألا إن حزب الله حزب محمد ومن ذا لحزب الله فى الخلق يغلب

وتظهر فى هذا الشعر روح التعصب لآل على وتفضيلهم على من سواهم ، من ذلك قول الشاعر :

من قال من خير الورى من آخر وأول
أجبته مؤرخا خير الورى آل على

وقول الآخر :

أقول لمن ضاهى وسيع رحابهم رحاب على لا يضاهيه مرحب

وشيخ السادات يعلم الغيب . قال الخشاب :

له قلم بعلم الغيب يجرى   وبالأرزاق والقدر المتاح

وزيارة شيخ السادات فريضة كالحج بل أكثر . قال أحد الشعراء :

فلبيته سعى الأفاضل عندهم   فرض كفرض الحج فى عرفات
والحج مفروض علينا مرة   ولبيتهم عدد من الكرات

والعلوية ظاهرة ظهورا تاما فى قول الشاعر :

أبنا على والجبير بمدحهم   فى محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التى فى نوعنا   زهر بنفح الطيب ساد تمامه
ونتيجة السادات درة عقدهم   ومحمد بدء له وختامه

* * *

وفى الشعر العلوى نجد كثيرا من الصور الدينية كالحج والطواف والسعى والوقوف بعرفات وغير ذلك . قال أحد الشعراء :

يا خير من حجت إليه ركائب الـ   ـفضلا تقبل ركنه المحروسا
وتراهمو يسعون فى مرواته   وصفاه لا يلقون منه عبوسا
يقفون فى عرفات واسع فضله   متأزرين من الخشوع لبوسا
بحماك حط مفتت الأكباد من   شط الديار وقد أناخ العيسا
تهنا بعيد الفطر جاءك زائرا   فقريته التسبيح والتقديسا
أرضيت ربك فى قنوتك ليله   وأغظت فى أيامه إبليسا

وقال محمد بن شبانه :

مولى إذا حضر الأفاضل عنده   نزلوا نزول الحج فى عرفات
يرجون غفران الذنوب جميعها   من أكبر الآثام والتبعات

وهنا نجد وجه شبه كبير بين هذه المدائح وبين المدائح التى كان ينظمها

الشعراء فى الخلفاء والأئمة ، وبخاصة أنها كانت تقال فى عيد الفطر أو عيد الأضحى كما كانت الحال مع الخلفاء .

وتكثر فى الشعر العلوى الإشارة إلى الآيات القرآنية والاقتباس منها، مثال ذلك قول القائل :

هذا أبو الأنوار من أنواره   أضحت لأسرار الحقيقة ترشد
ضرب الإله بها المثال لنوره   فى الذكر من زيتونة تتوقد

وقول الآخر :

له فى العالمين لسان صـدق   وحسن لقائه والله يحمد
له قدم صدوق فى المعالى   ومن مثل ابن خير الخلق مسعد
ومن يرجوه أو يأوى إليه   فقد آوى إلى ركن مشيد

وقال آخر :

فصل له شكرا وقم وانحر الفدا   وكبر على الأعدا فشانيك أبتر
وقد زلزلوا بالعاديات وأهلكوا   بقارعة فيها مع الصرصر صر
وألهاهمو بالعصر ويل لخسرهم   وأحوالهم فى سورة الفيل تذكر

والأمثلة على ذلك كثيرة .

* * *

وكان الشعراء فى مدائحهم لشيخ السادت ينظرون إلى ما نظم فى الخلفاء والأئمة ، ويأتون بما سبقوا إليه من المعانى والصور فى هذا الباب .

مثال ذلك قول أحدهم :

وأتى الخلافة بل أتتـه   وما لهـا عنه مفر

وهذا من المعانى القديمة . وانظر إلى قول السفاقسى :

هل تفكون أسيرا من قياد   أو تجيرون صديقا من معادى ؟
أو توالون محبا صادقا   وده فى كل يوم فى ازدياد ؟

أو تراعون حقوقا أوجبت   أن تراعى حقها أهل الوداد ؟
يابنى السادات قوموا سرعة   وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد
ياكرام الحى فاحموا حوزتى   وامسحوا عن ناظرى كحل السهاد
أنتمو القوم الأولى عاداتهم   نصرة العانى وإسداء الأيادى
مبتغى العافين فى يوم الندا   ملجأ العاصين فى يوم المعاد
يا أبا الأنوار من أنواره   أشرقت فى كل أرجاء بهادى
ياسمى المصطفى خير الورى   ياسليل السادة الشم الجياد
ياولى العهد من بعدهمو   ياعهاد الخير من قبل العهاد

إن هذا الشاعر قلد ابن هانىء الأندلسى فى قصيدته التى مطلعها :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد   وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

بل إنه سطا على كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه . والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد سلكوا مسلك القدماء فى الغلو فى المدح . مثال ذلك قول أحدهم

سادوا الأنام فلقبوا سادتها   من قبل ماذرء الإله نفوسا

وقول الآخر :

فالناس بالتحميد شرف قدرها   والله باسمك شرف التحميدا

وقول غيره :

جلت مواهبه وحارت فى مناقبه الفكر

* * *

وشيخ السادات هو الأمين على سر الرسول . قال أحدهم :

وهو الأمين على سر الرسول ومن   سواه من سره زهر المنى اقتطفا

تثنى عليه بقاع الأرض أجمعها وكل حى صفى ذكره ألفا

وحب آل السادات هو الإسلام، وهو الدين الصحيح، والمعتقد الحق الذى يؤدى إلى الجنة. وسواه باطل يذهب بصاحبه إلى النار. قال أحدهم:

فهواهمو دينى وعقد ولأنى لست عنه أحول دنيا وأخرى

وقال آخر:

آل طه ذخيرتى للمدح فيكم وأرى حبكم هو الإسلام
مذ أتانا إلا المودة تتلى فهو فينا بفضلكم إعلام

وقال آخر:

من الذين إله العرش طهرهم ومن أحبهمو لن يدخل النارا

وآل السادات أمان الخائفين. قال أحدهم:

همو الأمان إذا جار الزمان وإن حار الأنام همو السادات آل وفا

* * *

وامتازت مدائح الشعراء لشيخ السادات بالإشادة بكرمه المفرط الذى أزرى بكرم حاتم وغيره. قال أحدهم:

أغنى عن الإكسير جابر فضله وكفى ذويه الحل والتكليسا
هذا هو الإكسير لو يلقى على زحل الفقير أعاده برجيسا
أحيا بغيث نواله أرض العطا فربت وأصبح روضها مأنوسا

وقال آخر:

يهب الجزيل إلى النزيل ويحتمى بجواره العافى من الأضرار
غيث وغوث لايضام نزيله كفل الملا بمحامد الآثار

وقال غيره:

أغنى ذوى الفاقات من كف لها التقبيل عاده
وسقاهمو من راحة سلمت ودامت فى الزياده
فيها العطاء سجية ولحاتم منها استفاده

وقال آخر :

بحر إذا ذكرت مآثر جوده لا حاتم يبقى ولا همامها

وقال غيره :

وبجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منازل وديار

* * *

وامتازت هذه المدائح كذلك بالإفراط فى الإشادة بعظمة شيخ السادات وقوة بأسه وهيبته . مثال ذلك قول أحدهم :

خرت لسؤدده الأذقان ساجدة وطاع عن علاه اللين والشرسُ

وقال آخر :

لولا انحصار الملك فيكم لم تكن فى بابكم كل الملوك عبيدا

وقال آخر :

تطوف الملوك بأعتابه وتسعى لحرمة إجلاله

وقال غيره :

إذا قابلته ملوك الورى تخر لهيبته ساجده

* * *

وظهرت فى بعض هذه المدائح آثار البيئة المصرية . مثال ذلك قول القائل :

علت على غيرها أقطار مصر به فخراً وإشراقها بابن النبى جلى

وقال غيره :

إذا شبهوا فى مصر فضلك بالسوى لقد جهلوا والله عزة مقدارك

وقال غيره :

لوجودهم فى مصر أوفى نعمة عمت على البلدان والأمصار

سور على مصر رفيع مانع　　خدمت علاه موانع الأسوار

وقال غيره :

أنارت به مصر السعيدة وازدهت　　وأصبح فيهـــا للعفاة مقيل

وقال غيره :

وهم روح مصر وقطب رحاها　　وبهم تم فخرها والنظـــام

وقال آخر :

عج بالمطى إلى حمى حرم لهم　　من حله ما مسه إضرار
عـرج على سفح المقطم نحوهم　　تر مشهداً سطعت به الأنوار
هو مشهد قد شوهدت أسراره　　وتعطرت بعبيره الأقطـــار
هو كعبة طافت بها أهل النهى　　وسعت إليها بالصفا الزوار

وقال غيره :

والنيـــل فى طاعاته　　مهما نهى مهما أمر

وقال غيره :

أرى علماً جارا لهم وأظنه　　بأقطابهم قالوا عليه المقـطـب
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم　　فقال السها قـصر لأنى أقرب

المقطب أى المقطم

* * *

وقد بقيت المدرسة العلوية وستبقى ما بقى حب الناس لآل البيت . حقيقة إن مدائح الشعراء لآل السادات قد اختفت منذ أمد بعيد لأن هذا البيت قد فقد مركزه الأدبى ، ولكن الشعراء ما زالوا ينظمون القصائد فى بعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .

ويمتاز شعر هذه المدرسة بصدق العاطفة ، وهو عنصر أساسى من عناصر الإجادة . كما يمتاز بكثرة الإشارة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والاقتباس منهما وبنوع خاص الآيات والأحاديث التى تمجد آل على وتقدسهم وترفع شأنهم ، وتثبت حقهم فى الإمامة . كما تمتاز المدرسة العلوية بكثرة نتاجها وجودته وبعده عن الصناعة اللفظية . وكان هدفها أولا التوسل بأصحاب الأضرحة من آل البيت والانتفاع بكراماتهم فى تحقيق الآمال ، والفوز ببركاتهم ، والتقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمدح آل بيته . وهذا الهدف ما زال قائماً إلى يومنا هذا .

وأما الهدف الثانى وهو نشر التعاليم الشيعية التى تحصر الإمامة فى أبناء على فلم يظهر بوضوح إلا فى زمن الشيخ محمد أبى الأنوار . وذلك لأنه كان على جانب كبير من الثروة والجاه والنفوذ . وربما كانت له مطامع سياسية كان يحلم بتحقيقها . فقد رأينا بعض الشعراء يخلعون عليه لقب « المهدى المنتظر » الذى سيملأ الدنيا عدلا ورحمة بعد أن ملئت جوراً وقسوة . ويبدو أن الرجل كان على شىء من الاستعداد للقيام بدور سياسى. فقد وقف مواقف مشرفة من حسن باشا الجزايرلى فى موضوع أموال إبراهيم بك . ومن بونابرت فى موضوع ابن القاضى التركى . وفى الرسالة الشديدة اللهجة التى بعث بها إلى عثمان كتخدا الدولة . وفى انضمامه إلى الشعب فى ثورته ضد الفرنسيين ، وفى إنفاقه الأموال الكثيرة على المجاهدين .

وربما كان حرصه على جمع الأموال والإكثار من العبيد والمماليك يخفى وراءه غرضاً بعيداً ؛ وهو الرغبة فى الاستيلاء على مقاليد الحكم . وقد سخر الشعراء والأدباء ، ومنهم مرتضى الزبيدى ذو الكلمة المسموعة ؛ لنشر الدعوة لحكومة علوية ، وتمهيد الأذهان لقبول تلك الحكومة وتأييدها ، وتعريف الناس بحقوق آل على فى الإمامة ، وعلى ضوء هذا

نستطيع أن نفهم قول الجبرتى « ... وصار يلبس قاووقاً بعمامة خضراء تشبهاً بأكابر الأمراء ، وبعداً عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين » ، وقد كانت أحوال الدولة العثمانية فى ذلك الوقت مضطربة كل الاضطراب ، والثورات تعصف بها ، والحركة الوهابية على أشدها . أضف إلى ما تقدم أن نفوذها فى مصر كان قد تلاشى تماماً فى تلك الفترة . وكان أمراء المماليك يهابونه ويخضعون لأوامره خضوعاً تاماً . ولكن قدوم الحملة الفرنسية وما تلاها من الحوادث التى انتهت بتولى محمد على حكم مصر قد قطع عليه أحلامه ، وسدّ كل طريق أمامه .

* * *

وامتازت مدائح السادات خاصة بوجود شبه بينها وبين ما كان يقال فى الخلفاء والأئمة . ولا شك فى أن بيت السادات قد وجه الشعر فى فترة معينة وجهة خاصة من شأنها أن ترفع من مقام العلويين ، وتعيد إلى الأذهان ما كان ينظم فى زعمائهم وأقطابهم .

وينبغى أن نلاحظ أن المدرسة البكرية لم يكن لها نظير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فى حين أن المدرسة العلوية كان لها أمثال فى بقاع كثيرة حيثما وجد أشراف ينتمون إلى آل البيت . وبعبارة أدق إن شيخ البكريين لم يكن له منافس فى حين أن شيخ السادات كان له منافسون أقوياء فى كل مكان تقريباً . ولذلك فزعامته كانت محلية . وينبغى أن نعلم أن محمد أبا الأنوار ظهر فى وقت كان فيه شيوخ البكريين قد وصلوا إلى حالة شديدة من الضعف والتخاذل ، فلم تكن لهم تلك الهيبة التى تمتع بها أجدادهم منذ أوائل الفتح العثمانى إلى نهاية القرن الحادى عشر .

وقد توفى الشيخ محمد أبو الأنوار فى أوائل حكم محمد على . وكانت الدولة العثمانية قد عوضته عن خسائره الكثيرة التى لحقته خلال الاحتلال الفرنسى ، فاستعاد ثروته فى مدة وجيزة : ولما مات وضع محمد على يده على تلك الثروة ، ولم يترك شيئاً لورثته ، لا من الأموال الطائلة ، ولا من الأطيان .

وإلى هنا ينتهى الكلام على المدرسة العلوية .

الفصل الرابع

المدرسة الأميرية

سندرس فى هذا الفصل الشعر الذى قيل فى السلاطين والأمراء، والولاة والحكام وأصحاب النفوذ والجاه من مدح أو هجاء أو رثاء، محاولين أن نتبين مدى العلاقة بين هذا الشعر وبين المصلحة الشعبية، وموقف الشعراء من هذه الناحية.

والملاحظ أن الشعراء المصريين كانوا قبيل الفتح العثمانى ينطقون بلسان الشعب إلى حد كبير. فقد عرضوا بالسلطان الغورى لظلمه وعسفه. مثال ذلك قول ابن إياس:

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا فوق مالا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق

وقوله:

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعيا
وصار فى ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا(١)

وقوله:

سلطاننا الغورى غارت عينه لما اشترى ظلم العباد بدينه
لازال ينظر أخذ أرزاق الورى حتى أصيب بآفة فى عينه

ومع أن الشعراء قد عرضوا بالغورى هذا التعريض العنيف، إلا أنهم

---

(١) إشارة إلى قاعة فخمة اسمها « نصف الدنيا » هدمها الغورى واستولى على مابها من الرخام سنة ٩١٠ هـ

جميعاً وقفوا فى صفه حين خرج لقتال العثمانيين لأن المصلحة الوطنية كانت تقضى عليهم بذلك . فمدحوه بالقصائد الجيدة ، وتمنوا له النصر على أعدائه. مثال ذلك قول ابن إياس :

قل لابن عثمان إذا قابلتــه اقبـل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شامنا بجهالة يخشى عليك اللدغ من ابن الحنش (١)

وقال :

ياسليم شاه كف عن أخذ مصر بلد شرفت بخير إمام
فهو شـافعى قطب ولى نجل إدريس عمدة الإسـلام
هى تدعى كنانة من غزاها قصم الله ظهره بالحسام

فابن إياس يناشد السلطان سليم أن يكف عن غزو مصر ، ويحذره تارة من ابن الحنش ، وأخرى من الإمام الشافعى . ولما تم الغزو العثمانى وسقطت الدولة المصرية ناح الشعراء وبكوا . مثال ذلك قول محمد بن قانصوة :

كان فى مصر ملوك أظهروا فيهـا العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيهـا خرائب
وهى أضحت بعـد عز قرية فى حـكم نائب

وقال بدر الدين محمد الزيتونى من قصيدة زجلية طويلة :

نسأل الله أن يحسن العـاقبه ويعيد الرابح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ التـار ويرد الكسره على الـكافر
اشتهى التار لقتـلة الغورى ولعـلى أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عنـدى ويغنو على وتر أوطار
بعد هذا ما اخشى غراب البـين إن زعق فى ديارنا أوطار

---

(١) ابن الحنش . هو ناصر الدين ، من أمراء الشام ، وكان قد أوقع بالعثمانيين هزيمة كبرى بالقرب من دمشق .

وقال ابن إياس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ... ومصيبة عمت بليتها الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى ... غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأتى إليها عسكر سيماهمو ... حلق الذقون ولبس طرطوريرى
لا يعرف الأستاذ من غلمانه ... وأميرهم بين الأنام تحقرا
جل الإله مصدقا عما حكى ... فى سورة الروم العظيمة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صادقا ... أن ابن عثمان يلى وكذا جرى

فابن إياس يبكى على سقوط مصر فى أيدى العثمانيين ، وعلى اندحار الجيش المصرى . وقوله من الأتراك أى من المماليك الأتراك . ثم يعرض بعساكر العثمانيين الذين امتازوا بحلق لحاهم . ويشير إلى ماجاء فى سورة الروم من قوله تعالى « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد » وكان يطلق على العثمانيين اسم « الروم » لأنهم سكنوا بلاد الروم . ويقول إن الله أخبر فى هذه الآية أن الروم ، أى العثمانيين ، سيدخلون مصر ويحكمونها . وهذا تفسير لم يقل به أحد من قبل .

أما محمد بن قنصوة فإنه أعرب عن ألمه وحزنه لأن مصر فقدت سيادتها واستقلالها ، وأصبحت ولاية عثمانية يحكمها والى ينوب عن السلطان العثمانى .

والزيتونى يتمنى أن يثأر للغورى من قاتليه ، ويرى أن عار الهزيمة لا يمحى إلا بذلك . فإن تحقق له هذا فإنه يستحق التهنئة ويقيم الأفراح والليالى الملاح .

هذا هو موقف الشعراء من الغزو العثمانى . فالى أى حد عبروا عن آلام الشعب وأحزانه ؟

لقد ارتكب العثمانيون من الفظائع مالم تر له مصر نظيرا من قبل . قتلوا وأسرفوا فى القتل . وخربوا وأمعنوا فى التخريب ، ودمروا وأفرطوا فى

التدمير . هدموا القصور حتى زالت أحياء كاملة . واعتقلوا عددا كبيرا من الأعيان والعلماء والتجار ونفوهم إلى الآستانة ، ولم يرحموا فى ذلك الشيوخ الكبار الذين أنهكتهم الشيخوخة وأضناهم المرض . ثم نقلوا عددا كبيرا من الصناع . ونهبوا مقادير عظيمة من التحف والنفائس . فلا عجب إذا تألم الشعب وحزن حزناً عميقا لهذه الأحداث الجسام التى نزلت به . ولا شك فى أن الشعراء كانوا مصورين لنفسية الشعب إلى حد بعيد .

* * *

ولما مات السلطان سليم فرح المصريون ورأوا فى ذلك انتقاما إلهياً . انظر إلى ابن إياس حين يقول من قصيدة :

وأراد الخلود من ملك مصر　　قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنا سهام الدياجى　　بدعاء فيها يفوق النبالا
بعد ما جار فى الأنام بقتل　　من جيوش تدك منه الجبالا
فاستجاب الدعاء ومنَّ علينا　　بانفراج الهموم جل تعالى
وأتتنا أخباره بزوال　　صيرت رشده حقيقا ضلالا
زال عنا بموته بجمرة دون حرب　　وكفى الله المؤمنين القتالا

فابن إياس يعبر عن فرح المصريين بموت السلطان سليم ، ويقول إن سهام الدياجى — أى دعاء المظلومين — هى التى أهلكت سليما بعد أن طغى وبغى ، وظلم وأفرط فى الظلم . فاستجاب الله دعاء المظلومين وأصيب سليم بجمرة أى ورم خبيث قضى عليه . ولكن هل انقضى حكم العثمانيين بوفاة السلطان سليم ؟ كلا ، فنظرة الشعراء كانت محدودة بشخص السلطان المتوفى .

وكذلك نجد المصريين قد فرحوا لموت خاير بك أول من ولى حكم مصر من قبل العثمانيين . وذلك نظراً لما سار عليه فى حكمه من الظلم الشنيع

وعبر ابن إياس عن فرح الشعب بقوله :

اعجبوا من نائب فى مصرنا خانه الدهر وجازاه العمل
زال عنه الملك والمال معاً وأتاه الموت يسعى بالعجل

وقال على لسانه :

أصبحت بقعر حفرة مرتهنا لا أملك من دنياى إلا كفنا
يا من وسعت عباده رحمته من بعض عبيدك المسيئين أنا

ولكن بعض الشعراء تجاهلوا المصلحة الوطنية وقبلوا أن يكونوا دعاة للظالمين فسخروا شعرهم فى مدح هذا الوالى . وربما فعلوا ذلك لمنفعتهم الذاتية أو دفعاً للشر . وهم على كل حال لم يعبروا عن رأى الشعب .

* * *

ولما آل ملك العثمانيين إلى السلطان سليمان ، مدحه الشعراء المصريون . وكان سليمان قد اشتبك مع المسيحيين فى عدة حروب وانتصر عليهم ، وأخضع بعض البلدان لحكمه . فرأى المصريون فى ذلك انتصاراً للإسلام على أعدائه لذلك فرحوا بانتصار سليمان الذى أعمل سيفه فى رقاب المشركين ، وأدخل بلادهم فى حوزة الإسلام . قال محمد بن قانصوة من قصيدة :

أفدى سليمان من مليك ليس له فى الورى مقايس
أنكرسا داسها وهدت من دوسه وهو خير دايس
ومنه صارت لخير دين مدارسا أمحت الكنائس
وبعد فى رودس ستبدو وتمحق أهلها النحايس
وهو بسيف الله نصر فى عنق المشركين مايس

لقد نسى المصريون استقلالهم ، وأضحوا ينظرون إلى مصيرهم ، لا من الناحية الوطنية ، بل من الناحية الدينية . ولما كان السلطان العثمانى هو القائم بالجهاد ضد المسيحيين ، وهو وحده القادر على حماية المسلمين ؛

لذلك كان احترامه واجباً مقدساً على كل مصرى . والخروج عليه كفراً وبغياً . نرى ذلك واضحاً حينما حاول أحمد باشا الملقب[١] بالخائن الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ فقد خرج عليه الأمير جانم الحمزاوى ونصب علماً سلطانياً ونادى : من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت هذا العلم . فلبى نداءه خلق كثير ، وبذلك استطاع أن يقضى على أحمد باشا ويعيد مصر إلى نفوذ السلطان .

وكان تقديس المصريين واحترامهم للسلطان العثمانى يزداد على مر الأيام . انظر إلى قول أحد الشعراء حين قتل السلطان عثمان وهو :

قتلتمـــو عثمانـكم وخنتمو إمامـــكم
ألم تخافوا فتنـــة تاريخها ظلامـــكم

ونجد الإسحاقى يصف محدثى الفتنة فى عهد الوالى محمد باشا سنة ١٠١٦ هـ بالخوارج ، فيقول[٢] « فما وجدت الخوارج للحرب طاقة » ، وقد وصف الشعراء هؤلاء الثوار بالبغاة وبالخوارج . قال أحدهم :

بشرى لمولانا الوزير محمـــد فهو الذى بذوى المفاسد يفتك
وعلى البغاة له انتصار دائم تاريخه جمع الخوارج أهلكوا

وقال آخر :

إن البغاة المارقين قد رمى رب العباد كيدهم فى نحرهم

وقد راعى بونابرت حين جاء إلى مصر هذه الناحية وقدرها حق قدرها . فنراه يذكر فى منشوراته السلطان العثمانى مقروناً بعبارات الإجلال

(١ ، ٢) الإسحاقى ص ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٠ هـ

والتعظيم . من ذلك ما جاء فى منشوره الأول : « ومع[١] ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى . وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه » ، « ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره » إلى أن قال « والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثمانى » .

ولكن الشعر الذى قيل فى السلاطين العثمانيين قليل جداً لا يكاد يذكر. وذلك لبعد المسافة بين شعراء مصر وهؤلاء السلاطين . ومن المؤكد أن شعراء مصر لم يمدحوا أحداً من السلاطين كما مدحوا السلطان عبد الحميد الثانى .

* * *

أما العلاقة بين الشعراء والولاة فكانت تختلف تبعاً للظروف . فإذا اشتهر الوالى بالعدل والنزاهة والاستقامة لهجت الألسن بمدحه والثناء عليه وإذا سار على غير ذلك تعرض للهجاء . مثال ذلك أويس باشا الذى ولى مصر سنة ٩٩٥ هـ ففى زمنه « حصلت[٢] الفتن ، وتحركت العساكر ، وقتل من قتل ، وهرب من هرب . وحدثت المطالب وكثرت المناهب من وجوه شتى » فلما مات هجاه بعضهم بقوله :

أهلك الله أويساً إنه — جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تجبر واعتدى — وبه الظلم تبدّى فى مزيد
أهلك الحرث وكم من فتنة — أمّها بالجهل فيما لا يفيد
مذ دهاه الموت ما أفلته — لا ولا كان له عنه محيد
خاب سعياً بوفاة أرخـو — ها وخاب كل جبار عنيد

---

(١) الجبرتى ٣/٥ طبع بولاق
(٢) الإسحاقى ص ٢٢٢

وكان كثير من هؤلاء الولاة يجيدون فهم اللغة العربية والأدب العربى . تذكر منهم عبد الله باشا الكبورلى الذى ولى مصر سنة ١١٤٢ هـ فقد قال فيه الجبرتى « وكان من أرباب الفضائل ، وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم . ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب . وكان إنساناً خيراً صالحاً ، منقادا إلى الشريعة . أبطل المنكرات والخمامير ومواقف الخواطى والبوظ » وقدمدحه عبد الله الشبراوى بقصيدة نذكر منها :

أقام العدل فى مصر وأحيا معالمه بها بعد الدثور
وساس الملك دهراً فاستقامت بقوة عزمه كل الثغور
ويقضى فى البرية لا بظلم يعاب به القضاء ولا يجور
تجمعت المحاسن فيه حتى لعمر أبيك فاق على كثير
سجيته إقالة مستقيل وهمته إجارة مستجير
وإن حادثته فى العلم تلقى بحوراً موجها دُرّ النحور
وإن ساومته شعراً تحدث عن ابن ربيعة أو عن جرير
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور

فى هذه الأبيات تأييد لما قاله الجبرتى عن هذا الوالى . فالشبراوى يشيد بعدل الممدوح وكرمه ، وتمكنه من الشعر ، وإقباله على العلم . قال الجبرتى « وله ديوان وتحقيقات . وكان له معرفة بالفنون والأدبيات والقراءات . وللشيخ عبد الله الشبراوى فى مدحه قصائد طنانة » وقد رجعنا إلى ديوان الشبراوى فلم نجد به سوى قصيدة واحدة . فلعل باقى القصائد قد سقط من الديوان . ثم قال الجبرتى « وأخذ المترجم عن العلامة الشيخ أحمد العماوى الكتب الستة ، والمواهب ، وألفية المصطلح رواية ودراية وإجازة » .

* * *

ومن هؤلاء الولاة محمد باشا راغب الذى ولى مصر سنة ١١٥٩ ،
ينظم الشعر بالعربية . وألف رسالة فى العروض . وله كتاب « سفينة
ودفينة الطالب » ومنتخبات الوزير محمد راغب . وقد مدحه
الإدكاوى بقصيدة منها :

الوزير الماجد المفـ ـضال وهّاب الرغائب
والذى من بحر كفّيـ ـه سحاب الجود صائب
والذى للعلم منـ ـه والندى لم يخل طالب
والذى قد جُمّعت فى ذاته أسنى المناقب

وقد وصفه الجبرتى بقوله « وكان إنساناً عظيما عالماً محققاً » وي
كان محسناً إلى الأدباء والشعراء ، فلذلك مدحوه . أما مدة حكمه
كلها فتن وقلاقل . وكان هو المحرض على هذه الفتن ، إذ شج
المماليك ضد بعضهم الآخر ، فنشبت بينهم معارك دامية . وقد
الشعراء ذلك لأن هذه الفتن كانت وبالا على المماليك وحدهم فقد أ
وهذا يتفق مع مصلحة الشعب . وهذه الفتن والمعارك سببها التنا
السلطان ، والطمع فى التملك ، ورغبة طائفة معينة فى الاستئثار
البلاد .

وممن لهجت الألسن بمدحهم على باشا الحكيم الذى ولى مصر
الأولى سنة ١١٥٢ هـ والثانية سنة ١١٦٩ هـ وفيه يقول الجبرتى
أيامه أمناً وأماناً . والفتن ساكنة والأحوال مطمئنة » وقال « وس
المعهودة ، وسلك طريقته المشكورة المحمودة . فأحيا مكارم الأ
وأدرّ على رعيته الأرزاق بحلم وبشر رُبّى عليهما فكانا له
وصدر رحيب لا يضيق بنازله ذرعاً » وقد مدحه الإدكاوى ب
نذكر منها :

ألا أيها الوزير ياسامى القـــد ر ومن أيد الإله فخاره
والجليل الـكبير والفاضل النحرير ر عين الملا وصدر الوزاره
والمشير المشـــار فى دولة المجد إليه حقاً بكل إشاره
والـكريم المهيمن فى ذات مولا ه إلى كل بائس ديناره
والذى جمـل الإله به الدهـ ر فأضحى فريده مختاره
والسنى الأخلاق والطاهر الأعـ راق لله ما أعزّ نجاره
والوفى الحفى قولا وفعـــلا كم طريد لجا إليه أجاره
والمثير الحروب فى نصر دين اللـ ـه بالسمر والظبى البتّاره
والمجلى الـكروب إن أدهش الا أبطال وقع العسالة الخطاره
كم له من وقائع فى أعادى اللـ ـه ذاقوا منها ردى وخساره
فسل الفرقة الروافض تنبيـ ـك ببأس له يقـد الحجاره
من سطاه بالسنة اعتصموا منـ ـه فأولاهم الأمان بشاره
وسل المشركين كم شن فيهم وعليهم من غارة بعد غاره
كم صياص قد هدها ونواص مدها كالتيوس وقت الجزاره
فجزاه الإله عن نصرة الديـــن جزاء يفى بربح التجاره

.... الخ

وقد كان على باشا الحـكيم قائداً مقداما ، حارب فى إيران وأوربا وظفر بالنصر تلو النصر . لذلك رأينـا الادكاوى يتغنى فى شعره بهذه الانتصارات .

فما تقدم نرى أن شعراء مصر فى ذلك الوقت لم يكونوا مجرد مادحين مأجورين ينظمون القصائد فى مدح الظالمين . بل كانوا معبرين عن رأى الشعب فمدحوا من استحق المدح ، وهجوا من استحق الهجاء .

ننتقل بعد ذلك إلى العنصر الثالث الموجه لهذه المدرسة ، وهو عنصر المماليك . وكان هؤلاء القوم فى شغل شاغل عن الأدب وأهله بالحروب والفتن والدسائس التى لم تخمد بينهم قط . وكانت الدولة العثمانية تعمل على تمزيق شمل المماليك وإضعافهم بإثارة هذه الفتن فيما بينهم .

وكان الشعب المصرى يصاب من جراء هذه المعارك بخسائر فادحة متلاحقة فى الأنفس والأموال فمن لم يمت قتلا مات جوعا، ومن سلمت داره نهبت أمواله . وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر وبخاصة عند الشاعر حسن البدرى الحجازى الذى جعل هذه المعارك وما يترتب عليها من تخريب وتدمير موضوعاً لشعره . مثال ذلك قوله فى فتنة وقعت سنة ١١٢٣هـ وهو :

دامت عليها مدة مديدة ... فى كل وقت هولها يجدد
أيوب والإفرنج والباشا كذا ... محمد الصعيد بيك الأفسدُ
قد فعلوا منـاكرا شنيعة ... بأهلها تفت منها الأكبد
ضرب مدافع ودور حرقت ... وسادة قد قتلت وأعبد
وفى الرعايا القتـل والنهب فشا ... والجوع والظما ومالا يعهد
وجملة القول عن الذى جرى ... لا تسألنّ فشرحه لا ينفد
والعلما أهـل الضلال والردى ... لهم أباحوا كل مالا يحمد
وبعد ذا أيوب والصعيد مع ... من صحبا فروا بليل لا هدوا
ودور أيوب جميعا نهبوا ... نهبا ذريعا ماعليه أزيد
ودور من ناصره حتى غدا ... للبوم فيها مقعد ومرقد
وبعده الافرنج جهرا قطعوا ... وكل من شايعه قد أخمدوا
والباشا المعـكوس قهرا أنزلوا ... من قلعة ولعنة قد زودوا
وابتهجت مصر وسر أهلها ... وانشرحوا وانبسطوا وعيدوا
تبارك الله مبيد من طغى ... ومن بغى ومن نـكيرا يقصد

عرض حسن البدرى الحجازى فى هذه القصيدة بالعلماء ووصفهم بأنهم أهل الضلال . وذلك لأن كل فريق من المتخاصمين استطاع أن يأخذ من العلماء فتوى بجوار قتال الفريق الآخر تحت التهديد والوعيد . والباشا الذى أشار إليه الشاعر هو خليل باشا الذى أوقد نيران هذه الفتنة الكبرى التى استمرت طويلا ، وعانى الناس فيها كثيرا من البلاء .

* * *

وقد اشتهرت قلة من هؤلاء المماليك بحسن السيرة . نذكر منهم إسماعيل بك إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ هـ فقد وصفه الجبرتى بقوله « وكانت أيامه سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقاليم فى أمن وأمان من قطاع البلد وأولاد الحرام . وكان صاحب عقل وتدبير ، وسياسة فى الأحكام ، وفطانة وفراسة فى الأمور . ورثاه الشعراء بمراث كثيرة » نذكر منها :

وكان جديراً بالرئاسة والعلا ... فقد سار فينا سيرة سارها عمر
وكان له حزم ورأى ومنعة ... ولكن إذا جاء القضا عمى البصر
به غدر الجبار جركس ما كرا ... فعما قليل سوف يجزى بما مكر
أسرّ له كيدا به كان حتفه ... بديوان مصر بئس والله ما أسر
فقطعه إرباً وسيق لجنة ... وقاتله ظلما يساق إلى سقر
فمن بعده الأذناب فوق الروس قد ... علت وعلى الأشراف قد جاء محتقر
تقدمت الأنذال لما تأخرت ... صناديدها هذا لعمرى من الكبر
ألا فى سبيل الله قامت قرودها ... ونامت سراحين المعارك فى الحفر
فأين جبان القلب من أسد الشرى ... وهيهات أم أين الذوات من الصور

وقال آخر من قصيدة :

ياعين جودى بدمع هاطل ندما ... علىّ الذى كان فى مصر لنا سندا

يا أهل مصر بكاء واندبوا رجلا مهذبا مثله فى العز ما وجدا
فكم أغاث فقيراً من ظلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هدى
فالآن حق لكم ذوب الفؤاد أسى فقد فقدتم وحق الله كل ندى

ولما بلغ خبر وفاته أهل مكة والمدينة حزنوا حزناً شديدا ، وصلوا عليه صلاة الغائب . ولا شك فى أن هذا الشعر الذى نظم فى رثاء إسماعيل إيواظ يصور نفسية الشعب الحزين الباكى أحسن تصوير . ويعبر عن حقده على قاتله والرغبة فى الانتقام منه . وفى القصيدة الأولى يتألم الشاعر لما وصلت إليه أحوال البلاد بعد مقتل إسماعيل إيواظ من اختلال الأمور ، فقد ارتفع الأوغاد والسفلة ، وتصدر للحكم من لا ضمير له ولا ذمة .

* * *

واشتهر بعض المماليك بميله إلى الأدب وتشجيعه للأدباء . من هؤلاء الأمير كتخدا رضوان الجلفى المتوفى سنة ١١٩٢ هـ وفيه يقول الجبرتى « واعتكف المترجم — يعنى الأمير رضوان — على لذاته وفسوقه ، وخلاعاته وترهاته . وأنشأ عدة قصور وبالغ فى زخرفتها وتأنيقها ، خصوصا داره التى أنشأها على بركة الأزبكية . فكان ينتقل فى تلك القصور ولا سيما فى أيام النيل ويتجاهر بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح . وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد ، وخرجوا عن الحد فى تلك الأيام . ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم . فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكاليف والخطاب . وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح وأعطاهم الجوائز السنية . وداعب بعضهم بعضا فكان يغرى هذا بهذا ، ويضحك منهم ويباسطهم . واتخذ له جلساء وندماء ، منهم الشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدى ، والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب المدامة الأرجوانية فى المدائح

الرضوانية . وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة . وللشيخ عمار القيروانى مقامة مدحا فى المترجم ومداعبة للسيد حمودة السديدى المحلاوى. وأجابه بأبلغ منها مقامة وقصيدة من رويها أديب العصر الشيخ قاسم بن عطاء الله المصرى ، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوى ، والعلامة السيد قاسم التونسى . وألف فيه الشيخ عبد الله كتابا سماه « الفوائح[1] الجنانية فى المدائح الرضوانية » جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف وتواشيح » .

وقال الجبرتى « وأنشأ — يعنى الأمير رضوان — قصرا فى الأزبكية له قباب عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد، والزجاج الملون والألوان الزاهية ، والصنائع الدقيقة . وبنى قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار ، وبنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا على الخليج . فكان يتنقل بين هاتيك القصور وبخاصة فى أيام النيل » .

وإذا استعرضنا المدائح الرضوانية ألفيناها تزخر بذكر الرياض والغياض والنسيم العليل ، والهواء البليل ، والأزهار والأطيار ، والأنس والطرب ، والفرح والسرور ، والحور والولدان ، والأدواح والأغصان ، والأشجار والأوراق ، والحسن والجمال ، والروائح الزكية ، والكاس والطاس وغير ذلك مما أوحت به البيئة . مثال ذلك قول مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١١٧٣هـ

بشرى الربيع الزهى وافت بشائره ... وعن حلاه البهى نمت سرائره
ونشر روح الصبا أهدى لنا خبرا ... من طيبه فاح فى الآفاق عاطره

---

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٤٨٧ — أدب

ومالت القضب والأطيار قد صدحت وقد تبسم من عُجْب أزاهره
وجاء فى حُـلَّة الإبداع مبتهجاً يختال تيهاً به حفّـت عساكره
فسر مقدمُـه الحالى أخا شجن يهيجه من معانى الدوح ناضره
وروحه بمعانى الحسن قد علقت وفى صفاه فـكم تسعى خواطره
وروضة لنـجوم الزهر جامعـة وزهرها مفرد فى الحسن سائره
قامت بهـا أمراء الدوح خاطبـة مقـام عز تسامى منه فاخره
رام الخلافة كل إذ علا وسما من فوق منبره الزاهى منابره
فالورد قام بدعواها فشوكته قوية حينما سُـلَّـت خناجره
والبان وافى بتاج الملك منتصباً وقال من رامه حكما أناظره
والأقحوان بدا يزهو ببهجته وحوله زمر قامت تنـاظره
والنرجس الغض يرنو نحوها شزراً لأنه طالب للملك ناظـره
قال الشقيق حويتُ الفخر أجمعه والملك حقٌ الذى تسمو مفاخره

وهكذا استمر الشاعر فى سرد مناظرة بين الأزهار المختلفة ، ثم تخلص من ذلك إلى مدح الأمير رضوان .

وله من قصيدة أخرى :

وهاتِ لى حديث الازبكيه وما حوت أدواحها الزكيه
حسناً زهت أرجاؤها السنيه إذ لاح فى غرتها البهيه
قصور رضوان العلا والمجدِ

يا حبذا معاهـد حسان يغنيك عن وصفى لها العيان
قد حل فيها الحور والولدان حصباؤها الياقوت والمرجان
فانظر تراها جنـة كالخلد

فـكم بها من دوحة أنيقه وروضة أغصانها وريقـه

وربوة أنهارها غديقه ومرجة أزهارها عبيقه
من نرجس وسوسن وورد
. . . . الخ

والأمر الثانى فى هذه المدائح هو احتواؤها على وصف القصور التى شيدها الأمير رضوان . مثال ذلك حمودة السديدى :

بناء كأن المجد هندس شكله ... بروض رياض راق فيه غدير
وضاءت مبانيه على قبة السما ... وأضحت أيادى النصرَ فيه تشير
إلى اليمن والإقبال والسعد والمنى ... ووجه التهانى بالأمان جدير
يفوق على أعلى السماكين نوره ... كذا البدر من أنواره لمنير
فليس يُرى فى مصر مثل بنائه ... وليس يحاكى حسن ذاك قصور
ويشرح منا الصدر رونق حسنه ... كأن سناه بالدواء خبير
لقد خلته دار النعيم لأنه ... به الحور كم زُفّت لهن بدور

فالشاعر يقول إن هذا القصر بلغ أقصى درجات الفخامة والإتقان والجمال . ولا يوجد فى مصر كلها ما يضارع قصر الممدوح فى العظمة والسمو والحسن . وهذا القصر كأنه الجنة لما به من أنواع الترف وأسباب السعادة واللذة ، ولما به من الحور والولدان ، والجداول التى تجرى من تحته ، والحدائق التى تحيط به .

والأمر الثالث هو الإشادة بمناقب الممدوح وخاصة ما عرف عنه من كرم . مثال ذلك قول يوسف الحفناوى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ :

مولاى بل مولى الأنام وملجئى ... رَضوانَ ذى الجاه العلى الأرفع
غوث العفاة وغوث كل مؤمل ... وافى الرحاب بذلة وتخضُّع
عند العطاء يريك بذل يمينه ... سحاً سحائب جوده لم تقلع
بطل إذا لمعت بوارق سيفه ... غربت صوارم كل شهم أشجع

تغنيه شدة بأسه وسطاه عن   حمل الظُّبى بل ذاك أعظم موقع
مولى إذا شاهدته وسمعته   أغناك عن مرأى سواه ومسمع
أنست به الأيام ما قد أسلفت   من كل قرم أو جواد مسرع
من أين للأمم السوالف سيد   بالبشر يلقى الوافدين إذا دعى
لو يبذل الدنيا استقل عطاءه   لرفيع همته التى لم تشفع
أو أين للجلفى قرم مشبه   يردى العتاة ببأسه المترفع
هيهات لم تلد النساء مثاله   وسواه بالعلياء لم يتمتع

وهكذا كل ما نظم فى رضوان من المدح لم يخرج عن هذه المعانى .

واشتملت هذه المدائح كذلك على الغزل ووصف الخمر . مثال ذلك قول أحدهم :

فى حب ريم من الأتراك منفرد   فى الحسن واللطف زان الخَلق بالخُلق
ما ماس من خفر يثنى معاطفه   إلا اختفى منه غصن البان فى الورق
ولا بدا وجهه فى ليل طرّته   إلا أراك سناه الشمس فى الغسق
إن فاه مال إليه العقل مختطفا   بمسمع لشهىّ اللفظ مسترق
بدر أدار من الصهباء شمس ضحى   يلوح لألاؤها فى الكاس كالشفق
يسعى بها وسلاف التيه يعطفه   ما بين مصطبح منها ومغتبق
يلقى على كأسها من نور وجنته   أشعة قد هدتنا أوضح الطرق
راح إذا مازجتها الراح من فمه   تعود سكرى بذاك القرقف العبق

وهذا الشعر من وحى البيئة . فقد انتشر الغزل فى فتيان الترك وفتياتهم فى ذلك العصر .

* * *

ومن أمراء المماليك الذين ظفروا بحظ وافر من مدائح الشعراء : عبد الرحمن كتخدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ صاحب المبانى الكثيرة التى أشرنا إليها حينما تكلمنا عن الحالة الاجتماعية . فمن ذلك قول الإدكاوى يمدحه ويهنيه ببناء شيده :

أشموس أشرقن لى أم نجوم   أم وجوه بها تزول الهموم
وقدود تميـــد أم ذى غصون   فى رياض أمالهن النسيم
وجنان تزهو وإلا بناء   شاده الماجد الهمام الكريم
الذى عز أن يدانيـــه خلق   فى المعالى وهل يدانى العظيم ؟
والذى خص بالفخار ولكن   بره للعفاة بر عمـــيم
هو عبد الرحمن ذو المحتد الشـــامخ دامت له المعالى تروم
سيدى هكذا تكون المبانى   فاطرح ذكر ما بنته الروم
مجلس زخرفته كف صناع   أجمل الروض عقده المنظوم
مجلس طائر السرور لديه   أبد الدهر ساجع لا يريم
مجلس فيه النواظر ملهى   وبه الحظ والهناء مقيم
بالبنـاء الجديد أسعدك اللـــه   ولازلت فى نعيم يدوم

* * *

ومن شجعوا الأدب الأمير جاويش الخربوطلى . ولما زوج بنته لعلى بك الكبير نظم الشعراء قصائد فى مدحه وتهنئتـه . فمن ذلك قصيدة للادكاوى مطلعها :

وصل الحبيب وصح منه الموثق   واغتاظ عاذلى الجهول الأحمق
ووفى بموعده لهذا لم أقل   وعد الزيارة قلبه المتملق

ثم تخلص من الغزل إلى المدح فكان مما قاله :

أعنى أمير المجد مأمول الجدا   من أمه لاشك فهو موفق
ذاك الأمير على المقدار من   بلواء علياه السيادة تخفق

ذو العزة القعساء والهمم التى   بذيولها راحى المنى يتعلق

.... الخ

أما بعد فليس هذا الفصل جديدا فى الأدب ، وإنما هو امتداد لما نظمه الشعراء فى الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والوزراء .

ويبدو مما مر بنا فى هذا الفصل أن هذا الشعر لم يندثر فى خلال العصر العثمانى كما يتوهم الناس ، بل ظل محتفظا بمكانته التى شغلها من قبل . وهو فى معظمه جيد العبارة ، قوى الأسلوب ، بعيد عن التكلف ، يحمل طابع البيئة المصرية .

الفصل الخامس

المدرسة الشعبية

هذه مدرسة قديمة عرفت فى مصر قبل العصر العثمانى . وفى مطلع هذا العصر نرى من شعرائها :

١ — ابن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠هـ فقد نظم شعراً كثيرا باللغة العامية فى أغراض مختلفة . مثال ذلك قوله :

كان ابن عثمان منجدا مصر مثل الضيف　　رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف　　أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف

ففى هذين البيتين صور ابن إياس آلام الشعب وماعاناه من ظلم الحكام وعمال الخراج الذين لا ينقطعون عن تحصيل الأموال حتى استنزفوا دماء المصريين وأذاقوهم الجوع والخوف . وفى قوله « أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف » تصوير رائع لإفراط العمال فى إيقاع المظالم بالشعب .

٢ — ومن معاصرى ابن إياس ، زجال مشهور، هو بدرالدين الزيتونى (٨٣١ — ٩٢٤ هـ) كان أحد نواب السادة الشافعية ، فاضلا عارفا بصناعة القضاء والتوقيع ، ماهراً فى الخطب ، فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ، علامة فى فن الأزجال ، والموشحات ، والمواليا ، وكان وكان ، والقوما . وله قصيدة طويلة من فن الزجل فى مائة وعشرين بيتا ، رثى فيها السلطان الغورى وسرد ماحدث من المعارك بين الجيش المصرى والجيش العثمانى ، نذكر منها :

غربت شمس　دولة　الغورى　　وابن عثمان نجمو طالعساير
وبهذا　رب السما قد حكم　　والفلك دار ولم يزل داير

خامس عشر من ربيع آخر　　تسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى　　شافع الخلق فى نهار القيام
كان خروج السلطان بتجريده　　لابن عثمان طالب بلاد الشام
والأمارة فى خدمتو موكبين　　بالمماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهره　　كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفه خرج معو القاضى　　وكاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب　　هو محمد فعلو الجميل محمود

.... الخ

وقد حرص الزيتونى على أن يسجل فى هذه القصيدة كل ما شاهده منذ خروج الغورى إلى اللحظة التى قتل فيها . وحدثنا عن ألمه وحزنه لما حل بالجيش المصرى من هزيمة . ثم عزى نفسه بذكر القواد والملوك الذين ماتوا وذهب ملكهم وأصبحوا فى ذمة التاريخ من أمثال سليمان الحكيم، والنمرود وكسرى أنو شروان ، والاسكندر الأكبر ، ونلاحظ أن حبه للتسجيل التاريخى قد غاب عليه .

ولما مات بدر الدين رثاه ابنه محمد بزجل نذكر منه :

يحق لى أن أرثى لموت والدى　　كان أفصح النظام وعقلو رجيح
فى درج الاكفان للقيامة اندرج　　واجب على فقدو بعزمى أصيح
كان والدى فى فن الأزجال تقصدو　　حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفى جميع العلم مالو نظير　　فقيه مدرس فى جميع الفنون

.... الخ

ومما هو جدير بالذكر أن استخدام الشعر الشعبى فى الرثاء قد كثر فى هذا العصر ، كما انتشرت النساء اللاتى احترفن التعديد وهو نوع من الشعر مازال حتى أيامنا هذه ينشد فى المآتم .

وفى الزجل المتقدم يذكر محمد بن بدر الدين الزيتونى بعض مناقب والده ومفاخره . فيقول إن والده يستحق الرثاء لأنه كان شاعراً مجيدا ، ذا عقل راجح ، وفكر سديد . وكان مشهورا بفن الزجل ، إليه تشد الرحال . وكان الناس يعنون بسماع أزجاله وحفظها . ويصف والده بأنه العالم الذى لا يشق له غبار ، والفقيه البارع ، والمدرس المجيد فى جميع أنواع العلوم والفنون . ويقول إن موته خسارة كبرى ، يستحق أن يلطم من أجلها ويبكى رافعاً صوته بقدر ما يستطيع .

* * *

وروى ابن إياس فى حوادث سنة ٩٠٩هـ أن الناس خرجوا للفرجة على الاحتفال بسفر المحمل ، وكان احتفالا مشهودا . وصنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحه حتى أرى دى الرماحه
بع لى لحافى المخمل حتى أرى شكل المحمل

فقد بلغ من روعة الاحتفال وتهافت العامة على رؤيته إلى درجة أنهم كانوا على استعداد لبيع فراشهم وغطائهم وهما أعز ما يملكون ، أو هما كل ما فى بيوت الفقراء من الأثاث ، وذلك ليتيسر لهم الخروج للتمتع بمشاهدة هذا الموكب الفخم . وانطلقوا يرقصون ويغنون بهذا الغناء .

وفى حوادث سنة ٩١١ هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب وجود الدريس فى منازل المماليك ، وكانوا قد أفرطوا فى خزنه . وشرع الوالى يقبض على الناس ويرغمهم على نقل الدريس بعيدا عن مواطن الحريق . فتعطلت أعمالهم ، وصنفوا رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس والا يحملوك الدريس

فلم يجدوا أمامهم سوى الهرب من حمل الدريس ، إذ لم يكن فى قدرتهم أن يفعلوا شيئاً غير ذلك ، فمن اختفى استراح ، ومن ظهر سخر فى نقل أحمال الدريس . ويبدو أن العامة قد واجهم عناء شديد وبلاء عظيم فى هذه الحادثة فتحركت مشاعرهم بهذا الغناء .

وفى حوادث سنة ١١٣١هـ خلع المماليك الوالى التركى عقب فتنة كبرى سالت فيها الدماء وتناثرت الأشلاء ، وخربت دور كثيرة . وكان هذا الوالى هو مدبر تلك الفتنة ، فلما خلع اجتمع عليه الأولاد الصغار وأخذوا يرقصون ويغنون بصوت مرتفع قائلين :

ياباشا ، ياباشا ياعين القمله مين قال لك تعمل دى العمله

ياباشا ، ياباشا ياعين الصيره من قال لك دبر دى التدبيره

* * *

ومن أنواع المواليا التى عرفت فى مصر قبل العصر العثمانى وانتشرت انتشاراً كبيرا فى خلاله :

١ — القرقيا : وهو ما يتناول الهزل

٢ — البليق : ويستخدم فى الغزل

٣ — المكفر : بكسر الفاء ، ويستخدم فى الوعظ

فمن المكفر قول محمد سالم الحفناوى المتوفى سنة ١١٨١هـ

يامبتغى طرق أهل الله والتسليك دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك

إن أذكرونى لرد المعترض يكفيك فاجعل سلاف الجلاله دائماً فى فيك

وهذه المواليا فى الوعظ والإرشاد . فهو يخاطب من يريد الوصول إلى الله وسلوك طريق المتصوفة والانخراط فى صفوفهم ، وينصحه بترك الاعتراض على الناس وبمداومة ذكر الله .

وقد استخدم محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ الموشحات فى الدعوة

لشراب القهوة مثال ذلك قوله :

أدر القهوة فى كاس البها
قهوة البن وناهيك بها
هى حل ما نهى عنها نُهى
فاسقنى ياصاح

شنف الكاسات واسمع ماأقول
إنها شرب الأجلاء الفحول
أولياء الله أرباب الوصول
لحمى الفتاح

ما علينا من عذول جاهل
مفترى زور كلام باطل
خامل الذكر وميت زائل
راح مع من راح

فى هذه الموشحات تصوير للنزاع العنيف الذى نشب بين أنصار شراب القهوة وخصومها . وقد حاول البكرى أن يتحدى هؤلاء الخصوم ، فطلب من الساقى أن يدير عليه القهوة فى الكئوس الجميلة . ثم ذكر أن شراب القهوة لذيذ جدا ، وحلال عند أرباب العقول السليمة ، والقهوة شراب الأكابر وذوى المراتب الرفيعة من أولياء الله المقربين إليه . ويقول إنه لا يكترث بكلام الجاهل الذى يلومه على تعاطى هذا الشراب ، والذى يحرمه مستنداً إلى أدلة فاسدة وآراء باطلة . وهذا الجاهل نكرة لايعرفه أحد ، ولا يسمع به إنسان ، فكأنه فى عداد الأموات . وهذه الموشحة جيدة التراكيب قوية الأساليب ، واضحة العبارة ، مليحة الإشارة .

ومن موشحاته التصوفية قوله :

طلعة المحبوب كل القمـــر
هـــكذا هيمت كل البشر
كيف لا تسرى بكل الصـور
وهم هالات

وحّـدت معنـــاك عينى نظرا
قال لى قلبى شهدت الأثرا
ماترانى عين سـعدى ما ترى
وحدة بالذات

زال لبسى حيث نفسى أعربت
وكذا شمسى بأفقى غربت
مثلما روحى بروحى طربت
والهوى لذات

.... الخ

فالبـكرى يقول إن الله تجلى فى مخلوقاته فهو كالقمر الذى هام النـاس بحبه والمخلوقات تحيط به إحاطة الهالة بالقمر . وهو واحد بذاته وصفاته . ولما أدرك هذه الحقيقة زال من قلبـــه كل شك ، وامتلأ فرحاً وسرورا ، ونعم بهذه اللذة الروحية التى غرق فيها .

* * *

ومن الشعر الشعبى الذى وصل إلينا من هذا العصر مجموعة عنوانها « الروض الوضاح فى نهاية الأفراح ، المسمى باجتماع الشمل فى فن خيال الضل » وهذا النوع من الشعر التمثيلى الذى يشترك فى إلقائه بضعة أشخاص يمثلون موضوعات مختلفة ، ويقفون فوق منصة مرتفعة وراء سـتار ، مستخدمين

ببعض آلات الطرب ، ويرقصون ويغنون ، ويقومون بحركات بهلوانية كالتى تشاهد فى الأراجوز . ومما جاء فى هذه المجموعة :

عن خيال الضل دايم محتجب فانتبه يامن غفل عَنُّو ونام
تلتقى هزلو وجدو شى عجب وعبارات شبه الاحلام فى المنام
والمرقص من ورا السترا حتجب والشخوص تحكى شخوص هذا الأنام

كان هناك مرقص وستائر وتماثيل دقيقة الصنعة ، وصور تشبه صور الناس والحيوانات والمبانى والحدائق وغيرها .

ومنها :

ليلة سعيده عند ماقد رأيت أهل الأدب يحكو بدور الكمال
لما طلبتونى إليكم أتيت للعب والتفريح وفن الخيال
يا سادتى أنى بكم اقتديت يا من حويتو الفخر والامتثال
ربى يفرح قلوب الجميع بزيارة النبى الهادى ودار السلام
ياسامعين قولوا مدد ياحسين والفاتحه اقروها لبنت الإمام

فمن هنا نرى أن اللاعب قد بدأ التمثيل بتحية الناس الذين دعوه ليعرض عليهم ألعابه . وقد ذكر أنه لبى دعوتهم وحضر ليدخل على قلوبهم الفرح والسرور ، وليطلعهم على فن خيال الظل . وقال انه يتخذ من الحاضرين قدوة حسنة له فى حياته . فهم أهل الفضل والأخلاق الحميدة، ثم سأل الله أن يوفقهم إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وطلب منهم أن يلتمسوا العون من الحسين ، وأن يقرأوا الفاتحة لبنت الإمام ، أى للسيدة زينب . ومنها :

وبعد هذا انتظروا أشياء عجب فى الأدب والحظ والانشراح
أشخاص وحازوا كل معنى طرب كان السبب من مصر داالفن راح
وحبى ظهر شكلو لأهل الرتب نالوا الأرب بأهل الوجوه السماح
يارب بالهادى نبينا الشفيع وبالصحابه الفائزين الكرام

تغفر ذنوبى يا كريم يامعين بفضلك وادخلنا بديار السلام

ولما فرغ من المقدمة السابقة التفت إلى الحاضرين وأخبرهم بماسيشاهدون من عجائب فنه ، وغرائب تمثيله . وذكر أن هذا الفن كان قد اختفى من مصر مدة من الزمن ومدح الحاضرين وأعرب عن حبه لهم . ثم دعا الله أن يغفر له ذنوبه وأن يدخله الجنة .

ثم ذكر بعد ذلك أسماء الممثلين وهم : (١) نرجس بن تقادير (٢) الكابس (٣) أبو حردان (٤) أبو قراميط (٥) السكران .

ولكل من هؤلاء الأشخاص دور يقوم به ، وموشحات ينطق بها . وقد أضربنا صفحا عن ذكر ماجرى على لسانهم لاحتوائه على ألفاظ مكشوفة وعبارات السب والشتم التى تسمع فى الشوارع من السفلة والأوشاب .

ويغلب على هذه التمثيليات الغزل والشكوى من فراق الحبيب ، ونداء الليل وغير ذلك مماهو معروف الآن . كما اشتملت على مدح الأولياء والوعظ والإرشاد ، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق ، ففيها الهزل والخلاعة والمجون إلى جانب الجد ، ومن التمثيليات الجدية تمثيلية «فلاح فى بطن تمساح» وقد وقف شخص اسمه الكابس يخاطب الفلاح بقوله :

دور من الكابس للفلاح وهو فى بطن التمساح :

ياأخى أعلمنى على دى القصة	لما بقيت فى بطن تمساح كاسر
ياهلترى غضبوا عليك إخوانك	والا مرابط كان سرو حاضر
والا أبوك قلبو غضب من يمك	والادعت أمك فى الظلام العاكر
انهض واعلمنى صحيح واصدقنى	يامن رماه وعدو وأصبح نواح
قل لى على من أخرجك من بيتك	لما عليك قد اغتدى دا التمساح

فالفلاح كما نرى قد وقع فى شدة عظيمة ، وضيق مؤلم إذا أضحى محبوسا فى بطن تمساح . وقد طلب منه الكابس أن يحدثه عن سبب وقوعه فى هذه

المصيبة . وهل كان سبب ذلك غضب إخوانه أم غضب أحد من الأولياء ؟ أم غضب والده أم غضب والدته ودعاءها عليه فى جنح الليل . وطلب منه أن ينهض ويخبره الخبر الصحيح ، وأن يكون صادقا فى قوله عن السبب الذى أخرجه من بيته وأوقعه فريسة لهذا التمساح الجبار الذى التقمه وحبسه فى بطنه .

فيرد الفلاح قائلا (دور من الفلاح)

أبكى ودمع العين جارى على خدى
حالى صبح مسكين واللى انكتب وعدى
وقعت وقعة شين وعدى ولا بيدى
لكن أقول يارب يا باعث الأرياح

فالفلاح هنا يبكى بكاء مرًّا على ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاء ، ولكنه مع ذلك لم ييأس من رحمة الله ، بل يطلب الفرج ويؤمل فى النجاة ، ويرجو اليسر بعد العسر .

وبعض هذه التمثيليات يبدأ بمدح النبى ثم ذكر الخلفاء الراشدين ومشهورى الصحابة . وتنتقل بعد ذلك إلى الأغراض التى أنشئت من أجلها . وهى تصور بوجه عام وقوع بعض الناس فى ضيق وشدة ، ثم استغاثتهم بالله والأنبياء والأولياء ، ورضاهم بالقضاء والقدر . ثم تنتهى بحدوث الفرج بعد الشدة .

* * *

ومن الشعر الشعبى تلك القصائد التى لم يلتزم فيها أصحابها صحة اللغة والنحو والعروض كالقصائد التى وردت فى سيرة الظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وكقصيدة أبى شادوف التى شرحها يوسف بن محمد الشربينى المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ فى كتابه « هز القحوف » نذكر منها :

على من جتو قصعة وهو بيحرت ويقعد يجرف للحنك تجريف
على من دعس بالعزم فى المش والبصل ولو كان بالسكرات كان ضريف
على من شرب مترد ملان مطنبر ومن اللبن الحامض يرف وفيف
على من جتو أم الحلول لدارو ويعزم على أهل البلد ويضيف

وفى هذه القصيدة الطويلة وفى شرحها من ذكر المقاذر والعورات ، والعبارات المكشوفة والألفاظ القبيحة مالا نهاية بعده . وقد تعمد الشارح أن يشنع على الفلاحين ويرميهم بكل موبقة ، ويصفهم بمختلف العيوب ، وكان الشربينى من الأشراف ، وبين هؤلاء وبين الفلاحين خصومة عنيفة مازالت حتى عصرنا هذا . انظر إلى قوله فى مقدمة كتابه « وقبل الخوض فى بحر هذا الكلام نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف ، ووصف طبعهم الكثيف ، وأخلاقهم الرذيلة ، وذاتهم الهبيلة ، وأسمائهم المقلبة ، وقحوفهم المشقلبة ، وقمصانهم المشرمطة ، وأشمارهم الملخبطة ، ونسائهم المزعجات ، وما لهم من الدواهى والبليات ، فنقول :

«أما سوء أخلاقهم وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ، وملازمتهم لشيل الطين والعفار . وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الكثافة ، كأنهم خلقوا من طينة البهائم كما قال ذلك الناظم :

لا تصحب الفلاح لو أنه ناخجة أرياحها صاعده
نيرانهم قد أخبرت عنهم بأنهم من طينة واحده

» فهم لا يخرجون عن طور القحافة لملازمتهم المحراث والجرافة . وهز قحوفهم حول الأجران ، وطردهم من الملق والغيطان ، ودورانهم حول الزرع ونطهم فى الحصيد والقلع ، وغطوسهم فى الجلة والطين . إن عاملتهم أكلوك ، وإن نصحتهم أبغضوك ، وإن أقمت لهم الشرع رفضوك ، وإن ألنت لهم الجانب مقتوك . العالم عندهم حقير ، والظالم عندهم كبير . أمورهم معاند ،

وليس عندهم فوائد . عندهم قابض المال أعز من العم والخال . سود الوجوه، إذا رأوا معروفا أنكروه ، كما قال الشاعر :

أهل الفلاحة لا تكرمهمو أبدا ... فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدوا الصياح بلا ضرب ولا ألم ... سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا »

وعلى هذا المنوال من الرغبة فى التشهير بالفلاحين ، والتشفى منهم نسج المؤلف كتابه . ومع ذلك ففيه فوائد نذكر منها إيراده لكثير من الألفاظ والتعابير الريفية . وإيراده لبعض الأغانى التى نسبها لأهل الريف وتصويره لجهل الفلاحين وفقرهم ، وما كانوا يقابلون به إذا حضروا إلى القاهرة من الازدراء والاحتقار والسخرية . كما صور أخلاق بعض المتظاهرين بالدروشة وما صاروا إليه من فساد وانحطاط وبعد عن أحكام الدين . فما نسبه لشعراء الريف :

والله والله العضيم القادر ... هو عالما بسرايرى وخبايطى
إن عاود القلب المشوم ذكركم ... لأقطعو من مهجتى بأصابعى

وعلق على[1] هذين البيتين بقوله « هذا الكلام من بحر الهلفطة ، والمعانى المشرمطة ، وتفاعيله : متخلبطة متخلبطة متخابطة . وعرضه بيقين من زنجية لشربين ، وطوله باحتياط من السرو لدمياط . »

« وأما شرح معانيه المسخمطة ، وحل مبانيه الملغمطة ، فقوله — والله والله العضيم القادر — يريد القسم غير أنه لم يقع الموقع لأنه ذكر الصفة بالضاد المعجمة لا بالظاء المشالة ، جريا على لغة أمثاله من أهل الريف . وقوله — هو عالما — بنصب عالما مع أنه مرفوع ؛ ليس على قاعدة النحويين ، إلا أن لسانه لم يساعده على ذلك ، لأن ألسنة أهل الريف تنصب المرفوع ، وترفع المنصوب كما يقولون عبد الرحمن برفع راء الرحمن . وهذا من باب عجرفة الكلام المناسبة لهؤلاء القوم »

---

(١) هز القحوف ص ٥١ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

وقد يكون فى كلامه هذا بعض الحقائق . وعلى كل حال فإن منزلة الفلاح قد هوت إلى الحضيض فى هذا العصر حتى أصبحت كلمة «فلاح» سبة وشتمة من الشتائم التى يوجهها بعض الناس إلى بعض . وغدت توحى بالخشونة والبعد عن الرقة والذوق واللطف . وأصبحت حياة الفلاح منذ العصر العثمانى إلى عهد قريب موضوعا للسخرية والتهكم من بعض الكتاب .

* * *

وقد نظم إبراهيم الشافعى سنة ١١٧٧ هـ قصيدة طويلة من فن الزجل ، مدح بها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، عنوانها « مشارع خيرات حسان فى مدح الأمير عبد الرحمن» سجل فيها كل ماشيده الأمير المذكور من المبانى ، وما أنفقه من الأموال فى أوجه البر . ومما جاء فيها :

وكم عرايا قد كسا   وكم غريب قد أكرمه
بأرض الجزيرة لو سبيل   تجاه بولاق فافهمه
عليه سواقى دايره   منه الحسود قد انكمد
بشارعه حوض للدواب   شيد بناه ونظمه
وعبد الرحمن أمير   بفعل خير قد انفرد
وربنا صار لو معين   وأقمى الأعادى بالكمد

* * *

وكان بعض الشعراء يقلدون الموشحات الأندلسية ، وينسجون على منوالها . نذكر منهم إسماعيل بن خليل الملقب بالظهورى ، المتوفى سنة ١٢١١هـ فقد نظم موشحة على وزن موشحة ابن خطيب داريا الأندلسى جاء فيها .

ليت شعرى ياأخلاء الهوى   هل أرى بدرى بحانى مؤنسى

أم أقاسى من زمان قد قسا ورمى أحشاى سهما عن قسى

دور

ياسقى الله زماناً قد مضى في مغانى مصر فى عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لى ما قضى بالتدانى إذ غفت عين الرقيب
شب من تذكارها نار الغضى فى فؤادى وتلافى فى النحيب
واعترتنى دهشة حين جرى من دموعى سائلا فى الغلس
وغدا قلبى كليما مذ سرى بارق فى نحو ذاك المكنس

دور

يارياضا حسنها زاه يشيق جاد فى مثواك منهل السحاب
كم مضى لى فيك من معنى أنيق حين كان اللهو مزهىّ الجناب
هل ترى عينى محياك الشريق لابسا برد التهانى والشباب
وأرى بدرى يناجينى على ذلك البسط الشهى السندس
وأحلى صبر دهرى بالمنى من معان زاهيات الملبس

وهكذا يستمر الشاعر إلى آخر تلك الموشحة الطويلة فى أسلوب قصصى سهل ممتع . فيذكر الحان وأيام الصبا واللهو والعبث التى أمضاها ونعم بها بين حدائق مصر وبساتينها . ويحدثنا عن اتصاله بمحبوبته بعيدا عن أعين الرقباء . ثم أخذ يتحسر على تلك الأوقات السعيدة الحلوة التى لن تعود . ووصف لنا ماتتركه فى نفسه الذكريات من لوعة ، وما تذرفه عيناه من دموع وما أصاب قلبه من جروح ، ثم وقف يخاطب الرياض ، واصفا إياها بالجمال والفتنة ، ذاكرا الأيام الحلوة التى قضاها بين ربوعها ، متمنيا لو أن تلك الأيام قد عادت إليه مرة أخرى ليمتع نفسه بوصال الغيد ، والجلوس معهن على الحشائش الخضراء السندسية ، تحت ظلال الأشجار الوارفة

ومن أشهر الزجالين فى هـذا العصر الشيخ عامر الأنبوطى المتـوفى سنة ١١٧٣هـ وأزجاله تتناول أنواع الطعام والشراب . فمن ذلك قوله :

أكلك من الضأن رطلين يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يازين دا الأكل منو تعاسه

وقوله :

أكل المطبق مع الفجـر بالشهد والسمن السايح
اللي يجيبـو لو أجر فى جنـة الخلد رايح

وقوله :

يا طابخ الضـأن اشـتد واغرف أوانى وسيعه
عامر أتى لك وله يد فى الأكل دايما سريعه

وقوله :

أوصيك لا تأكل الفول يورث قلبك قساوه
تقطع نهـارك كالغول تائه وعندك غشـاوه

وقوله :

خشـاف مشمش وعنـاب الشرب منهـم دوايه
من بعد ماكل كباب يارب حقق رجايه

ومن نظمه ألفيـة الطعام على وزن ألفية ابن مالك فى النحو نذكر منها :

يقول عامر هو الأنبوطى أحمد ربى لست بالقنوطى
وأستعين الله فى ألفيـه مقاصد الأكل بها محويه

فيها صنوف الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم
طعامنا الضانى لذيذ للنَّهِمْ لحماً وسمناً ثم خبزاً فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عمْ مطاعماً إلى سناها القلب أم
والأصل فى الأخباز أن تُقمرا وجوّزوا التقديد إذ لا ضررا
فامنعه حين تستوى الخرفان

ومن قوله على وزن لامية العجم للطغرائى :

أناجر الضأن ترياق من العلل وأصحن الرز فيها منتهى أملى
أكلى غداء وأكلى فى العشاء على حدٍّ سوى إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالأرياف لا شبعى فيها ولا نزهتى فيها ولا جذلى
ناء عن الأهل خالى الجوف منقبض كمعدم مات من جوع ومن فشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمنى ولا كريم بلحم الضأن يسمح لى
طال التلهف للمطعوم واشتعلت حشاشتى بحِمام البيت حين قلى
أريد أكلا نفيساً أستعين به على العبادات والمطلوب من عملى
والدهر يفجع قلبى من مطاعمه بالعدس والكشك والبيسار والبصل
ناديت هيا ولا تبطىء بغرفك لى فإنه خلق الإنسان من عجل

وله على وزن لامية ابن الوردى :

اجتنب مطعوم عدس وبصلْ فى عَشاء فهو للعقل خَبلْ
وعن البيسار لا تعن به تمس فى صحة جسم من عِلَلْ
واحتفل بالضأن إن كنت فتى زاكىَ العقل ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت أكلها ينفى عن القلب الوجل

ويبدو أن الأنبوطى كان يمثل فى عصره طبقة المتهافتين على الأكل ، المتطفلين على الموائد ، الذين لا هم لهم إلا حضور المآدب ، وإشباع نهمهم من اللحوم والخضار والرز والفواكه وغيرها . وقد كان الناس يخشون

الأنبوطى وأمثاله . فالجبرتى يقول فيه « إنه الشاعر الهجاء المفلق ، لهيب شراره محرق » ويقول إن الناس كانوا يتحامونه ، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يكرمه ويكسوه اتقاء للسانه .

* * *

واحتاجت المقاهى الكثيرة التى ظهرت فى ذلك العصر إلى المغنين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق فتنهال عليه الأرباح الوفيرة . واتصل المغنون بالشعراء يلتمسون منهم نظم المقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشون فيه . وقد لبى الشعراء هذه الدعوة ونظموا كثيراً من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة . وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة « وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغانى ، ومنتشرة بين الناس ، يتغنون بها فى أوقات سمرهم » ومن أشهر مؤلفى الأغانى فى ذلك الوقت عبد الله الشبراوى . قال :

والله مليح وجميل وكامل الاوصاف وأنا احبه ملو قلبى وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل فى رقته أما كلامه ما أحلاه

وقال :

شفته على غفله قوى حبيته أسمر ومن طبعى أحب الاسمر
ميلت ناغشته لقيت له رقه ولطف زايد والبشاشه اكتر
يا أهل الأدب والله وحق المختار ما شفت عمرى فى الجمال مثله
قمر مصور ما نظرتش حسنه فى حد من بعده ولا من قبله

وقد سجل الشعر الشعبي كثيراً من الوقائع التى جرت بين المصريين

والفرنسيين إبان الحملة الفرنسية . من ذلك قول أحد الزجالين من ملحمة طويلة :

حازوا بيوت الغز سكنوا فيها   وباشهم خيم ببيت الألفى
عسكرهم بالأزبكيه صاروا   على البيوت ما عاد لهم بيت يكفى
وزيرهم خيم ببيت البكرى   والكمسارى حل ببيت الجلفى
قايم مقام دوبى سكن ببيت هانم   والجند فى الأسواق تراهم خطار
حتى الديار تشقى فكن مستبصر   هذى مواعظ جت لأهل الأبصار

ومنها وفيه إشارة إلى الثورة التى نشبت ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ :

نادى منادى فى البلد بالنهضه   قالوا الجهاد مفروض على دى الأمه
راح الخبر فى الحال إلى بيت دوبى   قايم مقام فاغتاظ وقام فى همه
هجم عليه زمزوم ودشوا راسه   فمات وبعده اشتد كرب الزحمه
وجات عساكر مسرعة لا تحصر   وقاتلوا الإسلام وباعوا الأعمار
يومين قتال والحرب زايد قدره   ما خلتهم إلا عفاريت عمار

وعقب إخماد الثورة شدد الجنرال برتلى على الحركة الوطنية واضطهدها اضطهاداً عظيما . وقد عرف عند العامة باسم فرط الرمان . وإليه يشير الزجال المتقدم فى قوله :

من بعد هذا الأمر دار الوالى   مع الأغا والكلب فرط الرمان
حاشوا خلايق فى حبوس القلعه   قد أسجنوهم والمقدر كان
من كان فرغ عمره قتل فى ليله   ومن خلص من عزته قد هان
وتمموا النكته بقتل السته   اللى تقدم ذكرهم فى الأدوار
يا عين عليهم بالمدامع جودى   واجعلى دموعك عليهم غزار

والمدرسة الشعبية ما زالت قائمة تؤدى رسالتها . وقد اتسعت دائرتها بعد ظهور المجلات الهزلية وأصبحت تتناول جميع نواحى الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وعاطفية . وكثرت الأغانى كثرة لم يسبق لها مثيل وبخاصة بعد إقامة دور الإذاعـة وتنافس المغنين فى إلقاء أدوار جديدة .

الباب الثالث

دراسات تكميلية فى الشعر

تكلمنا فى الباب الثانى على مدارس الشعر وبيئاته . وفى هذا الباب سنتكلم على الشعر الذى نظمه الشعراء استجابة للفن الشعرى وحده . فمن ذلك :

١
الوصف

كثر فى هذا العصر وصف الشعراء للحدائق والبساتين ، والثمار والمياه . ونستطيع أن نؤلف مجلداً ضخماً من آثار الشعراء والكتاب فى حديقة الأزبكية وحدها ، وفى بساتين بولاق . وقد امتازت هذه القصائد الوصفية برقة أساليبها وسهولتها ، وجودة معانيها وصدق عاطفة ناظميها وبراعتهم الفنية . ففيها التشبيهات اللطيفة والصور الجميلة . وفيها حيوية فياضة وشعور متدفق . مثال ذلك قول الشبراوى من قصيدة طويلة :

فى كثيب من الجزيرة يختا ... ل دلالا فى حلّة خضراءِ
حيث مجرى الخليج والماء فيه ... يتثنى كالحية الرقطـاء
ثم عج بى للنهز عن أيمن الـ ... ـقصر ففى ذاك راحتى وهنائى
حيث مالت نحو الظباء ظباء ... بقدود تفرى أديم الحشاءِ
حيث تختال فى ملابسها الغز ... لان تيهاً بفدفد تيهاء
حيث تلقى العشاق بين صريع ... أو قتيل مضرج بدماءِ
روضة راضها النسيم سحيرا ... باعتلال صحت به واعتلاء

وأصول الأشجار ترسب فى قيـ ـد من الماء ضيق الأرجاء
ولطيف النسـيم يعبث بالغصـ ـن فيهتز هـزة استهزاء
وترى الغصن تارة يتمطى فى اعتدال وتاوة فى انحناء
وغدير اللجين ينساب طوراً باعوجاج وتارة باستواء
قنوات كأنها الزرد المنـ ـظوم وقت الهيجاء تحت اللواء
يا خرير الخليج تفديك نفسى فلكم نلت فى هواك شفائى
يا نديمى جدِّد بذكراه وجدى واحى ذاك الغرام بالإغراء
هات حدث عن نيل مصر ودعنى من فرات ودجلة فيحاء
وأعد لى حديث لذات مصر فحديث اللذات عنِّى نائى
أى عيش يطيب فى مصر إلا بمليح متوج بالبهاء
نزِّه الطرف بين قدّ وخدّ وجبين وطلعة حسناء
فرعى الله أرض مصر وما ضمته من أهيف ومن هيفاء
إن مصر لأحسن الأرض عندى وعلى نيلها قصرت رجائى

فالشبراوى فى هذه القصيدة يصف لنا جزيرة الروضة وما فيها من حدائق وبساتين . ويقول إن هذه الجزيرة تختال دلالا بما فيها من أبسطة سندسية خضراء تأخذ بمجامع القلوب . ثم يتحدث عن مجرى الخليج ويشبه الماء حين يجرى فيه بالحية الرقطاء . والرقطة بياض يشوبه نقط سوداء أو بالعكس . ثم أخذ يحدثنا عن جمال النساء اللاتى كن يخرجن فى تلك الجهة ، وعن اجتماع العشاق الذين أضرّ بهم العشق وأضناهم الغرام . ثم عاد إلى وصف للمناظر الطبيعية بجزيرة الروضة . فالنسيم عليل ، والهواء نقى منعش . . والأشجار على حافات الجداول لجذورها راسبة فى ماء ضحل . والنسيم يداعب الأغصان فتهتز استهزاء به . والأغصان تارة تمتد معتدلة وتارة تنحنى . وجداول الماء التى تبدو كالفضة تنساب مرة معوجة ومرة مستوية . وهى تشبه الدروع أو السيوف حينما تعد للقتال فى وقت الحرب

ثم أخذ يخاطب خرير الماء المتدفق فى الخليج ، ويقول إنه كثيراً ماشفى نفسه من آلام الحب وأسقام الغرام بجوار هذا الماء وفى كنفه . ثم وجه الخطاب إلى نديمه الذى صحبه فى تلك الأماكن والتمس منه أن يعيد على مسامعه ذكريات الأيام الحلوة التى أمضاها بين جزيرة الروضة ومجرى الخليج ، لأن هذه الذكريات تبعث فى نفسه اللذة والنشوة والارتياح ، ولأنها تجدد حبه القديم ، وتبعث غرامه إلى الحياة . ويقول إن نهر النيل عنده أفضل أنهار العالم ، لا يعادله دجلة أو الفرات أو أى نهر آخر على سطح الأرض . وهو يطرب طرباً عظيما إذا حدثته عن مصر ونيلها ، وجزيرة الروضة ومجرى الخليج . والحياة فى مصر لا تحلو إلا فى صحبة امرأة جميلة يمتع عينيه بمشاهدة قوامها الممشوق وخدودها الوردية وجبينها المشرق وطلعتها البهية . ثم دعا الله أن يحفظ مصر ومن بها من أرباب الجمال والحسن ، وأهل الفتنة والملاحة .

وقد كان الشبراوى رحل لأداء فريضة الحج . والحجاز كما لا يخفى بلاد صحراوية لا زرع فيها ولا ماء . فهناك أدرك القيمة الكبرى لنهر النيل ولمياهه العذبة ، ولجزيرة الروضة وما بها من الحدائق والبساتين والحقول الناضرة ، والأشجار المورقة . وقارن بين بيئة الحجاز الصحراوية ، وبين بيئة مصر الخصبة الزراعية . ووازن بين الحجاز الذى يشح فيه الماء ويغلو سعره ، وبين مصر ونيلها العظيم فانعكست هذه الحالة النفسية فى شعره الذى يذكر فيه نهر النيل . انظر إليه حين يقول :

أعد ذكر مصر إن قلبى مولع ... بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها ... فقد ردت الأمواج سائله نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه ... وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويداً إذا حدثتنى عن ربوعها ... فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة ... تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا

إلى أن يقول :

على نيلها شوقاً أصب مدامعي وأصبو إلى غدران روضتها الغرا
إذا حذرتني بلدة عن تشوق إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها وأروى بماء النيل مهجتى الحرا
. . . . . . الخ

وهذا كله انعكاس لأثر البيئة الصحراوية التى قاسى آلامها وأهوالها ، وعدم فيها الماء حتى أضرّ به العطش . فإذ ذاك عرف النعمة الكبرى لنهر النيل فتغنى بذكره فى غير ملل ولا ضجر . بل إن تكرار ذكر النيل كان يحدث فى نفسه لذة لا تضارعها لذة ، ومتعة لا تعادلها متعة . إنه فى هذه الأبيات يظهر للنيل قداسة تصل إلى درجة العبادة . وهذا لا يحدث إلا ممن كاد يهلكه العطش .

وكان الشبراوى يجمع بين وصف الطبيعة وما فيها من فتنة ، ووصف النساء وما فيهن من حسن وبهاء . ويدعو إلى عبادة الجمال أينما وجد ، جمال الطبيعة وجمال الإنسان . وقد جاراه فى مذهبه شعراء كثيرون .

* * *

وقال الشهاب الخفاجى :

قَدَحت رعود البرق زندا أضرْمنَ أشجاناً ووجدا
فى خيمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى تشاءبَ نوره وتمطت الأغصان قدّا
وأتى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مُفاضة سردت له النسمات سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نردا

فسقى معاهد بالحمى من عنبر للمسك أهدى
عجباً لدر ناصع أودعن فى مسك مُندى
فى ظل عيش ناعم بنسيم أسحار تردّى
. . . الخ

وهذا وصف جميل . ففى ليلة تراكم سحابها واشتد ظلامها ؛ سمع صوت الرعد وتلاه البرق فكأنه زند أشعل نيران الحب والغرام. وانتشرت الروائح الجميلة التى تفوق رائحة المسك . ومر النسيم العليل يداعب الأغصان التى كانت فى نوم عميق ، فاستيقظت وأخذت تتمطى لتزيل عن نفسها آثار النوم . كما أن الأزهار طفقت تتثاءب . وبدت مياه الجداول كأنها دروع نسجها النسيم العليل وأحكم نسجها . حقا ! لقد امتزج الشاعر بالطبيعة وتفاعل معها فجاءت قصيدته صدى لما انطوت عليه جوانحه .

وقال الصلاحى من قصيدة طويلة :

ياطيب أنفاس الربيـــ ع ففى تنفسها عبير
والجو مجمرة عليـــ ها من ضبابتها بخور
وافت به رود بأســ رارى لها طرف خبير
وسعت على طرق الجدا ول والنسيم لها سفير
وطروس قامتهـا علي ها من ضفائرها سطور
ياطيب ما تملى الشعو روحسن ما نقل الغدير
ما ذاك إلا فرع ليـ ل قد تبلج فيه نور
والورق ساجعة لهـا من كل ناحية سمير
والريح تعتنق الغصو ن بها فتعتنق الزهور
وبدت شموس الراح تحـ ملها الكواكب والبدور

فقضيت منها ما قضيـ ـت وكان لى ولها أمور
وضممتها عنـد الودا ع وكل أنفاسى زفير
وبكت عيون السحـ ـب حين تساقط الدمع الغزير
تحتا معا فتحلت الـ أغصان منا والنحور

... الخ

فالصلاحى قد مزج وصف الطبيعة بالغزل ، بل إنه تغزل فى الطبيعة نفسها غزلا لطيفا يسيل رقة وعذوبة . ووصفه للطبيعة كما ترى يفيض بالحيوية ويزخر بالحركة والنشاط . فالجو معطر بأنفاس الربيع حتى كأنه يشبه مجمرة البخور التى تفوح منها الروائح الشذية الجميلة . وهذه المجمرة قد حملتها إليه فتاة رائعة الحسن ، ومشت على حافات الجداول حتى وصلت إليه ، وقد سبقها النسيم مبشرا بقدومها بما يحمله من رائحتها الطيبة . وشعرها كأنه الليل فى شدة سواده ، ووجهها الذى يظهر من خلال شعرها الأسود كأنه النور الذى يتبدى فى جنح الليل . وتحدث عن تغريد الطيور والخمر وما فعلته به ، ولقائه مع هذه الغادة ، وما جرى بينهما فى ساعة الوداع حين انهمرت دموعه مع انهمار الأمطار .

* * *

فإذا تركنا وصف الطبيعة إلى وصف الأشياء ، وجدنا لشعراء هذا العصر قصائد رائعة . مثال ذلك قول نور الدين العسيلى من شعراء القرن الحادى عشر يصف دولابا « ساقية » :

ودولاب مررت به سحيرا يئن كأنه الصب المروع
غدت أضلاعه تنعد سقما ويفنى جسمه صب الدموع
يدور كمن أضل الألف منه وذاق تشتت الشمل الجميع
فقلت له فديتك من كئيب كساه الهم أثواب الخشوع

علام أراك تبكى كل وقت | وتهتف فى المنازل والربوع ؟
فقد قربت لى حزناً بعيداً | ونحانى نواحك عن هجوعى
فقال : أما علمت بأن مثلى | خليق بالصبابة والولوع ؟
فإنى كنت فى روض رفيعا | أبيت من الأزاهر فى جموع
ولى فى المنتمى أعراق صدق | أصول أنجبت أزكى فروع
إذا ما الورد قابلنى وحيا | تضرج وجنتاه بالنجيع
ويصفر البهار لدىَّ خوفا | كصفرة عاشق صب مروع
وإن قصدت بنو الآداب ربعى | أجود من النثار على الجميع
فقيضنى الشقاء إلى غبىّ | شديد البطش جبار قطوع
فألقانى على رأسى صريعا | وأنت مشاهد حال الصريع
وقطع لطف أوصالى بعنف | وصار يدق عظمى فى ضلوعى
فصرت أرى الذى قد كان دونى | أناف وصار ذا شأو رفيع
على قلبى أدور عناً وأبكى | عليه أسى كمقلات هلوع
فكيف ألام إن أدمنت نوحى | وجدت بدمع الطرف الهموع؟
وحالى ناصح أبناء جنسى | فلا تعتمد بالجذع المنيع
فإن الدهر كالصياد كيدا | وأسباب القضا شرك الوقوع

فهذه قصة لطيفة نظمها الشاعر فى قصيدة رائعة مؤثرة ، تنتهى بمغزى مفيد ، وعبرة نافعة وعظة بالغة . وانظر إلى هذه الصور الجميلة التى اشتملت عليها تلك القصيدة . فقد صور الشاعر الدولاب فى صورة تزخر بالحيوية . صورة عاشق ولهان يتألم ويتوجع ويتأوه من ألم العشق وشدة الوجد ، وعنف الغرام ، حتى اعتل وساءت صحته ونحل جسمه ، فظهرت ضلوعه بحيث يمكن رؤيتها ، ويسهل عدها . وكاد جسده يفنى من غزارة الدموع التى يسكبها ، ومن الحزن الذى ألم به . وهو لا ينقطع عن الدوران كأنه

يبحث عن حبيب فقده . ثم وقف الشاعر أمامه يسأله عن سبب بكائه الدائم ونواحه وعويله . وقال إن أنين الدولاب الحزين قد قرب إليه حزناً كان بعيدا عنه ، وأعاد إلى ذهنه ذكريات أليمة كان قد نسيها . وبذلك سبب له أرقا مستمرا ، وطرد النوم عن عينيه .

فرد عليه الدولاب شارحا أسباب نوحه وبكائه . فقال إن مثله جدير بالحزن والبكاء لأنه كان شجرة عظيمة فى روضة غناء ، تحيط بها الأزهار من كل جانب . إذا قابلها الورد حياها واحمر خجلا لرؤياها . وإذا شاهدها البهار اصفر خوفا ورهبة . وإن ذهب إليها أهل الأدب أظلتهم بأغصانها المورقة ، ونثرت عليهم ثمارها . فقيض لها سوء طالعها أحد الأشقياء الأغبياء الجبابرة فبطش بها بطشة كبرى ، وصرعها فى غير رحمة ولا شفقة . واقتلعها من جذورها وألقاها على الأرض ، وقطعها بمنتهى العنف . فالذى كان فى نظرها حقيرا ارتفع شأنه وعلا قدره ، وغدا عظيما إذا قورن بها فى حالتها الزرية التى صارت إليها . فهى تدور وتبكى حزناً على نفسها ، ولا ينبغى أن يلومها إنسان إن هى سكبت الدموع مدرارا . وختمت كلامها بإسداء النصح لأبناء جنسها .

ومضمون النصيحة أنه لا يجب أن يغتر الإنسان بنفسه ، ويعتقد أنه فى مأمن من الدهر وحوادثه ، والزمان وكوارثه . بل يجب أن يأخذ حذره على الدوام . فالدهر كالصياد الذى ينتهز الفرص ليظفر بالفريسة . والقضاء هو الشرك الذى يقع فيه الإنسان . لقد وفق الشاعر فى هذه القصيدة إلى حد بعيد ، وأجاد وأبدع .

— ٢ —

الغزل

لم يخل الإنسان فى يوم من الأيام من عاطفة الحب للجنس الآخر. وقد امتاز الغزل فى العصر العثمانى بالرقة والسلاسة ، وانتشر انتشارا واسعا فى الشعر الفصيح ، وفى الشعر العامى الذى يتمثل فى الأغانى والموشحات والأزجال والمواويل . وإن الأغانى المصرية فى ذلك الوقت كانت تدور كلها تقريبا حول الحبيب وبعده ، وهجره وصده ، وتمنى لقائه ، والتحدث عن جمال عيونه ورموشه ، وقامته الممشوقة ، وخدوده الموردة . وكثيرا ما يمزجون الغزل بوصف الأزهار والأغصان ، والرياض والغياض ، والنسيم العليل والروائح الشذية ، والحديث عن الخمر . ويستعملون ضمير المذكر مع أنهم يتغزلون فى الأنثى مثال ذلك قول الشبراوى :

فى مجلس من مافيه عيب سوى   نمام عارضه ونفحة ورده
وتناثرت أزهاره لما رأى   هذا الغزال محجبا فى برده
ياما أحيلى قده لما مشى   فى مجلس تيها وجاد بوعده
ودنا وأتحفنى وأطفأ لوعتى   وشفى فؤادى من تأهف بعده
يا عاذلى دعنى فما قلبى معى   أسلوه بل فى حكمه وبيده

فالشاعر هنا يصف اجتماعه مع حبيبته مستخدما ضمير المذكر . ويقول إنه فى موضع بعيد عن الأنظار غير أن رائحة الحبيب الجميلة التى تفوح منه ، ووجهه المشرق الوضاء قد يدلان على مكانهما . ثم وصف ماشعر به من اللذة والنشوة حين أمضى مع هذه الغادة بعض الوقت . وتصور العاذل أى اللائم فى الحب يلومه فى هواه ، فقال إنه لايستطيع أن يتناسى حبه هذا ، لأن قلبه قد وقع أسيرا فى يد المحبوب .

ويرجع انتشار حديث الحب فى الشعر المصرى خلال العصر العثمانى إلى عدة أمور :

١ — ميل المصريين إلى التفريج عن أنفسهم والتخفيف عن آلامهم الناتجة عن ظلم الحكام وقسوتهم . ولا شىء يفرج عن النفس أكثر من الحديث عن الحب واللقاء والعناق والتقبيل وغير ذلك .

٢ — ميل بعض المصريين إلى حياة الطرب واللهو ، ولا يتم ذلك إلا بذكر الحب والتغزل بجمال الإنسان وجمال الطبيعة .

٣ — ميلهم إلى إقامة الأفراح والموالد . وليس هناك ما يصلح للغناء فى هذه المناسبات إلا أغانى الحب .

٤ — ميل بعضهم إلى التمتع باللذة الجنسية إلى درجة الإفراط ، وهذا ناتج عن طبيعة الجو .

وإنك لتجد العمال المصريين يقومون بأشق الأعمال ، والعرق يتصبب من أجسامهم ، ومع ذلك ترتفع أصواتهم بترديد أغانى الحب ، وما ذلك إلا لرغبتهم فى التسرية عن أنفسهم ، وطرد الآلام التى تحل بهم .

وقد لاحظ بعض الغربيين أن الإباحية تختلط بالدين فى شعرنا الغزلى ، الفصيح والعامى . قال إدوارد[1] لين الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ : « ولقد سمعت أغنية لم يؤذ سمعى مثلها فى رخاوتها ورقاعتها . وفيها يصف عاشق مستهتر شعوره حين وقعت عيناه على فتاة جميلة فيقول : سبحان من صورك يا بدر . فهو يسبح الله ، ثم يمضى فيقذع فى وصف مغامرته الغرامية . وقس على ذلك بقية أغانيهم . وفيما يلى أغنية عن الحب والخمر تعد مثالا لخلط الإباحية بالدين فى الشعر العامى والشعر المنثور . ولما كان من عادة المصريين

(١) إنجليزى يتحدث عن مصر ص ٨١ وما بعدها .

استعمال ضمير المذكر فى أغانيهم العاطفية فى الوقت الذى يخاطبون فيه الأنثى فقد عمدت فى ترجمتى هذه الأغنية إلى الإنجليزية إلى استعمال ضمير المؤنث بدلا من المذكر. وهذه هى الأغنية :

جاد بالوصال ، رشيق القوام
بعد بُعده ودلاله ، بست اسنانه وخده
ورن الكاس فى إيده ، وفاح المسك والعنبر .
من اللى قوامه فاق غصن البان
فرش لى حبيبى فرش بالقصب
وقضيت الوقت فى هنا موصول
ودلوقت اطلب من الله مولاى
يغفرلى ذنوبى وآثامى
وكل اللى قاله قلبى ، دى أعضائى تشهد علىّ
وكل ما يشتد كربى أنت يا ربى رجاىَ
أنت الكريم الغفور، احفظنى يا رب واعف عنى
وأصلى على المخلوق الكريم ، اللى ضللت عليه الغمامه
وحيشفع لنا يوم القيامه

قال إدوارد لين « وقد دخل على أحد أصدقائى وأنا أدون هذه الملاحظات ، فقرأت عليه هذه الفقرات من الأغنية ، وسألته : هل يعتقد أنه من اللائق أن يجمع بين الدين والعربدة على هذه الصورة ؟ فأجاب قائلا : لا غضاضة مطلقاً . هذا رجل يحكى كيف اقترف إثماً ثم يسأل الله العفو والمغفرة ويصلى على نبيه . فقلت : ولكن هذه أغنية كتبت لكى يتغنى بها أناس يقترفون المنكر وما حرمه الله . انظر معى هنا : إننى إذا أغلقت صفحات الكتاب هكذا فإن الجزء منها الذى كتب فيه كيف ارتكب الرجل خطيئته سوف يلتصق وجهاً لوجه بذلك الذى كتب فيه اسم الله. وبذلك يعلو ارتكاب الخطيئة على طلب المغفرة » .

« فأجاب صديقى قائلا : هذا هراء : اقلب الكتاب فاجعل أسفله أعلاه من ذلك الجانب ، وحينذاك ينقلب الوضع فيصبح الاستغفار فوق الخطيئة ويعلو عليها . والله تعالى يقول : قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وأنا لا أرى ما رآه إدوارد لين من اختلاط الإباحية بالدين فى هذه الأغانى . والأصح أن يقال إن الإنسان ينطوى على جانب روحانى ، وآخر حيوانى . فإذا أراد الجانب الحيوانى أن يظهر ويتغلب على الإنسان قاومه الجانب الروحانى ، وهنا نرى النزاع النفسى بين الجانبين . وحين ينتصر الجانب الروحانى يكون مصحوباً بالشعور بالذنب والندم على ما فرط من الإثم ، والرغبة فى الرجوع إلى الله . يتضح ذلك مما جاء فى الأغنية المتقدمة « ودلوقت أطلب من الله مولاى يغفر لى ذنوبى وآثامى » أى بعد أن أخذ الجانب الحيوانى مجراه الطبيعى شعر الإنسان بالندم فرجع إلى الله تائباً مستغفراً ، معترفاً بذنبه وضعفه . ومن الأمثال الشائعة بيننا «ساعة لقلبك وساعة لربك » ففى ساعة القلب يفرج المصرى عن نفسه بالتحدث عن النساء الجميلات . وما زالت أغانى الحب هى السائدة فى عصرنا ، وهى التى يقبل الناس على سماعها .

وانتشار الشعر الغزلى فى العصر العثمانى يشبه فى أيامنا انتشار الروايات التى تدور حول الحب ، والقصص التى تتناول العشق . ومن لطيف الشعر الغزلى قول عبد الله الشبراوى :

منتهى الآمال عندى أهيف   وجفون زانها ذاك السواد
وخدود تتلظى حمرة   ودلال قد نفى عنى الرقاد
إن ذنبى عند من يعذلنى   أن قلبى فى الهوى لو رُدّ عاد
يا أهيل العشق هل من منجد   هل سلا الأحباب ذو وجد وساد ؟
ما احتيالى فى الهوى ؟ ما عملى ؟   ليس لى إلا على الله اعتماد

بين جفنى والكرى معترك　　واختلاف وشقاق وعناد
فتنتى ظبى ظريف أهيف　　كلما قلت جفاه زال زاد
إن يكن عشقى له أفسدنى　　فاعلموا أنىَ راض بالفساد
ورشادى إن يكن فى سلوتى　　فدعونى لست أرضى بالرشاد
هو قصدى لست أسلوه وإن　　صرت فيه مُثلة بين العباد

ففى هذه القصيدة نلاحظ السهولة فى التعبير . ويقول الشبراوى إن كان حبه ضرباً من الفساد فهو مرتاح إليه ، راض بأن ينظم فى صفوف المفسدين ، ولا يرضى أن ينظم فى سلك الراشدين المهتدين إن كان رشاده فى ترك الحب .

وله من قصيدة :

وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا　　وأسخط من ذكر السلوّ وأغضب
وعشق القدود الهيف عندى عقيدة　　وطبع عليه قد ربيت ومذهب
قضى الله أن الحب أعلى فضيلة　　وأن الهوى أحلى نعيما وأعذب

ويذكر الشبراوى فى شعره أنه عالم بفنون الغرام ، وأن علمه قائم على التجربة والاختبار . ويدعو الناس إلى أن يتلقوا عنه هذه الفنون دون سواه ، فهو الخبير بها ، العالم بأسرارها . ويقول إن الحب فى المرتبة العليا من مراتب الفضيلة . وهو أحلى النعم وأعذبها وأجملها مذاقاً . وقد وقف قلبه على أرباب الجمال وأهل الحسن والفتنة . والهيام بالقامة الممشوقة والخصر النحيل دينه الذى يعتقده وسجيته التى نشأ عليها . فهو والحالة هذه يعبد الجمال ويهيم بالحسن حيث وجده . ويقول إنه اتخذ الحب دينه ، وموته فى سبيل الحب مذهبه :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى　　وموتى شهيداً فى الصبابة مذهبى

وقد وصف اجتماعاً له مع إحدى عشيقاته فقال :

عانقته فاسودت المقل التى　　هى بلوتى واحمرت الوَجَنات

وضممت قامته نخلت كأنها   قد عجلت لذاتها الجنات
ياقلب إن زعم العواذل أنه   فى الحسن يوجد مثله قل هاتوا
مازلت أجنى من لذيذ خطابه   تحفا لها من طيبه نفحات
وبلغت قصدى حيث جاء لمنزلى   هذا الغزال ورقت الأوقات
ودنا يودعنى فلا وأبيك ما   بقيت لدى التوديع فى حياة

فهو يذكر ماجرى فى هذا الاجتماع من الضم والعناق والتقبيل فى شعر يكاد يلتهب بالعاطفة ، وأسلوب يسيل رقة وعذوبة .

* * *

وقال يوسف الحفناوى ، وكان من شعراء الأمير كتخدا رضوان :

ملأ الفؤاد هوى ووجدا   رشأ لعينى السهد أهدى
مترنح الأعطاف قد   نشر الجمال عليه بردا
يختـال فى حلل الدلا   ل فيزدرى بالبان قدا
ريم سـلاف حديثه   أشهى من الصهباء وردا
لدن القوام لقده الـ   أغصان تسجد إن تبدى
يرنو فيلعب بالنهى   ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجمال طلـ   عته ملاح العصر جندا
بجفونه النعس المرا   ض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف لحظيه اتخذ   ن جوانح العشاق غمدا
... الخ

وليوسف الحفناوى غزل كثير من هذا النوع . وكله سهل العبارة ، سليم الأسلوب ، جميل الصياغة . حقا إن المعانى الواردة فى هذه الأبيات

متداولة ومعروفة ، ولكن الشاعر استطاع أن يجيء بها فى شعر موسيقى مرقص مطرب فبدت كأنها جديدة .

وقال عبد الله الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢هـ

عذاره لما بدا كالآس فى الروض استقر
سبى الرجال مثلما سبى لربات الحجر
رأينه أكبرنه وهو لهن قد بهر
وقد قطعن أيديا وقلن ما هذا بشر
وخده لما احتسى من كل من له نظر
أرخى العذار ساترا وردا وحينا قد ظهر
وظن ذاك مانعا فصار يخطف بالبصر
فى مصر أضحى مفردا جماله قد اشتهر

وهذا غزل بالمذكر . وفيه يشبه المحبوب بيوسف الصديق فى روعة جماله ويقول إنه أسر قلوب الرجال والنساء . ثم نظر إلى قصة يوسف الصديق ، وما جاء فيها من أنه لما دخل على النسوة أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن ماهذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم . وقد حافظ على الموسيقى الشعرية مع مافى هذه الأبيات من الاقتباس ، وهذا يدل على البراعة الفنية والملكة الشعرية .

وقال :

ياشادنا ما أصيده عقولنا والأفئده
ويارشا قوامه إذا انثنى ما أميده
ومصلتا من لحظه على الورى مهنده
ومصليا حشاشتى جمر اشتياق أوقده
وباعثا لمهجتى سهامه المسدده
وساترا صبح البها بالطرة المجعده

وسالبا منى النهى بالوجنة الموردة
وسـاحرا بجفنه هاروت رأس الفسده

... الخ

ولم يكن الإدكاوى عاشقا لشخص معين ، وإنما كان كغيره من شعراء عصره يعجب بالحسن ويفتن بالجمال • ثم يصور مشاعره وأحاسيسه فى هذه القصائد الرقيقة ذات الطابع الموسيقى الجميل •

وانظر إلى قول السبربائى المتوفى سنة ١٢١٠هـ

قد كنت فيما مر من أيامى مولعا بالحب والغرام
أهوى مليح القد والقوام ومن لمـاه العذب كالمدام
وخده الوردى مثل الجمر

وأعشق الظبى الأغن الأغيد من قده مثل الغصون أميد
ووجهه له الملوك سجد إذا رأته الأسد خوفا ترعد
من لحظه وما حوى من سحر

لا سيما من كان فى دلاله كيوسف الصديق فى جماله
أوغصن بان ماس فى اعتداله أو بدر تمّ لاح فى كماله
فى أربع بالشهر بعد العشر

وأشتهى مليحـة الطباع جميلة الأخلاق والأوضاع
ونزهة الأبصار والأسماع من كل فى أوصافها يراعى
وحسنها قد حار فيه فكرى

كحيلة العينين كالحوراء إذا تثنت حار فيهـا الرائى
حديثها أشهى من الصهباء إلى النفوس أو زلال الماء
عند الهجير فى اشتداد الحر

... الخ

فالسبربائى فى هذه المزدوجة الطويلة يذكر لنا ما كان عليه فى أيام صباه من التهافت على ربات الحسن والجمال ، وما حدث له من هجر ووصل . ويتحدث عن الأوقات السعيدة التى قضاها مع المحبوب بين الرياض فى ظل الأشجار ، وبالقرب من جداول الماء حيث النسيم العليل ، والهواء البليل ، والورد والياسمين ، ويعترف بأنه ارتكب المعاصى وغرق فى بحار الشهوات .

قال :

وكم إلى العصيان قد سارعت — ولارتكاب الإثم قد بادرت

وخالقى بالذنب قد بارزت — وسيدى لأمره خالفت

وقد نسيت وحشتى فى قبرى

* * *

وقال الخشاب :

طرفى عليك بميل السهد مكتحل — شوقا إليك وفيك الدمع منهمل

أبيت ليلى سمير النجم أرقبه — لاذقت بى وجنح الليل منسدل

تالله تالله قد أوهى الهوى جلدى — وعيل صبرى وازدادت بى العلل

لا كان يوم النوى، لاحان موعده — يوم تسير به روحى وترتحل

واحر قلباه ممن أشتكيه ومن — حر الفراق ومن عينيك مافعلوا

ومن لواعج أشواق أعالجها — يضرمن فى مهجتى نارا فتشتعل

ملكت قلبى ولبى قد سلبت فلا — برأ أراه ولا حول ولا حيل

فارفق بصب مشوق ذاب فيك أسى — وكاد يغشاه من وشك النوى الخبل

وامنن بلثمى خدا صين عن نظر — لم تدن منه ولا من طيفه القبل

فأنت مجلى سرورى ياجلا نظرى — وأنت دائى دوائى بغيتى الأمل

قد سد باب اصطبارى وارتحلت به — فلست أسلوك حتى ينقضى الأجل

وهذه القصيدة تنبض بعاطفة الحب الصادق . ويقسم الخشاب بأن الحب قد أضعفه وأسقمه وذهب بصبره . ويعبر عن آلامه وأحزانه لاقتراب موعد رحيل هذا المحبوب . ويقول إن روحه هي التي سترحل عنه في هذا اليوم المشئوم ، وأن نيران الحب ستزداد اشتعالا بين جوانحه ، لأن المحبوب قد ملك عقله ولبه ، ولا يرجى له شفاء مما به من الآلام والأسقام . ولم تبق عنده قوة ولا إرادة . ويطلب من المحبوب أن يجود عليه بقبلة فهو مظهر سروره وشفاء عينه .

وقد ذكر الجبرتي في ترجمة الخشاب أنه في زمن الاحتلال الفرنسي عشق شاباً من شبان الفرنسيين ، كان جميل الصورة ، لطيفا ، دمث الأخلاق ، ملما ببعض العلوم العربية ، مغرماً بالأدب العربي ، يجيد التحدث باللسان العربي ، حافظا لكثير من الشعر . فوجد كل منهما في صاحبه تجانسا وتوافقا ، فمال كل منهما إلى الآخر ، ووقع بينهما حب شديد حتى كان لا يقدر أحدهما على فراق صاحبه . واسم هذا الشاب « ريج » ومن قول الخشاب في الغزل بهذا الشاب .

يهتز كالغصن ماس معتدلا
أطلع بدرا عليه قد سدلا
غيهب
يزري بسمر الرماح إن خطرا
ساحر جفن لمهجتي سحرا
علم عيني البكاء والسهرا
فكيف أبغي بحبه بدلا
وليس لي عنه جار أو عدلا
مهرب

* * *

وجرى شعراء هذا العصر على سنة القدماء فى الجمع بين الغزل ووصف الخمر والدعوة إلى شرابها ، وذكر الغناء والطرب مثال ذلك قول الخشاب :

أدر لى فى الربا القدحا وكن للعذل مطرحا
ونبه صاح ساقيها فضوء الصبح قد وضحا
وثغر الزهر مبتسم وشادى الورق قد صدحا
وخذها من يدى رشإ مليح قد حوى ملحا
غزال إن يلح للبدر أو غصن النقا افتضحا
وقبل فاه مرتشفا مداما تجلب الفرحا

. . . الخ

وقوله :

أدر السلاف على صدى الألحان ودع العذول بجهله يلحانى
واستجل بكر الراح فى ظل الربى بين الرياض تزف والعيدان
شمس لها من فوق خد مديرها شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لألائها فى الخد نار فؤادى الولهان

. . . الخ

وليس هنا مايدعو إلى الظن بأن هذا الشعر كله الذى قيل فى الغزل والخمر والغناء واللهو ، والأنس والطرب ، هو من باب التقليد ، وبخاصة إذا علمنا أن عناصر هذا الشعر كانت موجودة فى حياتهم الواقعية . فالخمارات متوفرة وكذلك الرياض والجمال الإنسانى . أما من حيث أسلوب هذا الشعر فيمتاز بالسهولة والوضوح ، والطابع الموسيقى الجميل .

٣
الإخوانيات

كان الأدباء والشعراء فى هذا العصر يجتمعون فى ندوات ليلية فى منزل أحدهم أو فى منازل بعض الأعيان والأمراء . ويتسامرون وينشدون المقطعات ، ويروون النوادر والنكات . وقد زخرت كتب التراجم بأخبار هذه المجالس . فذكر الجبرتى مثلا فى ترجمة قاسم بن عطاء الله المصرى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ما نصه « واجتمع يوماً فى مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى . وكان الوقت مطيراً ، وقد جادت السماء فأعطت من قطر السحاب درا وعبيراً . فقال ابن الصلاحى مرتجلا :

لقدومكم ضحك الغما م فعلّم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كفك قد حكى

فقال المترجم فى الحال :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزيز جاهك قد شكا

وكان المترجم فى مجلس من الأدباء ، فكتب إلى ابن الصلاحى يستدعيه لذلك المجلس ما نصه :

مولاى يا نجل الصلاحى فُديت منّا بالنواظر
امنن وصحح جمعنا بجميل ذاتك والمآثر
وإذا حضرت تفضلا فاللطف عادات الأكابر
نثر الغمام على الرُّبى من فيضه يُتم الجواهر
ونريد نحظى عند نطـ ـقك بالفرائد والأزاهر

فكتب ابن الصلاحى مرتجلا قبل حضوره :

أتانى وذيل الأنجم الزُّهر يعثر ... وكفُّ الثريا للفراقد يستر
وقد نثر الدر المنظم فازدرى ... بما كان من درّ السحائب يقطر
وكيف ودرّ القَطر درٌّ مبدد ... ونظمكمو عقد من الروض مثمر
فحرك شوقاً كان من قبل فى الحشا ... كميناً لأن الشىء بالشىء يذكر
. . . . . . الخ

وكتب عبد الله الإدكاوى إلى مرتضى الزبيدى :

صُبِّحتَ بالخير يا من لا شبيه له ... فى العلم والحلم والإفضال والكتب
يا منتهى أمل اللاجى ومنتجع الرَّا ... جى وأكرم مسئول ومنتَدب
ها خِلُّك الصادق الود المحب غدا ... له اشتياق إلى لقياك يا أربى
فإن منتت به فهو المُنَى وإذا ... عاق القضاء فأمر غير مجتلب
هذا وقد جاءنى صبحاً بلا مهل ... ربُّ النهاية[(١)] يبغيها مع الطلب
أمَا وأمَّا فيارب البراعة يا ... معنى البلاغة يا روض الندَى الخَصِب
عجل بإرسالها فضلا وتكرمة ... وإن صحبت بها شيئاً من الذهب
فذاك جُلّ مرام الخِلّ منك فلا ... برحت تسخو لمن يرجو بلا سبب

فأجابه مرتضى الزبيدى بقوله :

ربَّ النهاية يا روض العلا الخَصِب ... لا زلت فى سَنَنِ الإفضال والأدب
أتى كتابك كالدر النظيم حلا ... على نحور الحسان البيض بالحبب
فراشَ كسرى بجبر منك أعهده ... فى الحالتين ومعنى ذاك غير خَبِى
حياك لا زلت فى عيش وفى دَعة ... ذا العز والعلم والإتقان والأدب
عاق القضاء من الإيفاء ما وعدت ... من الدراهم فى عُذر مع السبب
رب البلاغة قل رب النهاية إن ... يرى اصطبارى فإنى فيه ذا طلب
لا بد من أخذه لكنّ قيمته ... غال علىّ وهذا عذر ذى أرب

---

(١) يريد كتاب نهاية الأرب للقلقشندى .

إن شاء ربى فإنى ما تيسّر لى　　ندفع له ثمنـاً يرضى بلا تعب
أمّا وأمّا فهذا سرّ نكتته　　فلا برحت ترينا الدر بالذهب
باعى قصير ونظمى لا يُرَى ثمناً　　فاستر حباك إله العرش بالرّحب

فمن هذا وغيره ندرك أن الشعر استخدم بكثرة فى هذا العصر ليقوم مقام النثر فى الإخوانيات . فاستخدم فى الدعوة إلى المجالس والسهرات ، كما استخدم فى المطالبة بالحقوق والإجازات العلمية وتقريظ الكتب . فمن أمثلة تقريظ الكتب قول الظهورى المتوفى سنة ١٢١١ هـ :

لله درّك من بليغ ماهر　　جمع المعانىَ فى بديع كتابه
سحر العقول بلفظه وبنطقه　　وأبان فى معناه عن أنسابه
كَلِم كنظم العقد يحسن تحته　　معناه حسن الماء تحت حبابه
أعددت للبلغاء تأليفاً غدا　　فى فنه يسـمو على أترابه
وأراك نلت من الحجا حظاً غدا　　لا يستطاع وصوله من بابه
أوفت بك الهمم العلية منزلا　　مستصعباً صعباً على خُطّابه
والله يرعى سرح كل فضيلة　　حتى يروّجـه على أربابه
ألبست عصرك من بيانك حُـلة　　فمشى اختيالا فى بها أثوابه
. . . . . الخ

وامتاز شعر الإخوانيات كما ترى بالسهولة والعذوبة ، والبعد عن التكلف . وكانوا فى هذا النوع من الشعر يحتذون أسلوب الرسائل النثرية . مثال ذلك قول محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ :

يقبّل موطىء النعل الكريم　　ويخدم سُدّة القدْر العظيم
ويسأل ربه عوداً قريبـاً　　لرؤية ذلك الوجه الوسيم
. . . . . الخ

٤

التوســـــل

التوسل من أغراض الشعر التى عرفت قبل العصر العثمانى . وفى هذا العصر نظم الشعراء القصائد فى التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وطلب الشفاعة منه . وكانوا يمزجون التوسل بالمديح النبوى . مثال ذلك قول الشبراوى من قصيدة طويلة :

رسولَ الله ضاق بِيَ الفضاء ... وجل الخطب وانقطع الإخاء
رسول الله إنى مستجـــير ... بجاهك والزمان له اعتداء
وبى وجل شديد من ذنوبى ... وما أدرى أعَـفْـوٌ أم جزاء
وما كانت ذنوبى عن عناد ... ولـكن بالقضا غلب الشقاء
وظنى فيك يا طـه جميـل ... ومنك الجود يُعهد والسخاء
وحاشى أنْ أرى ضيماً وذلا ... ولى نسَـب بمدحك وانتماء
وأنت أجل من ركب المطايا ... وشيمتك السماحـة والحياء
وكم لك يا رسول الله فضـل ... تضيق الأرض عنـه والسماء
أقلنىَ من ذنوب أثقلتنى ... فأنت لعلّتى نعـم الدواء
وخذ بيدى فإنى عبـد سوء ... على كسب الذنوب له اجتراء
وكن لى شافعاً فى يوم حشر ... إذا ما اشتد بالناس البـلاء

فالشبراوى يذكر ذنوبه التى ارتـكبها ، ويشكو من الزمان والناس ، ويقول إن الدنيا ضاقت فى وجهه ، وأن الشقاء قد غلب عليه . ثم يمدح النبى صلى الله عليه وسلم بقوله إنه أعظم الناس طراً . ويعرب عن أمله فى أن يظفر بشفاعته ، ويلتمس من النبى أن يقيله من ذنوبه الـكثيرة التى أثقلت كاهله واعترف بأنه عبد سوء ، وأنه كان جريئاً فى ارتكاب المعاصى . وللشبراوى عدة قصائد فى هذا الموضوع ، وكلها تدور حول المعانى المتقدمة .

وقال محمد البكرى من قصيدة طويلة فى مدح النبى عليه السلام ، والتوسل به :

ألا يا خير مبعوث   له مولاه قد قرّبْ
ومَن بالعين أبصره   فعنه قط لا يحجب
ويا من لا يفى شخص   بمدحته وإن أطنب
أقلنى عثرة عظمت   فإنى ضاق بى المذهب
وكن لى ثُم أولادى   ومن لى فى الورى ينسب
وخلِّصنى وخصِّصْنى   بسرّ منك لا يسلب
أغث يا سيدى لَهَفِى   وإلا مَنْ له أذهب
بك استنصرت فانصرنى   فمن تنصره لا يغلب
بك استشفعت فاشفع لى   فمِنْ ذنبى لك المهرب

وتمتاز هذه القصيدة بالسهولة والوضوح والموسيقية الجميلة ، وصدق العاطفة .

وقد كثر فى هذا العصر التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت ، وكانت ساحات الموالد مجمعاً للشعراء يفدون عليها من كل صوب ، وينشدون قصائدهم فى مدح صاحب المولد والاستغاثة به ، والتوسل إلى الله به . ويمكننا أن نقول إن الشعراء جميعاً قد اشتركوا فى المعانى والآراء والأفكار . فهم يذكرون ما يعانون من الضيق ، ومن نكد الدهر ، وقلة النصير ، وانعدام المعين . ويلتمسون من صاحب الضريح أن يأخذ بيدهم ، وأن يشملهم بعطفه وبره . مثال ذلك قول الشبراوى متوسلا بالحسين :

يا ابن الرسول بأمك الزهرا البتو   ل وجدك المأمول عند الناس
وشقيقك الحسن الشهيد المرتضَى   الطاهر الأخلاق والأنفاس

وبحقّ حرمة جدك المبعوث من أزكى العناصر رحمة للناس
عطفاً علىّ فإن لى بك نسبة الحب أسسها أشدّ أساس
وعليك بعد الله ثم نبيه عولت فى الإقبال والإيناس
فلقد خصصت وأنت أشرف سيد بكريم أخلاق وطيب غراس
حاشى يخيب مؤمل يرجوك فى الـ إصباح أو يدعوك فى الإغلاس
يا رب غوثاً بالذى عوذته من غاسق يسطو ومن خنّاس
أزكى الورى خُلُقاً وأنداهم يداً وأعزهم شرفاً بلا إلباس
أدعوك يا خير الأنام مؤملا منك الرّضا والأمن بعد الياس

وتمتاز قصائد التوسل بصدق العاطفة ، وتدفق المشاعر ، وتوفر الإحساس . وهذه هى عناصر الإجادة فى الشعر . فسلامة الآراء أو فسادها لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما العامل الأول والأخير هو الإحساس الذى يعبر عنه هذا الشعر والعواطف التى يترجم لها . ولا شك فى أن التكلف لا وجود له فى هذا الميدان ، لأن الشعراء كانوا يؤمنون بما يقولون . وكانوا يعتقدون أن هذه القصائد التى ينظمونها فى التوسل تعود عليهم بالخير العميم ، والنفع الجزيل . وكانوا يذهبون إلى الأضرحة وينشدون قصائدهم أمامها فى ذلة وخشوع وخضوع ، معتقدين أن أصحاب الأضرحة يسمعونهم ، راجين أن تتحقق آمالهم ببركة هؤلاء الأولياء ، وتستجاب دعواتهم .

وفى كثير من هذه القصائد تجد الشاعر يذكر بإسهاب ما يلاقيه من الجحود والإنكار ، والنسيان والإهمال . انظر إلى الإدكاوى حين يقول من قصيدة طويلة فى مدح السيدة نفيسة والتوسل بها :

فبحق جدك يا حسيـ ـبة لى فكونى منجده
أشكو إليك زمان سو ء صرت فيه على حده

لا مسعف لا منصف لا ماجد يولى يده
كل على أمواله أقفال شح مرصده
بل كل دينار عليـ ـه حصون حرص موصده[١]
لا يسمحون بها سوى فى ظلم أو فى مفسده
لا يصنعون يدا تكو ن لدى الإله مخلده
ما وفق الرحمن منـ ـهم باخلا أو سدده[٢]
بل من رأى منهم طريـ ـقا للمكارم سدده[٣]

... الخ

فالإدكاوى صور لنا فى هذه القصيدة موقف الناس منه ، وما كابده بسبب ذلك من ضيق ونكد ، وغم وبؤس . وقد كرر هذه الصورة فى قصائد أخرى . فالشعر الذى نظم فى هذا الغرض يعطينا فى كثير منه فكرة واضحة عن حياة الشاعر الخاصة .

---

(١) موصدة : مقفلة (٢) سدده : أرشده (٣) سدده : أغلقه .

الباب الرابع

بعض مشاهير الشعراء

١

عبد الله الشبراوى [١]

١٠٩٢ — ١١٧١ هـ

هو عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوى الشافعى ، الإمام الفقيه المحدث المتكلم الماهر ، الشاعر الأديب . نشأ فى بيت علم ودرس على شيوخ عصره ، ومال إلى نظم الشعر منذ صباه . وقد ورث ثروة طائلة عن والده فبنى لنفسه قصرا فخما بالقرب من مسجد الرويعى . ومن آثاره الأدبية :

١ — الإتحاف بحب الأشراف . مطبوع

٢ — شرح الصدر فى غزوة بدر ، ألفه بإشارة على باشا الحكيم ، وذكر فى آخره نبذة من تاريخ مصر وأسماء ولاتها إلى عصره . مطبوع

٣ — منائح الألطاف فى مدائح الأشراف ، وهو ديوان شعره . مطبوع

* * *

وقد تكلمنا على الشبراوى فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ودرسنا بعض قصائده . والأغراض التى تناولها الشبراوى فى شعره هى :

---

(١) ترجم له الجبرتى ١ / ٢٠٨ طبع بولاق .

١ ـ الغزل : ويمتاز بالرقة والسهولة وصدق العاطفة . وقد ذكرنا فيما مضى أن الشبراوى لم يعشق شخصا معيناً ، وإنما كان يعشق الجمال حيثما وجده، فى الإنسان أو الطبيعة . ومزج الغزل بوصف الطبيعة .

٢ ـ المدح : كان الشبراوى متصلا اتصالا وثيقاً بالولاة ، يحضر مجالسهم ويخصونه بهداياهم ، فلهج بمدحهم ، كما مدح بعض الأشراف .

٣ ـ المديح النبوى . وقد ذهب الشاعر لأداء فريضة الحج سنة ١١٣١هـ ونظم بعض القصائد فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدها أمام ضريحه

٤ ـ التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .

٥ ـ الشعر الغنائى : وله موشحات وأبيات اشتهرت بين المغنين فى عصره

٦ ـ الوصف : وله قصائد فى وصف نهر النيل والخليج المصرى .

* * *

وفى سنة ١١٣٧هـ أسندت إليه مشيخة الأزهر . قال الجبرتى « وقد بلغ منزلة رفيعة عند رجال الدولة والأمراء ، ونفذت كلمته ، وقبلت شفاعته ، وصار لأهل العلم فى عهده رفعة ومقام ، ومهابة عند الخاص والعام »

وكان محسناً إلى الشعراء والأدباء ، فلذلك أحبوه ومدحوه . فمدحه عبد الله الإدكاوى بقصيدة جاء فيها :

حاوى الفخار جملة مجموعه ومفرده
إن ذكروا وصف الكما ل كان فيه أوحده
أو ذكروا حسن الوفا فمثله لن نعهده
أو دقة الفهم فقل أدرك منها مقصده

... الخ

وكان الشاعر عامر الأنبوطى إذا جاء إلى القاهرة نزل فى ضيافته فيحبوه بكرمه وعطفه ، وإحسانه وبره .

ومات فى العاشر من ذى الحجة سنة ١١٧١هـ ورثاه الشعراء ، فمن ذلك قول الإدكاوى :

عين جودى بمدمع مسفوح واندبى أوحد الزمان ونوحى

.. الخ

٢

عبد[1] الله الإدكاوى

١١٠٤ — ١١٨٤هـ

هو عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوى المصرى الشافعى الشهير بالمؤذن .

ولد بقرية إدكو بقرب رشيد سنة ١١٠٤هـ وبها حفظ القرآن. ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ودرس على شيوخ عصره ، وظهر ميله إلى الأدب .

وانضم إلى حاشية الأمير عثمان بك ذى الفقار ، وصار من أخص أتباعه ولما ثار الجند وأبعدوه إلى خارج البلاد ؛ آواه السيد عبد الخالق بن وفا .

قال الإدكاوى فى ديوانه « وقلت مادحا مجمع الأفضال وأوحد أهل الكمال سيدى عبد الخالق بن وفا ، أدام الله له الاصطفا ، وله موقع ينبغى التنبيه عليه ، وتحسن الإشارة إليه ، فيه أكبر دلالة على ولاية الممدوح ، وأنه بلاشك من عين العناية ريان ممنوح ، وهو أنى كنت من اللاجئين لحضرة عثمان بك ذى الفقار ، والملازمين له غالب الليل والنهار ، فقامت عليه الأجناد ، وأخرجوه من البلاد ، فحصل حينئذ الضرر لكل من لاذ به ، وتعلق بسببه

---

(١) الجبرتى ١/٣٥٢

فصادفت حضرة الممدوح في بيت رجل من الأعيان ومعه إنسان يوصى عليه رب ذلك المكان ، فأوصى عليه وأكد وقال : هذا رجل يقوم عندى مقام الولد . فالتفت إليه وقبلت يديه وقلت له : وص بى يامولاى ذلك المخدوم لأكون من رعايته غير محروم - فكان جواب ذلك الإمام الملحوظ أن قال لى : أنت بحمد الله محفوظ ، فوقعت عندى كلمته هذه موقع الإيحاء ، واطمأننت من سائر الأنحاء ، وانقضت تلك الفتنة ، ولم يحصل لى منها بلطف الله شىء من تلك المحنة . حينئذ مدحته بهذه القصيدة ، وذكرت بها اللفظة المفيدة » ومما جاء فيها قوله :

هو عبد الخالق المولى الذى مَن نحاه دام فى حفظ وأمن
قطب ذا العصر الذى تجلى به كرب تعيى أخا العزم وتضنى
نجل سادات همو أهل الوفا صفة ثابتة فى كل ذهن
هم ملوك الأرض سادات الورى لهمو التصريف فى حُر وقِن

... الخ

وذكر الجبرتى فى ترجمة الإدكاوى مانصه « .. وظهر ميله إلى الأدب فانضوى إلى فخر الأدباء فى عصره السيد على أفندى برهان زاده نقيب السادة الأشراف ، الذى أسبغ عليه كرمه ، ورتب له ما يكفيه فى معيشته ، وحج بصحبته بيت الله الحرام ، وزار قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، وذلك سنة ١١٤٧هـ وعاد إلى مصر ، وأقبل على تحصيل الأدب ، ونظم ونثر ، ومهر وبهر . ورحل إلى رشيد وفوه والإسكندرية مرارا . واجتمع بأعيان كل منها ، وطارحهم ومدحهم »

وبعد وفاة السيد النقيب تزوج وصار صاحب عيال ، وتنقلت به الأحوال وشعر بالألم لفقد النقيب الذى كان له معينا فى حياته .

ولما ضاقت فى وجهه السبل لجأ إلى الشيخ الشبراوى ولازمه وقام بخدمته ومدحه بغرر قصائده . وكان الشبراوى يعترف بفضل الإدكاوى ويحترمه .

ولما توفى الشبراوى سنة ١١٧١هـ انتقل إلى شيخ وقته الشمس الحفنى ولازمه فى حله وترحاله ومدحه بشعره . وقد رتب له الحفنى ما يغنيه

وبعد وفاة الحفنى اضمحل حاله، وعانى البؤس والفقر، واعترته الأمراض ولزم داره مدة أيام حتى وافاه الحمام سنة ١١٨٤هـ وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بالمجاورين .

وكان خطاطا ماهرا ، وقد اشتغل فى أواخر حياته بنسخ الكتب للأمراء والوزراء والأعيان . وكلفه مرتضى الزبيدى بنسخ بعض الكتب

واتصل مدة من الزمن بالأمير كتخدا رضوان الجلفى ومدحه شعراً ونثرا وقد تأثر ببيئة الأزبكية الماجنة الخليعة فنظم شعرا كثيرا فى الخلاعة والمجون . ومن قوله وقد أخرج من فمه دما وتحركت عليه الصفراء

جنيت على نفسى جناية جاهل لظنى أن الجهل فيه سرورها
طغت عندى الحمرا لحين صرفتها تمردت الصفرا وزاد شرورها
فأخرجتها شيئا فشيئا ملاطفا إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
فجاءتهما البيضا معاتبة على تعديهما جهلا وزاد نفورها
.. الخ

وقال يصف ما وصل إليه من سوء الحال :

وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
وأما السمن سميناه ودادا فقال وداد مثلكمو خداج
وأما البيت عنه لا تسلنى فبومته لها دوما هياج
بأكلى أو حمارى أو قطاطى فأهرب خائفا وبى اعتلاج

وقد اجتمع بأعلام الأدباء والشعراء الذين وفدوا على مصر ، ومدح الولاة والحكام والوزراء والأمراء الذين عاصرهم ونال جوائزهم، ولعله كان مسرفا متلافا، فقد مات فقيرا ، ومن آثاره الأدبية التى ذكرها الجبرتى :

١ — الدرة الفريدة والمنح الربانية فى تفسير آيات الحكم العرفانية .

٢ — مختصر شرح بانت سعاد .

٣ — الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية . جمع فيه قصائد الشعراء الذين مدحوا الأمير رضوان . ثم أورد فى خاتمتها ماله من المدائح فيه نظماً ونثراً . منه نسخة خطية بدار الكتب .

٤ — هداية المتوهمين فى كذب المنجمين .

٥ — ديوان شعره ، المسمى « بضاعة الأريب فى شعر الغريب » وهو مجلد ضخم ، منه نسخة خطية بمكتبة سوهاج . كما أن الجامعة العربية نقلت عنها شريطاً .

والإدكاوى من أغزر شعراء عصره نتاجاً . وهو شاعر مجيد إذا طرح التكلف جانباً وترك نفسه على سجيتها .

٣

ابن الصلاحى(١)

١١٤٠ — ١١٨٠

هو العالم الأديب الماهر ، الناظم الناثر ، محمد بن رضوان السيوطى ، الشهير بابن الصلاحى . ولد بأسيوط على رأس الأربعين كما ذكر الجبرتى ، ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير بأسيوط . ولما ترعرع جاء إلى القاهرة وحصل العلوم . وحضر دروس الشيخ محمد الحفنى ولازمه وانتسب إليه ، فلاحظته أنواره — كما يقول الجبرتى — ولبسته أسراره . ومال إلى فن الأدب فأخذ منه بالحظ الأوفر . وكان خطه فى غاية الجودة

(١) الجبرتى ١/٢٦٥

والصحة . وكتب نسخة من القاموس المحيط ، وصفها الجبرتى بأنها فى منتهى الحسن والإتقان والضبط .

قال الجبرتى « وله شعر عذب يغوص فيه على غرائب المعانى ، وربما يبتكر ما لم يسبق إليه . وقد أجازه الشيخ الحفنى بما نصه :

نحمدك الله يا عليم يا فتاح ، ياذا المن بالعلم والصلاح . ونصلى ونسلم على أقوى سند ، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد .

أما بعد ، فإن المولى العلامة ، الرحلة الفهامة ، الحاذق الأديب ، واللوذعى الأريب ، مولانا الشيخ محمد الصلاحى السيوطى ، قد حاز من التحلى بفرائد المسائل العلمية أوفر نصيب ، بفهم ثاقب ، وإدراك مصيب . فكان أهلا للانتظام فى سلك الأعلام بإجازته كما هو سنن أئمة الإسلام . فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الأثبات وبسائر ما تجوز له روايته ، أو تثبت لديه درايته . موصياً له بتقوى الله التى هى أقوى سبيل النجاة . وألا ينسانى من صالح دعواته فى أويقات توجهاته . نفعه الله ونفع به ، ونظمه فى عقد أهل قربه . وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام ، وعلى آله أئمة الهدى ، وصحبه نجوم الاقتدا » .

« كتبه محمد بن سالم الحفناوى الشافعى ، ثامن جمادى الثانية سنة ١١٧٨ »

* * *

وكان ابن الصلاحى يجتمع فى ندوات ليلية مع أصدقائه من الشعراء والأدباء ، وبخاصة قاسم بن عطاء الله المصرى ، ويتطارحون الشعر ، ويتناشدون القصائد ، ويرتجلون المقطوعات ، ومن غرر قصائده التى مدح بها الشيخ الحفنى تلك التى مطلعها :

مل بى فقد وقد الهجير   إنى بظلك مستجير

وعدتها سبعون بيتاً . وقد أوردناها فى نهاية الكتاب . وله فى الإخوانيات شعر غير قليل . إلا أن ديوانه لم يصل إلينا .

٤

قاسم بن عطاء الله المصرى

٠٠٠٠ — ١٢٠٤

قال الجبرتى « مات الفاضل النحرير ، الذى وقف الأدب عند بابه ، ولاذت أربابه بأعتابه ، النبيه النبيل ، واللوذعى الجليل ؛ قاسم بن عطاء الله المصرى الأديب » وكان قاسم من شعراء الأمير رضوان كتخدا الجلفى.

قال الجبرتى « ولقاسم أخبار كثيرة مع شعراء عصره . وله مداعبات معهم يطول ذكرها » وقد داعبه محمد شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ بقصيدة جاء فيها :

سبحان من قسم النحو　　س لقاسم وأذلّ هامَـهْ
وكساه ثوب جنـــاية　　يخزى بها يوم القيامه
هو ردء من هجم البيو　　ت ورده من خطف العمامه
ونحيس من طبع النحا　　س بكفه وطلى ختامـه
يختالّ فى نشل الحريـ　　ـر ولو تحصن فى دعامه
ويسل كحل من　　من خوفه ينفى منامه
لو حل فى حرم الوزيـ　　ـر مصاحباً ورأى غلامه
لمضى به لأخى الهوى　　فى غفلة يقضى مرامه
بالشال عمم رأسـه　　ولحيلة تأتى أدامه
. . . . . الخ

فأجابه قاسم بقصيدة منها :

جل الذى قسم الشقــا　　لشبـانة وله أدامـه
بعمامة لو خالها القــــّلا　　توهمهـــا　　برامـه

موروثة عن جدّه من قبل أن تبنى القمامه
إن كان ذا وجه المطيـ ـع فأين أصحاب الندامه
لو كان يصلح للصلا ة لحق للقرد الإمامه

ولا يخفى أن قصيدة شبانة أقسى هجاء . فقد اتهم قاسماً بأمور شنيعة كالسرقة والاتجار فى الأعراض .

قال الجبرتى « وللمترجم قصائد ومقاطيع ومدائح وموشحات وأزجال وتواريخ لا تحصى ولا تسبر ، ولا تعد ولا تستقصى . وقد تقدم بعض منها فى تراجم الممدوحين . ومنها المزدوجة التى مدح بها الأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى . والموشحات المشهورة بين أرباب الفن والأغانى ، وهو شىء كثيراً جداً » ولكن الذى وصلنا من آثاره الأدبية قليل جداً .

وكانت البلاد تعانى مجاعة شديدة سنة ١١٩٨
فاحشاً . فلما أهل عام ١١٩٩ قال قاسم بن عطاء :

يا أهل مصر استبشروا فالله فرج كر
وأتى الرخاء مؤرخاً عام بفضل الله سم

قال الجبرتى « فكان الفأل بالمنطق ، وأخذت الأشياء فى الانحلال قليلا »
توفى يوم الجمعة خامس شوال سنة ١٢٠٤ هـ .

٥

السبربائى

٠٠٠٠ — ١٢١٠ هـ

هو شمس الدين بن عبد الله بن فتح الفرغلى المحمدى الشافعى السبربائى ؛ نسبة إلى سبرباى ؛ قرية بالغربية قرب طنطا ، وبها ولد .

ويرجع نسبه إلى الفرغلى المحمدى ، من ولد محمد بن الحنفية المدفون بأبى تيج من بلاد الصعيد .

تفقه على علماء عصره ، ودرس على شيوخ وقته . فأدرك من كل فن الحظ الأوفر . ومال إلى فن الميقات والتقاويم ، وألف فى ذلك وصنف ، واشتغل بالأدب والتاريخ والشعر ففاق الأقران ، ومدح الأعيان .

قال الجبرتى « وذكرت كثيراً من أشعاره فى بعض تراجم الممدوحين . ومنها المزدوجة المسماة بنفحة الطيب فى محاسن الحبيب ، التى نظمها باسم الأمير حسن بك رضوان . وقد ذكرتها فى ترجمة الأمير المذكور » .

« وصاحبناه وساجلناه كثيراً عندما كان يأتينا مصر وبطندتا فى الموالد المعتادة . فكان طوداً راسخاً ، وبحراً زاخراً ، مع دماثة الأخلاق ، وطيب الأعراق ، ولين العريكة ، وحسن العشرة ، ولطف الشمائل والطباع . وكان يلى نيابة القضاء ببلده . وبالجملة فقد كان عديم النظير فى أقرانه ، لم أر من يدانيه فى أوصافه الجميلة . وله مصنفات كثيرة » .

« وسليقته فى الشعر عذبة رائقة ، وكلامه بديع مقبول فى سائر أنواعه من المدح والرثاء ، والتشبيب والغزل ، والحماسة والجد والهزل . وله ديوان جمع فيه مدائحه للنبى صلى الله عليه وسلم سماه عقود الفرائد . وقد قرظه الشيخ عبد الله الإدكاوى سنة ١١٧٩ بقوله :

هكذا من أراد نظم الفرائد أو نحـــا نحو حوك القصائد
هكذا هكذا عقود المعــانى لا عقود المخدرات الفــرائد
تلك صـوّاغها البنـان وهذى صاغها فـكر شمس فضل الأماجد
الخ . . . . .

وله فى رثاء شيخه القطب الحفنى قصائد طنانة . وله جملة أراجيز ، منها

أرجوزة فى تاريخ وقائع على بك — يعنى على بك الكبير — ومحمد بك — وهو محمد بك أبو الذهب » .

وقال الجبرتى فى ترجمة حسن بك رضوان المتوفى سنة ١١٩٢ هـ .

« وكان أميراً جليلا مهذباً ، كريم الأخلاق ، لين الجانب ، يحب أهل الصلاح والعلم . وعاشر بالمحلة صاحبنا الفاضل اللبيب الأديب الشيخ شمس الدين السبربائى الفرغلى وأحبه واغتبط به كثيراً وأكرمه ، وحجزه عنده مدة إقامته بالمحلة . ومنعه من الذهاب إلى بلده إلا لزيارة عياله فقط فى بعض الأحيان ، ثم يعود إليه سريعاً . ويستوحش لغيابه عنه . فكان لا يأتنس إلا به . وللشيخ شمس الدين فيه مدائح ومقامات وقصائد . من ذلك ما ضمنه فى مزدوجته « نفحة الطيب فى محاسن الحبيب » .

ولم يصل إلينا ديوانه ، ولا شك فى أنه كان مجلداً ضخماً . توفى فى شهر ربيع الأول سنة ١٢١٠ هـ ببلده ودفن بها .

٦

الظهورى

٠٠٠٠ — ١٢١١ هـ

قال الجبرتى « هو النبيه الأريب ، والفاضل النجيب ، الناظم الناثر المفوه ، إسماعيل بن خليل بن على بن عبد الله الشهير بالظهورى المصرى الحنفى . كان إنساناً قانعاً بحاله ، يتكسب بالكتابة وحسن الخط ، وقد كان جوده وأتقنه على يد أحمد أفندى شكرى . وكتب بخطه الحسن كثيراً من الكتب والمصاحف » .

« وكان يشتغل بتجارة البن ، وله حاصل لهذه التجارة بوكالة البقل بقرب

خان الخليلى . وله معرفة جيدة بعلم الموسيقى والألحان وضرب العود . وهو شاعر مجيد ، له مدائح وقصائد وموشحات ، فمن موشحاته تلك التى حذا فيها حذو ابن خطيب داريا الأندلسى ومطلعها :-

ليت شعرى يا أخلاء الهوى　　هل أرى بدرى بحانى مؤنسى

وكان الظهورى مغرماً بقضاء أوقات طيبة بين ربوع الأزبكية وبين حدائق القاهرة وبساتينها على عادة الشعراء والأدباء فى ذلك العصر . فمرة يذهب إلى جزيرة الروضة ، ومرة إلى بولاق . أو يتجول على شاطىء الخليج أو على شواطىء بركة الأزبكية . ثم رحل إلى أطواب من قرى الصعيد واستقر بها مدة من الزمن . فنظم جملة قصائد أعرب فيها عن شدة شوقه وحنينه إلى القاهرة ومغانيها . ووازن بين حالته الأولى فى القاهرة وحالته بقرية أطواب . فمن إحدى هذه القصائد :

سلام على مصر سلام شج حنّـا　　تبلغها أيدى النسيم لها عنّـا
وأزكى تحيات على الروضة التى　　عليها لسان الجو بالمزن قد أثنى
وحيّـا إلهى نيلها وظـــلالها　　وخلجانها والقرط إذا شنفت أذنا
ومقياسها منى إليه تحيـــة　　معنبرة الأرجاء عاطرة عرنا
فـكم نلت فيها من سرور وبغية　　إذ العيش طلق والهوى ضاحك سنّـا
وليلاتنا فيها وطيب حديثنـا　　وجَيب الدجى ينشق عن بدر هادُجنا
. . . . . الخ

ومن قصيدة أخرى :

سلام على مصر ديار أحبتى　　سلام مُـعَـنّى هام عشقاً بحسرتى

ومنها :

خليلىّ قوما واسألا الروضة التى　　بها اخضلّ نبت فى عرار وزهرة
وللرصد حيوه مع اللهو ساعة　　فذلك أقصى ما يبرّد غلتى

ومقياسها ياصاح لاتنس فضله بدا مثل شيخ لابس لعمامة

ومنها ينعى سوء حظه :

وأنزلنى حظى بأطواب قرية أقمت بها مابين بوم وحدأة

ويبدو من بعض شعره أنه كان يميل إلى اللهو والمجون . وقد شرح لنا مذهبه فى الحياة فى قصيدة مطلعها :

هل العيش إلا فى اكتساب مآثم أو العمر إلا فى اقتناء محارم
أو الغنم إلا فى ارتكاب كبيرة أو السكر إلا فى ارتشاف مباسم

. . . الخ

فهو يرى أن الحياة الحقة هى فى الانغماس فى الشهوات ، والأخذ بحظ عظيم من اللذات .

قال الجبرتى « وللمترجم مقامة وقصيدة يداعب الشيخ عنتر الرشيدى ، أعرضنا عنها لما فيها من الهجو والذم » ولم يصل إلينا من آثاره الأدبية سوى القليل .

٧

الخشاب

. . . — ١٢٣٠هـ

هو السيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب . كان أبوه نجارا ثم اشتغل بتجارة الخشب .

بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن . ثم تلقى على شيوخ عصره الفقه وأصول الدين وعلوم اللغة . وعين شاهدا بالمحكمة الكبرى . وفى أثناء ذلك عكف على قراءة كتب الأدب والتصوف والتاريخ . وحفظ كثيرا من الشعر والنثر والمعارف الصوفية . قال الجبرتى « فصار نادرة عصره ، ونظم الشعر الجيد »

وكان لحسن أخلاقه وكرم شمائله وخفة روحه موضع اهتمام الأمراء والرؤساء والأعيان فتنافسوا في صحبته، وتهافتوا على مجالسته. وكان يظفر بإعجابهم بحلو حديثه الذي ملك به قلوب الناس.

ولما دخل الفرنسيون مصر، ورتبوا ديواناً للنظر في قضايا المسلمين، تعين الخشاب كاتبا بهذا الديوان، يسجل تاريخ الحوادث اليومية. وأجروا عليه مرتبا شهريا. وقد جمع بين هذه الوظيفة ووظيفته الأولى، وهي الشهادة في المحكمة.

ونشأت بينه وبين الشيخ حسن العطار صداقة متينة، ومودة أكيدة، وكان لايفارق أحدهما الآخر في غالب الأحيان. وكثيرا ماأمضيا سهرتهما مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور، متحدثين في الفنون الأدبية والتاريخ.

والشيخ حسن العطار هو الذي تولى ترتيب ديوان الخشاب بعد وفاته.
وقد اشتهر هذا الديوان بين المتأدبين بمصر في ذلك الوقت، وأقبلوا على مطالعته واقتنائه، وطبع بالجوائب سنة١٢٩٨ هـ

وقدجمع الخشاب ثروة طائلة. وشيد لسكناه قصراً فخماً بجهة بين القصرين وعاش في رغد من العيش حتى أصيب في أواخر حياته ببعض الأمراض. ولما مات صلى عليه بالأزهر في مشهد حافل. ودفن بمقابر الحسينية.

الباب الخامس

النثر

الفصل الأول

النثر الفنى

استخدم بعض كتاب هذا العصر النثر الفنى فى تأليف الكتب . ومن أشهر هؤلاء الكتاب : شهاب الدين الخفاجى الذى ألف كتابه « ريحانة الألبا » على نمط كتاب الخريدة للعماد الأصفهانى . وكان الشهاب مستوعبا للأدب العربى ، متمكناً من اللغة . فلذلك جاء أسلوبه قويا، وانقاد له السجع والجناس والطباق والمقابلة انقيادا تاما . فلا ترى فى أسلوبه ضعفا ولا تكلفا ولا غموضا ، ولا إسفافا . انظر إليه حين يقول فى ترجمة داود الأنطاكى :

« ضرير[1] بالفضل بصير ، كأنما ينظر خلف ستارة الغيب بعين فكر خبير . لم تر العين ، بل لم تسمع الآذان ، ولم تحدث الركبان بأعجب منه مسائلة الركبان . إذا جس نبضا للتشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر كل غرض . فيفتن الأسماع والأبصار . ويطرب بجس النبض مالا يطربه جس الأوتار .

يكاد من رقة أفكاره　　يجول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها　　ألف بين الروح والجسم

فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تعمى

---

(١) ص ٢٧١ طبع بولاق سنة ٢٧٣ هـ

الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . وله فى كل عام سهم مصيب ، ومنطق محلى بتهذيب التهذيب . وكنت قرأت عليه الطب وغيره فى سن الصغر فسمعت منه مايغار له نسيم السحر ، ويطرب من لطفه نغمات الوتر . ينثر فيه نثار العلوم على عرائس المنثور والمنظوم . وكان يقول : لو رآنى ابن سينا لوقف ببابى ، أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابى . إلا أنه على مذهب الحكماء ، ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس فى اعتقاده ، ونقل رشح قطر من خفى إلحاده . ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق . »

هذا هو أسلوب الشهاب الخفاجى . وهو يمتاز إلى جانب ما قدمنا من أنواع المحسنات اللفظية بالتضمين من القرآن الكريم والأمثال والحكم والشعر .

* * *

ومن كتاب النثر الفنى فى ذلك العصر [١] : يوسف الحفناوى ، وله من فصل فى مدح الأمير كتخدا رضوان الجلفى :

« وكيف وأمامهم ملك شدت الجوزاء لخدمته مناطقها ، ومدت العلياء على هامته سرادقها ، وسقى الآمال والأرواح من سلافة جوده وآدابه ماصير أربابها خدما لأعتابه ، وأوقف الألسنة والأذهان على نشر نواله الكامل ؛ الأمير رضوان ، لازال سعده قائما على طول المدى ، فإنه عين المكارم وقرتها ، وضياء جبهة المعالى وغرتها . التالى لسان حاله لمن يباهى ويناضل : تأخر فأين الثريا من يد المتناول ؟ »

« المولى الذى جعل الأيام عبيدا لأتباعه ، والمواهب ، والأرزاق خدما

---

(١) الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية .

لأشياعه . وساس بسديد رأيه الإمارة فأحسن سياستها ، وأدار على الرعية كأس حلمه ممزوجاً ببأسه فأحكم رياستها . وصارت القاهرة بدولته لأعدائها قاهرة »

وممن نهجوا هذا النهج : يوسف بن مرعى الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠هـ قال فى أحد[1] مؤلفاته :

« إن الله سبحانه وتعالى قد أوجد هذا العالم إيجادا جميلا ، وفضل بنى آدم على كثير ممن فضل تفضيلا ، وخص الأنبياء بمزيد الفضل والكرامات حتى غدوا بذلك أنوار الكائنات ، وأسرار الموجودات ، وجعل العلماء لهم وارثين ولآثارهم مقتفين فى بيان شرائع المكلفين ، لاسيما المجتهدين ؛ رضوان الله عليهم أجمعين ، فهم فى الفروع مختلفون ، وفى الأصول متفقون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فاختلاف الأئمة رحمة لهذه الأمة ، والجميع على هدى ، فهم من الشريعة الغراء يستمدون ، وللملة الزهراء يعتمدون ، وهم أفضل أتباع المرسلين ، وخير من آمن وصدق النبيين ، ولاسيما أئمة المذاهب الأربعة المجتهدين ، ففضلهم مشهور قديما وحديثا ، وعلمهم منشور تفسيرا وحديثا ... الخ »

واستخدم النثر الفنى فى مقدمات الكتب ، مثال ذلك قول عبدالرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣٠هـ

« وبعد ، فإنى[2] لما شرحت فيما مضى الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، كوى قلب الحاسد لما استوى ، فجهد أن يأتى له بنظير فرجع إليه بصره خاسئاً وهو حسير ، فلما آنس من نفسه القصور والتقصير عمد إلى الطعن فيه بالتطويل وكثرة القال والقيل

---

(١) تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة والمجتهدين . مخطوط رقم ١١٢٠ تاريخ

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ص ١ طبع بولاق سنة ١٢٨٦ هـ

« فلقطع ألسنة الحسدة المتعنتين ،وخوف انتحال السارقين أمرنى بعض المحبين أن أختصر اللفظ اختصارا ، وأقتصر فى المعانى على مايظهر جهارا ، فعمدت أختصر ، وطفقت أقتصر ، ثم عن لى أنه كيف يليق إهمال هاتيك النكت البديعة اللطيفة ، والتحقيقات المنيفة الشريفة لخوف السارقين والمنتهبين،وقصور الأغبياء والمتعنتين، فإن لم ينتفع به الحاسدون والقاصرون فسينتفع به المنصفون الكاملون ، وإن انتحل منه عتاة خائنون ، فمن خوان الكرام ينتهبون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون »

إن هذه النماذج التى اخترناها بعيدة كل البعد عن الإسفاف والإغراق فى التكلف الذى يفسد المعانى ، ويجعل العبارات أشبه بالألغاز . وما ورد فيها من أنواع المحسنات اللفظية هو مما يجىء عفو الخاطر على أقلام الكتاب فى مختلف العصور . وليس فى النماذج المتقدمة مايدل على تضحية المعانى جريا وراء الصناعة اللفظية . وهذا هو عنصر الإجادة .

* * *

ومن النثر الفنى الذى عرف من قبل العصر العثمانى واستمر إلى العصر الذى ندرسه ؛نوع متكلف يستغرق الكاتب فى إنشائه وقتا طويلا . ويحتاج فيه إلى جهد عقلى كبير . ولكن هذا النوع كان قليلا جدا ، ولو جمع لما تجاوز صفحات تعد على أصابع اليد وكان الغرض منه امتحان مقدرة الكاتب . مثال ذلك قول عبد الله الإدكاوى :

عبد الله عند الله أوجه أوجه . دلت معاينة معانيه على علىٍّ رتبته . زينته حلية خلته . ووفانى ووقانى شر عيب عى بعيب ، بعين حاسد حاشد

فهنا نجد تشابها فى رسم الكلمات مثال ذلك « عبد الله » و « عند الله » و « أوجه » و « أوجه » والأولى بمعنى الغاية والذروة والثانية من الوجاهة

ولم يتعاط هذا النوع من النثر فيما وصل إلينا من النصوص سوى عبد الله الإدكاوى .

* * *

وكان المؤلفون فى هذا العصر يختارون لكتبهم عناوين يتوفر فيها السجع وهذا أمر عرف من قبل العصر العثمانى ، ولكنه فى هذا العصر ساد ، وانتشر حتى أصبح كأنه من المحتم على المؤلف أن يختار لمنوان كتابه عبارة مسجوعة ، مثال ذلك « الدر المنضود فى ذم البخل ومدح الجود » للمناوى و « بلوغ الأرب لمعرفة أمثال العرب » له ، و « الإتحاف بحب الأشراف » للشبراوى ، وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، ومن النادر أن نجد كتابا خلا عنوانه من السجع

ومن الأغراض التى استخدم فيها النثر الفنى فى هذا العصر :

١
المقامات

أقبل الكتاب فى هذا العصر على تحرير المقامات ، واستخدموها فى الأغراض التى يستخدم فيها الشعر ، فنجد مقامات فى المدح ، وأخرى فى العتاب وغيرها فى الفخر والهجاء والمجون والرثاء والوصف : مثال ذلك قول الشهاب الخفاجى من مقامته الرومية التى دبجها فى وصف أحوال أهل الآستانة وذكر علمائها :

« أنبأنا النعمان بن ماء السماء ، عن شقيق ، وقد نظمنى وإياه سلك المحجة بوادى العقيق ، قال : خرجت مختبطا ورق الكرم ، وقد صوح ربيع الآمال والهمم حتى عز الحطيم ، ورعى الهشيم ، فطوحتنى الطوائح بأرجوحة الأمانى وهزتنى الأشعبية إلى ماجد يبارز الزمن الجانى ، سمح السجية ، بسام العشيات

رحب النادى إذا ضاق لبب العيش والتقت حلقات الملمات ، جناه ليد الأمل دانى إذا اقتطف ثمر اللهو وريحان التهانى . نزهة النفس وشمامة الأنس، تعصر من شمائله شمول الفرح على رغم أنف الإبريق والقدح ، فما روض الجمال الرائع ، وما ورد الخدود فى أكمام البراقع ، وما جآذر الأعاريب ، وشمس الحسن فى سحب الجلابيب .

ولقد دعوت ندا الكرام فلم يجب فلأشكرن ندا أجاب وما دعى

فلم أزل أدأب فى الإسآد(١) والإعناق، وأقلد خلافة الخضر ومساحة الآفاق ولا أبرح فى ملاعب القضاء كرة لصولجان القدر والقضاء » .

وللشهاب مجموعة مقامات وردت فى كتابه « ريحانة الألبا » فليرجع إليها من شاء . وكلها على هذا النحو والأسلوب ، وهذه المقامات لا تعتمد كلها على الخيال ، بل هى تصوير لواقع الحياة التى رآها وشاهدها ولمسها بيده وأحاط بها وعرفها . وقد أجاد التصوير ، وأتقن الوصف ، ووفق فى السبك قال فى وصف الآستانة « — فإذا هى جنة ملئت بالحور والولدان ، وحفت بالشهوات إذ حفت بالمكاره الجنان ، من كل شادن سرق التفاتة الغزال ، وتسللت لترى لطفه الصبا والشمال ، لولا خوف الوشاة والعدا ، تساقطت القبل على ورد خده سقوط الندا . جرى فيه ماء النعيم والهيف ، وحار فيه الرأى فلو رآه سيل تلعة لوقف ، فاق ذكاء سناً وسناء ، فلو حاكته حازت الشرف صيفاً وشتاء

« إذا جاده صيب الحياء والخجل أنبت ورداً يجتنى بأنامل أهداب المقل . فى كتيبة حسن إن غزا القلوب قتلها « هزوا القدود وأرهفوا الأجفانا » وإن هجمت على الصب عيونها « فاطلب لنفسك إن قدرت أمانا » يوسف حسن ودلال ، ليس له أخ يحسده على الجمال

---

(١) الإسآد والإعناق : ضربان من السير

ماقدّ فيه القميص من دُبر ... بل قد فيه الفؤاد من قبل
إن قطع النسوة الأكف فقد ... قطع قلبي بطرفه الكحل

ومن وراء تلك الظباء العين ملائكة من الكرام الكاتبين ، غاليتهم المداد ، وعبير نشرهم يفوح على جمر الذكاء الوقاد . الخ »

فتأمل حلاوة التعبير ، وبراعة التضمين ، وقوة الأداء

ومن كتاب المقامات فى ذلك العصر : محمد بن قانضوة، وله مجموعة مقامات بالمتحف البريطانى ، ويوسف الحفناوى ، وعبد الله الإدكاوى ، وأحمد السجاعى ، وحسن العطار ، وغير هؤلاء كثيرون .

٢

الرسائل

(ا) الرسائل الرسمية

ما يكتب إلى السلطان : امتاز هذا النوع من الرسائل بميزات هى :

١ — وصف السلطان بصفات تكاد تجعله فى مرتبة الإله ؛ فهو الخنكار الأعظم ، والخاقان الأفخم ، ظل الله على الأرض ، شاهنشاه العالم

٢ الإشارة إلى حروب السلطان ضد الكفار، والدعاء له بالنصر الدائم

٣ ـ التعبير عن السلطان بمثل قولهم: الحضرة العلية الفخيمة، أو الحضرة السنية الخاقانية ، أو الذات العلية الشاهانية

٤ — الإشارة إلى عدل السلطان وفضله على الرعية

٥ — تقديم فروض العبودية للسدة العلية الخاقانية

ومن كتاب الرسائل فى ذلك العصر :

١ — محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ وله مجموعة رسائل اسمها « دستور الغرائب ومعدن الرغائب » وهى ليست كل ما كتب، ولكنها مختارات بخط شخص اسمه « على الملاح » منها شريط بمكتبة الجامعة العربية نقلا عن نسخة خطية بمكتبة سوهاج .

وتمتاز رسائله باشتمالها على المحسنات اللفظية من جناس وسجع ، وطباق ومقابلة ، وتضمين واقتباس . كما تمتـــاز باحتوائها أحيانا على تعبيرات واصطلاحات صوفية . مثال ذلك قوله من رسالة إلى السلطان العثمانى :

أهدى إلى السدة العالية ، والعتبة المتعالية ، ومقام السلطنة الرفيع سلاما يتعطر فردوس الجنان بشميمه ، ويتضوع رضوان والحور والولدان بنسيمه، ممزوجا بأنفاس الملائكة المتقربين ، ساريا بنفحات الأقطار المواصلين . تمده الرحموتية واللاهوتية بأسرارها ، وتصاحبه الحقيقة المحمدية الأحمدية النبوية بأنوارها .

وأسأل الله الواحد الأحد ، الذى ليس له قبل ولا بعد، أن يؤيد بسلطان عظمته وكبريائه ، وعزة ألوهيته وبهائه عبده الذى أيده وتوجه بتاج الملك على كثير من عبيده ، وأفاض عليه من مزيده . حبيب أولياء الله عز وجل ، والراقى بإذن الله إلى المقام الأجل . واحد أقطار ما تحت الريح من سلطنة وجلالة . أوحد ملوك تلك الجهات ، بل هو البدر وهم حوله هالات . المؤيد بنصر الله فلا يرهب أحد سواه المحروس بحراسة الله فى جميع ما منحه وأعطاه . سلطان سلاطين تلك الديار ، الفاتك بأعداء الله بكل سنان وحسام بتار . مخرب ممالك الكفر والفساد ، مذل جيوش الطغيان والعناد ، قامع عباد الصليب ، المتذلل بين يدى الملك العظيم القريب الرقيب .

٢ ـ ومن كتاب الرسائل كذلك : مرعى بن يوسف الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٣هـ وله من نموذج رسالة إلى السلطان :

« أحق[١] من ملك سرير الخلافة بالاستحقاق ، وأولى من ولى لواء الولاية فى الآفاق . وهو الذى وجه عنان العناية لحماية الإسـلام بشهادة الإجماع ، وتلك شهادة لايتطرق إليها النزاع ، وجدد بنيـان الهدى بعد مادرست آثاره ، وطمست معالمه ، ومهد بساط العدل بعد أن لم يوجد إلا مظلوم وظالمه .

الخنكار الأعظم ، والخاقان الأفخم ، ذو المفاخر التى شهد بفضلها الخاص والعام ، والمآثر التى ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام ، والأخلاق التى رام النسيم أن يحاكى لطفها فأصبح عليلا ، والمعالى التى تحيل الملوك أن يتشبهوا بها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا . الجامع لسيرة أنامت الرعايا فى مهاد الأمان ، وسريرة تكفلت أياديها بكف عوادى الزمان . وعدل سوى بين شريف الخليقة ومشروفها ، وإحسان سير الهبات تجرى لذوى الحاجات إلى حروفها . المفتخر على سلاطين الدنيا بفخامة مملكة ترد الأبصار حسرى ، وسرير سلطنة إذا استوى عليه أحيا ذكر السلف الصالح وأمات ذكر كسرى . إذا سار بين المواكب فما هو إلا القمر حف بالكواكب ، بصوارم سيوف تعطف حروفها أعناق المعتدين ، وأهلة ترسل نجوم سهامها على شياطين البغاة والمتمردين ورايات تخفق قلوب الأعداء لخفقانها ، وتخفض رتبهم لرفع شأنها . لا يرتاب مؤمله فى أنه البحر والعساكر أمواجه ، ومراحمه الدر التى يظفر بها طلاب العرف وأفواجه »

فإذا تأملت فى هذه الرسالة وجدتها تشتمل على : (١) وصف السلطان بأنه أجدر من تولى الملك (٢) وأنه حامى حمى الإسلام ، ومجدد بنيان الهدى (٣) الإفراط فى وصفه بالعدل والكرم (٤) الإشادة بقوة جيوشه وعظمة مملكته (٥) الإشادة بسمو أخلاق السلطان وتفوق شخصيته ونقاء عنصره.

---

(١) بديع الإنشاء والمراسلات ، طبع الجوائب سنة ١٢٩٩ هـ

أما أسلوبها فاحتوى على كثير من المحسنات اللفظية ، من سجع إلى جناس ، إلى طباق ، إلى مقابلة ومع كل ذلك فلن تجد فيها ضعفا أو إسفافا أو إخلالا بالمعنى فى سبيل اللفظ .

وتظهر العاطفة الدينية قوية جدا فى كل ما يكتب إلى السلطان .

* * *

ما يكتب إلى الوزراء وولاة مصر : امتازت هذه الرسائل بوصف الوزير بكل منقبة وفضيلة ، مع الإسهاب فى ذلك بحيث تستغرق هذه الأوصاف حوالى عشرة أسطر . مثال ذلك نموذج لرسالة كتبها مرعى بن يوسف الحنبلى :

الوزير المعظم ، والمشير المفخم . ومدبر أمور جمهور الأمم ، الجامع بين مرتبتى العلم والعلم . والحائز لفضيلتى السيف والقلم . قرة عين المملكة والوزارة ، تاج السلطنة والإمارة . طراز المملكة الملكية ، سيف الدولة السلطانية ، ولسان الصولة الخاقانية ، وصفة الحضرة العثمانية . رافع أعلام العدل والإنصاف ، خافض ظلام الجور والاعتساف . مؤسس قواعد الإقبال برأيه الصائب ، مشيد أركان الصولة والإجلال بفكره الثاقب . صاحب العزة والإجلال ، ساحب أذيال السعد والاقبال . حامى حمى الإسلام بالديار المصرية ، ومشيد تخوم العدل بالأقطار اليوسفية .

وقد ظلت هذه الرسائل تكتب بالكيفية المتقدمة حتى العصر الحديث . وهذه مقدمة رسالة بعث بها السلطان عبد الحميد الثانى إلى الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢م

الدستور(١) الأكرم والمعظم ، الخديو الأفخم المحترم . نظام العالم ، وناظم مناظم الأمم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الأنام

---

(١) المنتظم فى ١٤ — ٤ — ١٨٩٢

بالرأى الصائب ، ممهد بنيان الدولة والإقبال ، مشيد أركان السعادة والإجلال . مرتب مراتب الخلافة الكبرى ، مكمل ناموس السلطنة العظمى . المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ، خديو مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا ، الحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع المجيدى ، ولنيشاننا العثمانى من الطبقة الأولى . وزيرى سمير المعالى عباس حلمى باشا أدام الله إجلاله ، وضاعف بالتأييد اقتداره وإقباله .

* * *

ما يكتب إلى قاضى العسكر : تمتاز هذه الرسائل بالإشادة بمكانة قاضى العسكر الدينية ، وبما تحلى به من الفضائل التى أهلته لتولى هذا المنصب . مثال ذلك نموذج من رسالة كتبها مرعى بن يوسف الحنبلى :

شيخ الإسلام ، ملك العلماء الأعلام . سيد الأئمة الفخام ، وفخر الموالى العظام . ومرجع الخاص والعام ، وملاذ الأفاضل الكرام ، ونعمة الله تعالى فى هذا الزمان على الأنام ، قد تشرف الفضل بانتسابه إليه . قاضى العساكر المنصورة الذى أوقف جنود العدل بين يديه . جلت معانيه البديعة أن يحصرها بيان ، أو يسطرها قلم ببنان . المرتضى لأحكام الشريعة ، ومن هو لسد أبواب المكاره أقوى ذريعة .

* * *

وكتب الخشاب على لسان أحد القضاة رسالة إلى الدولة العلية ، يستعفى من قضاء المدينة ، وكان قد وجه إليه وظهرت الاضطرابات والفتن فى الحجاز بهجوم الوهابيين ، جاء فيها :

نحمد الله اللهم على نعمك الهامى على ممر الدهور سحابها ، المنسدل على البرية بعدل هذه الدولة جلبابها . حمداً يكون على حلل تلك النعم البهية طرازا ، ويهيىء لملة الإسلام ببقائها نصراً وإعزازا .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى بهرت آياته العقول وضوحا وإعجازا، وبلغ غاية الكمال حقيقة فغدا نهجـه لنجاة من تبعه مجازا. وبين للخليقة أحكام دينه امتناعاً وجوازا. وعلى آله وأصحابه وخلفائه الذين فضلوا على سائر البرية اختصاصا وامتيازا، فكانوا فى المحل غيوثاً وليوثاً، إذا اهتزت رماحهم فى الوغى اهتزازا.

أما بعد، فإنا نبتهل إلى الله تعالى فى بقاء هذه الدولة التى لم تزل أعلام نصرها المرفوعة فى الخافقين خافقة، ونجوم مجدها بآفاق الملك متلألأت الأنوار مشرقة، وشهب أسنة رماحها للشياطين رجوما، ولوامع أضواء آرائها فى ظلام الخطوب نجوما. وبروق أسيافها فى غياهب العثير تتألق إيماضا، ونفوس أعدائها ترد بجداول نصالها أنهارا من الردى وحياضا.

وننهى إلى هذه الدولة العلية العثمانية السنية السّنية أيد الله أحكامها، وأبد إحكامها. ورفع على هام السماك أقدامها. ونصب فوق المجرة أعلامها، ومنحها من الظفر والنصر مالا يدخل تحت الحد والحصر.

إنه قد ورد الفرمان الشريف، الواجب له القبول والتشريف، خطابا إلى خادم سدة تلك الحضرة المظفرة المنصورة، التى لم تزل بأعين العناية على مدى الأيام ملحوظة ومنظورة. العبد الفقير أحمد المبتلى بقضاء مصر المحروسة، المتضمن إلباسه خلع الإقبال والقبول بتقليده قضاء مدينة الرسول. ولا جرم إنها حلة يفتخر بها على الفخر، ومحمدة يبقى ذكرها بقاء الدهر وكيف لا، وقد وُجِّـه إلى مهبط التنزيل، وتشرف بخدمة مدينة من شأنها أكرام النزيل. غير أنه لخلو راحته وفقد استراحته لما توارد عليه من الشئون الموجبة لاضطرابه واضطراره، وتعطل أمور مئونته فى إقامته وأسفاره، يعجز عن النهوض بأعباء هذا المنصب الجليل لفقد التحصل وتعذر التحصيل، لاسيما والأقطار الحجازية مختل نظامها، مستول عليها من البغاة طغامها ..

وقد خلعوا من أعناقهم ربقة الإسلام والمسلمين ، وكادوا أن يطمسوا بما شرعوه من شرائعهم الباطلة معالم الدين ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ويذود عن حرمه هذه الطائفة مقهورة مدحورة . فلقد جاوزوا الحد ، وعاملوا أهل تلك النواحي بالمخالفة الأشد ، ولـكن الله وعد المؤمنين التأييد ، ويوشك أن يهلك تلك العصابة بأسيافـكم ويبيد.

والملاحظ فى هذه الرسالة الإسهاب ، وتـكرار الفقرات والجمل المتحدة المعنى ، والحرص على السجع والجناس . وقد بدأت بالتحميد والصلاة على النبي فى عبارات كثيرة ، لأنها صادرة عن قاضى العسكر . فوظيفة القاضى الدينية هى التى جعلت الرسالة تبدأ بمقدمة يشيع فيها الروح الدينى

ب ـ الرسائل الإخوانية

كان الشعراء والأدباء فى هذا العصر يتبادلون الرسائل بكثرة فيما بينهم. وكثيرا ماتجرى المـكاتبات بين أهل البلد الواحد مع قرب الدار وتجاور السكن ، وذلك لشغفهم بالـكتابة الفنية

حدث أن أبا المواهب البـكرى المتوفى سنة ١٠٣٠هـ كان يتريض فى ناحية بولاق ، وتاقت نفسه إلى مسامرة الشاعر المشهور نور الدين العسيلى، فوجه إليه رسالة طويلة وصف فيها بولاق وطيب هوائها ، ورقة نسيمها ، وجمال حدائقها . فمما[1] جاء فيها :

سيدنا البر الذى يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورد والصدر بما يصدر من صدره . ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآمله . وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سيف زخار علومه تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه ، ويخضر خضرة الدّو ، وقد أسبل عليها من صوب مدده

(١) الريحانة ص ٣١٩

برد الجو ، لينام الأنام من ظله بوريفه ، وتأمن من صروف الدهر وحيفه .

علم سيدنا لازالت أمواج فضله تنثر لآلىء الإحسان وتنثل ، ولافتى نهر الله إذا كان غيره نهر معقل ؛ أن مدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور . . الخ

كان أبو المواهب مغرماً بهذا النوع من الأساليب التى تزخر بالسجع والجناس والطباق والمقابلة . ونلاحظ أن الرسالة اشتملت على ذكر البحر والبر ، والورد والصـدر ، والأمواج ، والظل الوارف ، والسيف بمعنى الشاطىء ، والزرع والخضرة وغير ذلك ، وهذا كله من أثر البيئة البولاقية وما كان فيها من الحدائق والبساتين الممتدة على شاطىء نهر النيل

* * *

وكتب عبد الله الإدكاوى إلى بعض أصدقائه :

« غب سلام يشوق عرفا ، ويروق ظرفا ، وتحيات تميـد عطفا وتزيد لطفا . وثنـاء يمد كفا ويعد عرفا ، وأشواق تطول وصفا وتقول ألفا .

فالمعروض بين تلك الأيادى الهامع جود جودها وكفا ، العزيزة المنـال عن الأنداد والأكفا . من المحب الذى ازداد شوقه ضعفا ، وقل صبره ضعفا . هو أنا طلبنـا لبارق جوابكم لحظا وأدرنا طرفا ، واستمحنا إشراق شمس فرائدكم الذى عز أن يخفى ، واستمطرنا صوب عرفانكم الأصفى ، وألفاظكم البديعة الرائقة المرصوفة رصفا ، وآثار يراعتكم المصفوفة نقوشها صفا صفا . وثمار بدائعكم المذللة غصونها للجانين قطفا . فطال أمـد الانتظار ولم نرمن جيـاد معانيكم فى

ميـــدان الطرس طرفا ، ودرر آثار بنانـكم الزاكية وصفا حرفا . فهنـاك أشفقت من أن أحفى ، فـكتبت هـذه الألفاظ وقد زحف جيش الشوق بمعركة الفؤاد زحفـا . وفرت أفراس اصطبـارى كسفا كسفـا . وأجبل عزمى تلت : ويسألونك عن الجبـال قل ينسفها ربى نسفا . راجيا إن أجاب بمـا به الخاطر يشفى ، فأغدو منشدا حين أوفى ما أحاذر وأكفى :

« يا نعمة من وارد جلب الـــ   إيناس بالعهد الذى وفى »

فأنت ترى أن الإدكاوى التزم فى رسالته كلها السجع الذى تنتهى حروفه الأخيرة بالفاء . وذلك ليظهر براعته وقوته وتفوقه . ويبرهن على أنه ملك زمام اللغة فانقادت له طائعة .

ولم يكن للرسائل الإخوانية من غرض سوى إظهار قوة منشئها البيانية، ومقدرته فى الـكتابة الفنية .

ومن رسالة للخشاب[1] وجهها إلى مرتضى الزبيدى .

الأستاذ أدام الله تأييده ، وحلّى بوجوده جبين الدهر وجيـده ، ذو الأنفاس الزكية ، والأخلاق المرضية ، والطلعة السنية ، والمشاهـد القدسية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فقد ورد كتاب السيد المرتضى ، والحسيب المجتبى ، رافع ألوية العلوم ، ومحرر دقائق المنطوق والمفهوم ، فإذا هو روض ألفته الغصون ، وعروس حسنها عن عين الحواسد مصون ورأيت من سحره الحلال ، وسلساله الزلال ما بهر العقول ، وأحجم عن مثله أولو المعقول .

---

(١) ديوان الخشاب ص ٣٨٩ طبع الجوائب

إلا أن السيد ـ لازالت سحائب جوده هاطلة ، وأعناق مناظريه من حلى آدابه عاطلة ـ أغلظ فى الخطاب ، وجاوز حد العتاب . ومع كونه ليس له فى فضله من مبارى لم يقل لعا لعثارى . وتوهم أنى أبسط لسان الإساءة إليه ، وأعاتبه وأنم عليه . إن بعض الظن إثم .

والأنسب بمن أحيا الإحياء (١) وعم نفعه الأحياء ، ودانت له الرءوس ، وحل مشكلات العباب (٢) والقاموس أن لايكحل عين الود بالقذى ، ويتبع صدقاته بالمن والأذى . وهبه وهبنى ألف بدرة ، أيليق بمثله أن يعمل فيها فكره ؟ فلقد كنت أجل شانه أن يحرك بمثل ذلك لسانه . وغاية ما أوجب هذا الامتنان ،وفتح باب المذاكرة فىهذا الشان ، أن غرضنا منه المواصلة، لا حصول الصلة . ومقصودنا من شيمه المجاوزة لا قبض الجائزة . فلقد ذهب بى ـ عفا الله عنه ـ كل مذهب ، وعصفه بريح الصد مذهب ، حيث تخيل أنى ممن يتوهم أن الشعر بالشعر ربا ، وسلك فى مسلك من يرى ذلك من أراذل الأدبا . ولله در القائل :

إذا كان باب الذل من جانب الغنى ... سموت إلى العلياء من جانب الفقر

وهبنى بعثت إليه أستمطر ندى يديه فبنو العم أكفا ، وأولاد رسول الله بالندى أحرى . ولقد هممت أن لا أحير جوابا ، وأن لا أسطر فى شأن هـذه الحادثة كتابا . وتمثلت بقول صاحب لامية العجم ، فهو من جملة الحكم :

فإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل

ثم عن لى أن أتنصل إلى الأستاذ علة يقبل ، وأعلل نفسى فى بقاء وده بعسى ولعل ، والسلام .

---

(١) أحيا الإحياء : المراد أنه شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالى .

(٢) يشير إلى شرح القاموس المحيط للفيروز بادى الذى وضعه مرتضى الزبيدى . وكذلك شرح العباب فى اللغة.

فهذه الرسالة وإن كانت قد اشتملت على المحسنات اللفظية إلا أنه لم يظهر فيها ما يدل على أن الكاتب ضحى بالمعنى فى سبيل اللفظ . ولن نجد فيها الإغراق فى التكلف الذى يصل بالأسلوب إلى درجة الإسفاف والضعف، والإبهام والغموض . فأسلوبها يمتاز بالسهولة والوضوح . وقد أنشئت لغرض معين ، وهدف محدد وضعه الكاتب نصب عينيه ، وأراد أن يصل إليه من أقرب الطرق وأقصر المسالك . فقد حدثت جفوة بينه وبين مرتضى الزبيدى . فأراد الخشاب أن يزيل تلك الجفوة ، وأن يعيد الصفاء بينهما فأنشأ الرسالة المتقدمة لهذا الغرض .

ويمكننا أن نضيف إلى أغراض النثر الفنى المتقدمة : تقاريظ الكتب، وكانت تظهر فيها المحسنات اللفظية . مثال ذلك ما كتبه عبد الله الإدكاوى تقريظا لكتاب « دوحة الكتاب فى فنون الآداب » لمن اسمه نجيب ، وهو .

أسمت سرح فكرى فى خلال هذه الدوحة المثمرة ،وأدمت لمح نظرى فى ظلال هذه الروضة المزهرة . فرأيتها دوحة طوت فى منشورها من فنون الكتابة بغية كل محتاج ، ونشرت فى طيها ذكر قوم كانوا لأيامهم كالدرر فى التاج . فعين الله على جامعها فلقد أجاد فى هذا الجمع ، ومتع الناظر ببدائع ما أودعها مثل ما شنف السمع . وليس ذلك بغريب ولا عجيب إذا استفاد البلغاء من نجيب . . .

وإلى هنا ينتهى الكلام على النثر الفنى

الفصل الثانى

النثر المرســـل

النثر المرسل هو الذى لا يلتزم فيه صاحبه المحسنات اللفظية ، وإنما يضع نصب عينيه الموضوع الذى يكتب فيه . ويحصر همه فى سرد الأدلة والبراهين التى تؤيد وجهة نظره . ومن أغراض النثر المرسل فى هذا العصر :

١

نقـد المجتمع

كان نقد المجتمع وإظهار ما فيه من عيوب من أغراض النثر المرسل فى ذلك العصر . مثال ذلك ما كتبه الشعرانى فى كتابه « تنبيه المغترين » وهو :

« . . . فأين حال هؤلاء من مشايخ هذا الزمان الذين يسافرون من مصر أو الحجاز أو الشام إلى الروم والعراق ليسألوا أن يرتب لهم السلطان جوالى أو مسموحا أو مرتبا ؟ مع أن أحدهم يجد فى بلده ما يكفيه . وكان الأولى بهم لو عُرِض عليهم ذلك أن يردوه ، ولا يزاحموا جند السلطان فى مال المصالح كما درج عليه سلفهم الصالح .بل لم نر أحدا من مريدى المشايخ الذين أدركناهم يسافر من بلده فى طلب الدنيا فضلا عن المشايخ ، لأن أول قدم يضعه المريد فى الطريق أن يخرج عما بيده ويرميه فى بحر الإياس كما هو معلوم » .

« وقد سافر مرة من مشايخ مصر شخص إلى الروم ، فاجتمع بالوزير إياس باشا . فقال له : ما صنعتك ؟ فقال : شيخ من أهـــل الطريق ..

فقال له إياس : فما حاجتك التي جئت فيها ؟ قال : أن ترتبوا لي شيئاً من بيت المال . فقال له الوزير : هل تعلم أن أحدا في مصر مثلك في الطريق ؟ فقال : لا . فقال له إياس . أفّ لك من شيخ ! ! إذا كان هذا حالك ، وأنت تزعم أنه ليس أحد في مصر أعلى منك مقاما في الطريق ، فكيف ببقية المشايخ ؟ لقد أزريت بالفقراء وبهدلت الطريق . فإن آحاد المريدين لو فعل مثل ذلك وسافر من بلده إلى غيرها في طلب الدنيا لخرج من طريق الإرادة . فكيف تفعل أنت مثل ذلك في حال نهايتك ؟ وزجره وأمر بإخراجه من عنده . فرجع خاسرا لما طلب »

فتأمل أسلوب هذه القطعة تجد أنه لا يختلف عن أساليبنا التي نستخدمها نحن في عصرنا الحاضر . لا تكلف ولا ضعف ، بل هو أسلوب سهل الفهم ، واضح الألفاظ والعبارات . وكتب الشعراني كلها من هذا النوع ، وكذلك كتب عبد الرءوف المناوي .

وقد خصص الشعراني معظم كتبه لنقد أحوال المجتمع في عصره بصفة عامة ، ونقد أحوال المتصوفة بصفة خاصة . فهو يرى أن معظمهم دجالون يحتالون على أكل أموال الناس . ويحذر المجتمع منهم ، ومن حيلهم ودجلهم ، ولا يدخر في ذلك وسعا . ويورد صوراً وقصصا عن فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا ،ووقوفهم بأبواب الحكام مستجدين لهذا الحطام . ويوازن بينهم وبين أخلاق السلف الصالح من المتصوفة الذين شاهدهم وتلقى عنهم . ويتألم لخلو المجتمع من أمثال هؤلاء الصالحين .

٢

لغة التأليف

ومن أغراض النثر المرسل: التأليف . فقد اتخذ المؤلفون هذا الأسلوب السهل فى تأليف كتبهم ، ولم يستخدموا المحسنات اللفظية إلا فى القليل النادر . واهتموا بمناقشة الآراء والتعليق عليها ، وإقامة الأدلة على صحة مايقولون . مثال ذلك ماورد فى كتاب « الجوهرة المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان الجازم إلى المشيئة » لمؤلفه أبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢هـ وهو :

« وذلك[١] ما ظهر لى فى قول الله جل ذكره — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين — فأقول : ليعلم أن بعضهم بنى الاستدلال لهذا المدّعى على قوله تعالى — لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين — »

« والذى يظهر لى أن بناءه على قوله — لقد صدق الله رسوله — هو الأولى ، إن لم يكن المتعين ، فان تعليق المستقبل بالمشيئة ليس محل نزاع ، وإنما الكلام فى الماضى والحال ، فقوله — لتدخلن إلى آخره — مبين لقوله سبحانه — لقد صدق الله — فيؤخذ منه أن قران المشيئة بالأمر القطعى الذى لا يقبل التردد أمر سائغ ، وذلك أن الله تعالى أتى بالصيغة الماضوية حيث يقول — لقد صدق الله رسوله — مؤكدة باللام الموطئة للقسم ، وبقد ، ومؤكدا مفادها بالإتيان بالماضى فى محل المضارع ، دلالة على

---

(١) مخطوط رقم ٩٢ مجاميع ، عقائد تيمور ، ورقة رقم ٢ وما بعدها .

تحقيق الوقوع ، ورتب عليه قوله ـ لتدخلن إلى آخره ـ وهذا من جليل اعتناء الله تعالى بإدخال البشرى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى المؤمنين بتحقيق رؤياه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو قال ـ ليصدقن الله رسوله إلى آخر الآية ـ فإن ذلك يكون إخباراً عما سيقع ، وهو دون الخبر عن تقدم الوقوع »

فهذا الأسلوب لا يختلف عن أساليبنا المعاصرة .

الفصل الثالث

النثر الشعبي

ظهر فى هذا العصر كتاب استخدموا لأول مرة اللغة العامية الدارجة فى كتبهم . وأهم هذه الكتب سيرة الظاهر بيبرس لعدة مؤلفين متتابعين ، كان كل منهم يزيد عليها فصلا أو عدة فصول .

تبدأ وقائع هذه القصة فى بغداد فى عهد الخليفة المستكفى بالله العباسى وسجلت معارك خيالية نشبت بين هذا الخليفة وبين التتار . وانتهت هذه المعارك بانتصار المسلمين ، وذلك بفضل صلاح الدين الأيوبى الذى كافأه الخليفة بأن منحه ولاية مصر .

ثم انتقلت وقائعها إلى مدينة القاهرة بقيام الدولة الأيوبية . ولم يشغل الحكم الأيوبى فى القصة إلا حيزا صغيرا . فقد تجاهل القاص صلاح الدين وخلفاءه ، وما قاموا به من جهاد وكفاح . وصور الملك الصالح نجم الدين أيوب قطباً من أقطاب الأولياء ، زاهدا الزهد كله ، حتى إنه لا يتناول من الطعام سوى الخبز اليابس والدقة ، أى أنه لا يصلح لأن يكون ملكا . أما معز الدين أيبك فقد جاء فى صورة كريهة جدا ، ليس لها سند من التاريخ الصحيح . فهو لا يتردد فى التعاون مع الفرنجة إذا اقتضت مصلحته ذلك . وهو ظالم مستبد . ومن أجل هذا تعرض لسخط الشعب الذى كان يقف له بالمرصاد ، ويوجه إليه الشتائم والسباب ، حتى اضطر أن يعمل سردابا بين قصره وديوان الحكم ليسلكه فى غدوه ورواحه ، فراراً من الناس وابتعاداً عنهم .

أما الأحوال الاجتماعية قبيل حكم بيبرس فقد بلغت الغاية فى الاضطراب

والفساد . اختل الأمن وتعرضت الأرواح للإزهاق ، والممتلكات والأموال للنهب والسلب . وعجز الحكام عن كبح جماح اللصوص وقطاع الطرق ، بل إنهم كانوا يخشون بأس رجال العصابات ويغضون الطرف عن جرائمهم . وانتشر أهل الدعارة وتجار الأعراض فى كل مكان . وكثرت الموبقات وانتهكت الحرمات جهاراً نهارا . وكانت شخصية عثمان بن الحبلة رمزا لاختلال الأمن والاستهانة بالحكام فى ذلك العصر . وكان بيبرس هو الشخص الوحيد الذى بعثته العناية الإلهية ليخلص مصر مما ألم بها من المصائب والشرور .

والتاريخ يحدثنا عن ثورات عنيفة نشبت ضد العنصر المملوكى فى مصر فقد أنفت العناصر العربية أن تخضع لهؤلاء العبيد ، وأعلنت العصيان . واستقل أحد الأشراف بحكم منطقة واسعة من الصعيد ، وأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين . كما قامت حركات مماثلة فى بعض مناطق الوجه البحرى . وقد استطاع المماليك أن يقضوا على هذه الحركات بعد جهود شاقة . إلا أن الإحساس بالنقص من كونهم أرقاء مجهولى الأصل ، غرباء عن البلاد ، هذا الإحساس ظل يلازمهم طوال حياتهم .

فليس ببعيد أن يكون واضع هذه القصة هدف فى أول أمره إلى الدعاية للعنصر المملوكى . وإذا كان للعرب أبطال مثل عنترة وأبى زيد الهلالى وسيف ابن ذى يزن ، وإذا كانت هناك قصص تروى عن هؤلاء الأبطال ، فلماذا لا يكون للعنصر المملوكى أبطاله ؟ ولماذا لا تؤلف عن هؤلاء الأبطال قصص على نحو ما ألف عن أبطال العرب ؟ هذا على ما يبدو منشأ الفكرة التى سيطرت على ذهن المؤلف فى أول الأمر ، ووجدت تشجيعاً من المماليك الذين كانوا يتوقون إلى إحياء مجدهم السابق الذى أزيل على يد العثمانيين . فهى خير من يذكرهم بهذا المجد ، وخير من يبعث فيهم الهمم على الكفاح والنضال .

إن شخصية بيبرس تكاد تضارع أعظم الشخصيات العربية التى عرفت بالعدل والاستقامة ، والعزم والحزم ، والغضب للحق ، والشدة فى مواطن الشدة ، واللين فى مواضع اللين . والغيرة على الإسلام والمسلمين ، والكفاح ضد الكفار والمشركين . بل إن القصة صورت بيبرس رجلا لا يخطىء ، ولا يحيد عن سواء السبيل .

وإلى جانب الإشادة بالعنصر المملوكى تجد الرغبة فى التشهير بالحكم العثمانى . ففى مواضع كثيرة تطالعك حيل ملتزمى الأراضى الزراعية ، وما طبعوا عليه من بطش وظلم وقسوة فى تسخير الفلاحين فى الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا ، لا يتجاوز رغيفين وبصلتين فى اليوم . وترى فساد القضاء ، والرشوة المنتشرة بين القضاة الذين كانوا كما ذكر فى القصة يحللون الحرام ، ويحرمون الحلال . ففيها إذن حض على الثورة فى وجه الحكم العثمانى .

وقد أخذ العنصر المملوكى يسترد قوته يوما بعد يوم . ولما شعر العثمانيون بالخطر اجتهدوا فى الإيقاع بين المماليك . فانقسموا إلى فقارية وقاسمية ، وظلوا يتنازعون فيما بينهم على السلطان ، وأخيرا ظهر منهم على بك الكبير . وقد صار نفوذ العثمانيين فى مصر اسميا ، وكان الحكم الحقيقى للعنصر المملوكى منذ سنة ١١١٩ هـ فهذه القصة التى كتبت باللغة العامية الدارجة ليفهمها المماليك قد نجحت فى أداء رسالتها إلى حد بعيد . ولو تجرد المماليك من المطامع الذاتية ، وخضعوا لزعيم واحد لنجحوا فى الاستقلال بمصر .

وقد حرص مؤلفو القصة على أن يربطوا بين مصر والشام . ألم يكن بين البلدين ارتباط وثيق قبل الغزو العثمانى ؟ ولذلك نرى بيبرس ينتفع بكثيرين من أبطال الشام . مثل الفارس المغوار إبراهيم الحورانى صاحب قلعة حوران بالشام . وكان كما جاء فى القصة مقيما مع أتباعه الحوارنة فى

مساكن خاصة بهم . وقد ظـل إبراهيم طوال حيـاته مخلصا لمولاه .
أما البطل الثانى فهو سعد بن دبل البيسانى ، وهو ابن خالة إبراهيم الحورانى وعملهما متشابه ، فهما يحرسان القصر السلطانى ليلا ، ويلازمان بيبرس فى حله وترحاله ملازمة الظل . والبطل الثالث أيدمر البهلوان . وقد اشترك فى جميع الحروب والمعارك التى خاض غمارها الجيش المصرى . وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه .

وفى القصة مجال واسع للجاسوسية ، وبراعة فى التخفى والتنكر . فمن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده ، وكانوا يعملون فى خدمة بيبرس بنشاط منقطع النظير . فتراهم يتنـكرون فى هيئـة رهبـان ، أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم ، أو من بـلاد العجم . وأحيانا فى صورة فتيات جميلات ، أو جوارى حبشيات . ويطلون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التى يتنكرون فيها وهم مهارة فائقة فى تسلق جدران القصور والأسوار ، والحصون والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا ، واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه ، وحينئذ يحملونه ويهربون به .

وكان شيحة كما تصوره القصة حافظا للإنجيل ، إذا رتل بصوته الشجى أثر فى سامعيه إلى حد كبير . ويجيد التـكلم بلغة الفرنجة ، كما كان خبيرا ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة بطريق مسيحى لم يستطع أحد أن يكشف حقيقة أمره .

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحى ، وهو البطريق جوان ، الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة . وكان جوان حافظا للقرآن ، ولـكثير من الأحاديث النبوية ، دارسا لأمهات الـكتب اللغوية والنحوية ، وكتب الفقه والتفسير . فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكرا فى زى عالم مسلم اسمه الشيخ صلاح الدين . وأن يظفر بوظيفة

قاضى الديوان الملكى للصالح نجم الدين أيوب ، وهى من الوظائف التى يشغلها أكبر علماء المسلمين . وشرع جوان ، أو الشيخ صلاح الدين ، يدس الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعبا . ويراسل الفرنجة سرا ، حاضا إياهم على غزو مصر واحتلالها . واتخذ له مسكنا بحارة الروم .

والبيئة المصرية ظاهرة فى القصة ظهورا لاخفاء معه . فلم تترك ناحية من نواحى الحياة المصرية دون أن توفيها حقها من البحث والتمحيص والتحليل . كما ورد ذكر لكثير من أحياء القاهرة . وحواريها وشوارعها ، كحى بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق ، والجاميز ، والبساتين ، وقلعة الكبش ، وقناطر السباع ، وشبرا ، والرميلة وغيرها ومن المدن : بنها العسل ، وقليوب ، والإسكندرية ، ودمياط وغيرها .

وإلى جانب ما تقدم نرى حيزا كبيرا يصور البيئة الشامية ، وبخاصة بيئة الفداوية . والفداوية طائفة تعتنق مبادئ شيعية وتسكن فى بعض جهات الشام . وقد حاول صلاح الدين أن يقضى على نفوذها فلم يوفق . وظلت تتمتع بقوتها حتى خضعت أخيرا لبيبرس ، ولم يكن لها فى أيامه شأن يذكر . هذا ما سجله التاريخ ، ولكن القصة صورت الفداوية فى صورة قوم جبابرة عتاة ، أولى بأس وقوة . ولهم سلطنة اسمها سلطنة القلاع والحصون . وهم يسكنون هذه القلاع ، وكل قلعة أو حصن حوله مدينة أو عدة مدن تتبعه . ويتمتع سلطانهم بحكم نافذ عليهم ، لا مرد له ولا معقب لأمره . وهم لا يخضعون لأحد غيره ، ولا يحكم بينهم شخص سواه . وحتى هؤلاء الأبطال الذين عاونوا بيبرس كإبراهيم الحورانى وسعد بن دبل لم يكونوا خاضعين لبيبرس إلا بأمر من سلطانهم شيحة . وإذا حدث منهم ما يستوجب العقوبة تولى سلطانهم التحقيق معهم والحكم عليهم بما يراه .

ويكثر فى القصة استخدام البنج بوضعه فى الطعام أو الشراب ، أو مع البخور ، أو إلقائه فى المواقد . وأحيانا نرى السم بدله . كما يكثر فيها الاستعانة بالسحر .

وبالقصة ماشئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية ، والتحليل النفسى الدقيق ، والمـآزق التى تسمى عقدة القصة . وفيها من قوة الخيـال مايبعث الدهشة ويثير الإعجاب . وبها صراع عنيف بين الخير والشر ، وشعر عامى لا قيمة له ، وهو غالبا فى المديح النبوى ، أو التوسل والاستغاثة . كان يتغنى به من حين إلى حين ترفيها عن السامعين وتنشيطا لهم . وقد شغلت كرامات الأولياء جانبا كبيرا منها .

* * *

وبالقصة كلمات تركية مثل باشا ، وبك ، وطوبجى ، وخانجى . وكلمات إفرنجية مثل كرستيان ، ورين ودوكاتا . وجلف أى خليج .

ومن القصص التى دونت ، فى هذا العصر : سيرة الأميرة ذات الهمة . ويبدو أن مؤلفها اطلع على تاريخ الحروب التى جرت بين المسلمين والدولة الرومانية الشرقية . ثم وضع القصة لتصوير هذه الوقائع ، لا أكثر ولاأقل. وقد صور حيـاة أبطال العرب وفرسانهم . وتجرى حوادثها بين جزيرة العرب والعراق والشام وآسيا الصغرى . ومن أبطالها : هارون الرشيد ، والمأمون ، وبعض أباطرة الروم . واستخدم فيها البنج والسحر فى نطاق ضيق . ولن تجد فيها على طولها سوى الحرب والغارات ، فتارة يكون النصر فى جانب المسلمين ، وتارة فى جانب الروم . ولن تسمع فيها غير صليل السيوف ، ووقع سنابك الخيل . ولن نرى غير الرءوس المتطايرة ، والأشلاء المتناثرة .

الباب السادس

الفصل الأول

بعض مشاهير الكتاب

١

الشهاب الخفاجى

٠٠٠ ـ ١٠٦٩ هـ

هو أحمد بن محمد بن عمر قاضى القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجى . أصله من سرياقوس .

نشأ فى بيت أدب وعلم وكان والده على جانب من الثراء . فاستطاع الشهاب أن يتفرغ للدرس والتحصيل . وكان شغفه بالعلم والأدب مع مارزقه من الموهبة الطبيعية من العوامل التى هيأت له مكانا عليا بين أعلام الكتاب فى هذا العصر . وقد ترجم لنفسه فى كتابه الريحانة ، فما قاله :

« . . . فلما درجت من عشى قرأت على خالى ؛ يعنى أبا بكر الشنوانى ، سيبويه زمانه علوم العربية . ثم ترقيت فقرأت المعانى والمنطق وبقية العلوم . ونظرت كتب المذهبين : مذهب أبى حنيفة والشافعى . »

« ومن أجل من أخذت عنه شيخ الإسلام الشمس الرملى . حضرت دروسه الفرعية ، وقرأت عليه شيئا من مسلم ، فأجازنى بذلك وبجميع مؤلفاته ومروياته » .

« ومنهم شافعى زمانه القطب العارف بالله تعالى الشيخ نور الدين الزيادى ، زاد الله حسناته . حضرت دروسه زمانا طويلا . » « ومنهم العلامة فى سائر الفنون على بن غانم المقدسى الحنفى ، حضرت دروسه ، وقرأت عليه الحديث ، وكتب لى إجازة بخطه . ومنهم العلامة الفهامة خاتمة حفاظ المحدثين إبراهيم العلقمى . قرأت عليه الشفاء بتمامه ، وأجازنى به وبغيره . وممن أخذت عنه الأدب والشعر شيخنا العلامة أحمد العلقمى ، والعلامة محمد الصالحى الشامى ، والعناياتى . وممن أخذت عنه العروض الشيخ محمد المغربى المعروف بركروك . وممن أخذت عنه الطب الشيخ دواد البصير » .

« ثم ارتحلت مع والدى للحرمين الشريفين . وقرأت ثمة على الشيخ على بن جاد الله ، وعلى حفيده العصام وغيره » .

« ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين . واستفدت منهم ، وتخرجت عليهم ، وهى إذ ذاك مشحونة بالفضلاء الأذكياء كابن عبد الغنى ، ومصطفى بن عربى ، والحبر داود ، وهو ممن أخذت عنه الرياضيات ، وقرأت عليه إقليدس وغيره . وأجلهم إذ ذاك أستاذى سعد الملة والدين ابن حسن . ولما توفى قام مقامه صنع الله ، ثم ولداه . ثم انقرضوا فى مدة يسيرة فلم يبق بها عين ولا أثر . وصار الدين ملعبة وسخرية . وآل الأمر إلى اجتراء السلاطين والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم . ولما عدت إليها ثانيا بعد ما توليت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأمر ، وغلبة الجهل . فذكرت ذلك للوزير ظنا بأن النصح يفيد ، فإذا هو كما قيل :

هو الوزير ولا أزر يشد به   مثل العروض له بحر بلا ماء

فكان ذلك سببا لعزلى وأمرى بالخروج من تلك المدينة ، وإظهار العداوة ممن هو فى زى العلماء ، مع أنه لم يبق بها أحد يحسن قراءة الفاتحة »

وترجم له صاحب خلاصة الأثر ، فمما قاله :

« أحمد بن عمر قاضى القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجى المصرى الحنفى . أصله من سرياقوس . صاحب التصانيف السائرة ، وأحد أفراد الدنيا ، المجمع على تفوقه وبراعته »

«كان فى عصره بدر سماء العلم ، ونير أفق النثر والنظم . رأس المؤلفين ، ورئيس المصنفين . سار ذكره سير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب فى الفلك . وكل من رأيناه وسمعناه ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد فى التقرير والتحرير وحسن الإنشاء . وليس فيهم من يلحق شأوه ، ولا يدعى ذلك مع أنه فى الخلق من يدعى ما ليس فيه »

وتآليفه كثيرة ممتعة مقبولة . وانتشرت فى البلاد ، ورزق فيها سعادة عظيمة . وأشعاره ومنشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها . والحاصل أنه فاق كل من تقدمه فى كل فضيلة ، وأتعب من يجىء بعده . مع ما خوله الله تعالى من السعة وكثرة الكتب ، ولطف الطبع ، والنكتة النادرة . وله رسائل كثيرة ، ومكاتبات وافرة لم يجمعها . ومقامات ذكر بعضها فى ريحانته »

« وكان لما وصل الروم فى رحلته الأولى ، ولى القضاء ببلاد الروملى حتى وصل إلى أعلى مناصبها . وفى زمن السلطان مراد توصل حتى اشتهر بالفضل الباهر ، فولاه السلطان قضاء سلانيك ، فحصل بها مالا كثيرا . ثم أعطى قضاء مصر . وبعد ما عزل عنها رجع إلى بلاد الروم . فمر بدمشق وأقام بها أياما . ومدحه فضلاؤها بالقصائد ، واعتنى به أهلها وعلماؤها فأكرموا منزله . ودخل حلب ثم وصل إلى الروم . وكان إذ ذاك مفتيها يحيى بن زكريا ، فأعرض عنه لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضائه فى سلانيك ومصر ، من الجرأة وبعض الطمع . فصنع مقامة وتعرض فيها للمولى المذكور ، فكان ذلك سببا لنفيه إلى مصر وأعطى قضاء ثمة على وجه المعيشة . فاستقر بمصر يؤلف ويصنف ويقرىء وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل

الباهر »، من جملتهم العلامة عبد القادر البغدادى، والسيد أحمد الحموى وغيرهما. وقصده الطلاب من سائر البلاد »

« وكانت وفاته — رحمه الله — فى رمضان سنة ١٠٦٩ وقد أناف على التسعين. وكان توفى قبله بثلاثة أشهر الفقيه الكبير محمد بن أحمد الشوبرى الملقب بالشافعى الصغير، فقال فيهما السيد الأديب أحمد بن محمد الحموى المصرى، وكان يقرأ عليهما.

مضى الإمامان فى فقه وفى أدب   الشوبرى والخفاجى زينة العرب
وكنت أبكى لفقد الفقه منفردا   فصرت أبكى لفقد الفقه والأدب

ومن آثاره التى وصلتنا :

١ — قصائد الخفاجى، مخطوط ٧٦ مجاميع دار الكتب.
٢ — ريحانة الألبا، وزهرة الحياة الدنيا. مطبوع.
٣ — خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا. مخطوط.
٤ — طراز المجالس. مطبوع.
٥ — البوارح والسوانح مطبوع.
٦ — النفحة القدسية مطبوع.
٧ — عناية القاضى وكفاية الراضى. مطبوع.
٨ — حاشية على شرح الجرجانى على المفتاح. مطبوع.
٩ — ديوان شعره. مخطوط بمكتبة الجامعة الأزهرية.
١٠ — شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل. مطبوع.

وتدل مؤلفات الشهاب الخفاجى على تمكنه من الأدب العربى القديم، وحفظه لكثير من شعر القدماء . فإذا أورد فى خلال تراجمه لمعاصريه شيئاً من شعرهم أتبعه فى كثير من الأحيان بما يماثله من آثار السابقين ، وهو ناقد بارع ، وكاتب لا يشق له غبار . يناقش ويجادل كما ترى فى كتابه « طراز المجالس » وغيره من كتبه .

٢

مرعى بن يوسف الحنبلى

... ـ ١٠٣٣هـ

مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى ؛ نسبة إلى طور كرم ؛ بلدة بالقرب من نابلس ، ثم المقدسى . أحد كبار علماء الحنابلة بمصر . وكان له الباع الطويل فى العلوم الدينية والأدبية .

حضر إلى القاهرة ودرس على شيوخها . ثم تصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وأسندت إليه مشيخة جامع السلطان حسن حيناً من الزمن . وكان منهمكا على العلوم انهماكا كلياً ، فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس ، والتحقيق والتصنيف ، فسارت بتآليفه الركبان . ومع كثرة أضداده وأعدائه ماأمكن أن يطعن فيها أحد ، ولا أن ينظر بعين الإزراء فيها . وقد ترجم له صاحب خلاصة الأثر ، وذكر أنه له ديوان شعر . ومن مؤلفاته :

١ ـ ديوان شعره . ولم يصل إلينا

٢ ـ مسبوك الذهب فى فضل العرب ، مخطوط تيمور

٣ ـ غاية المنتهى فى الفقه . مطبوع

٤ ـ الكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية . مطبوع

٥ ـ تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك فى رمضان . مخطوط تيمور .

٦ ـ توضيح البرهان فى الفرق بين الإسلام والإيمان . مخطوط تيمور

٧ – قلائد المرجان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن . مخطوط
٨ – نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين . مخطوط
٩ – جامع الدعاء وورد الظماء ، مخطوط
١٠ – بديع الإنشاء والمراسلات . مطبوع

وله غير ذلك ، ومن شعره :

لئن قلد الناس الأئمة إننى ... لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب
أقلد فتـــواه وأعشق قوله ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

توفى بالقاهرة فى شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٣ هـ

٣

عبد البر الفيومى

... – ١٠٧٢ هـ

هو[١] عبد البر بن عبد القادر بن محمد الفيومى العوفى الحنفى ، أحد أدباء الزمان المتفوقين ، وفضلائه البارعين . كان كثير الفضل ، جم الفائدة، شاعرا مطبوعا ، مقتدراً على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، حسن الإبداع للمعانى ، مخالطا لكبار العلماء والأدباء، معدودا من جملتهم . درس فى مصر على شيوخ عصره . ثم درس فى مكة وفى دمشق والقسطنطينية . ولازم الشهاب الخفاجى مدة من الزمن . وولى بعض المناصب فى خارج البلاد المصرية وألف كتباً كثيرة أشهرها كتاب « منتزه العيون والألباب فى بعض المتأخرين من أهل الآداب » جمله على طريقة الريحانة إلا أنه رتبه على حروف المعجم وزاد عليه معاصريه . وقد اشتهر هذا الكتاب فى بلاد الشام ، وكان من المصادر التى نقل عنها المحبى صاحب خلاصة الأثر . ولم يصلنا هذا الكتاب .

(١) خلاصة الأثر ٢/٢٥٠

٤
عبد القادر البغدادى

٠٠٠ ـ ١٠٩٣ هـ

هو عبد[١] القادر بن عمر البغدادى نزيل القاهرة ، الأديب المصنف ، الرحال الباهر الطريقة فى الإحاطة بالمعارف والتضلع من الذخائر العلمية . وكان فاضلا بارعا ، مطلعاً على أقسام كلام العرب النظم والنثر ، راويا لوقائعها وحروبها وأيامها . وكان يحفظ مقامات الحريرى وكثيرا من دواوين العرب على اختلاف طبقاتهم . وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار ، والحكايات البديعة مع التثبت فى النقل وزيادة الفضل ، والانتقاد الحسن ، ومناسبة إيراد كل شىء منها فى موضعه مع اللطافة وقوة الذاكرة ، وحسن المنادمة ، وحفظ اللغة الفارسية والتركية ، وإتقانهما كل الإتقان ومعرفة الأشعار الحسنة منهما ، وأخبار الفرس .

خرج من بغداد وهو متقن لهذه اللغات الثلاث ، وورد دمشق وقرأ بها على بعض علمائها ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٠٥٠ هـ وأخذ العلوم الشرعية وآلاتها النقليه والعقليه عن جمع من مشايخ الأزهر ، أجلهم الشهاب الخفاجى والشبراملسى . وأكثر لزومه كان للخفاجى . قرأ عليه كثيراً من التفسير والحديث والآداب ، وأجازه بذلك وبمؤلفاته .

وكان الخفاجى مع جلالته وعظمته يراجعه فى المسائل الغريبة لمعرفته مظانها ، وسعة اطلاعه وطول باعه . حكى أنه قال إن ما حفظه قطرة من غدير الشهاب . وأنه استفاد علومه الأدبية منه .

ولما مات الشهاب تملك أكثر كتبه ، وجمع كتبا كثيرة . قيل إنه كان

---

(١) الخلاصة ٢/٤٥١

يملك ألف ديوان من دواوين العرب العاربة . وألف المؤلفات الفائقة أشهرها خزانة الأدب ، وشرح شواهد الكافية للرضى ، ووضع حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام .

سافر إلى درنة مرتين، ثم رجع واستقر بمصر إلى أن توفى بها سنة ١٠٩٣ هـ

* * *

ومن كتاب هذا العصر : ابن حجر الهيتمى ، والشعرانى ، وعبد الرءوف المناوى ، وعبد الله الإدكاوى ، والخشاب وغير هؤلاء كثيرون .

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلماء

١

داود الأنطاكي

٠٠٠ ـ ١٠٠٨ هـ

« هو الحكيم[1] داود بن عمر البصير الأنطاكي نزيل القاهرة، الحكيم الطبيب المشهور ، رأس الأطباء في زمانه ، وشيخ العلوم الحكمية ، وأعجوبة الدهر .

ولد بأنطاكية . وفي السابعة من عمره أصيب بمرض أعجزه عن الحركة . وكان والده شيخا لقرية حبيب النجار ، فاتخذ قرب مزار هـذا الولي رباطا للواردين ، وبنى فيه حجرات للفقراء والمجاورين . ورتب لها في كل صباح من الطعام مايكفي النازلين بها . وخصص بعض الخدم للقيام بحمل الطعام وتوزيعه على الضيوف . وكان الخدم يحملون داود إلى الرباط فيقضي به طول اليوم ، وفي المساء يعيدونه إلى منزل والده »

« وكان إذ ذاك قد حفظ القرآن ، ودرس مبادىء اللغة العربية ، ولبث يدعو الله في سره وجهره أن يمن عليه بالشفاء . وذات يوم أقبل على الرباط رجل عجمي من أفاضل العجم ، اسمه محمد شريف ، وأخذ يدرس في الرباط . وكان داود يحضر هذه الدروس ، فأعجب العجمي بذكائه وحسن استعداده فعالج ساقيه حتى برىء واستطاع أن يمشي على قدميه .

وبعد ذلك درس على العجمي علوم المنطق والرياضة والعلوم الطبيعية .

(١) خلاصة الأثر ٢ / ١٤٠

ثم مات والده ، واستولت الحكومة على ما تركه . فخرج داود من دياره قاصدا مصر . وفى طريقه إلى مصر عرج على جبل عامل فأخذ عن مشايخه . ثم دخل دمشق واجتمع بعلمائها . ثم جاء إلى مصر وأقام فيها مدة من الزمن .

وكان إذا سئل عن شيء من الفنون الحكمية والطبيعية والرياضية أملى على السائل فى ذلك ما يبلغ الكراسة والكراستين ، كما هو مشهور مثل ذلك عن الشيخ الرئيس أبى على بن الحسين .

وله من التآليف والرسائل والأشعار المزرية بروض الخمائل ما هو بأيدى الناس مألوف . منها تذكرته فى الطب وهى مشهورة . وله رسالة فى الحمام ألفها باسم الأستاذ البكرى . وشرح قصيدة « النفس » المشهورة لابن سينا ، « وهو شرح فصل فيه حقيقة النفس وجوهرها النفيس ، يرضى السائل وإن كان الشيخ الرئيس »

وقد دافع عنه صاحب خلاصة الأثر ، ونفى عنه التشيع ، ولكن تلميذه مدين القوصونى الذى درس عليه الطب قال عنه « إنه[1] كان شيعيا مخالفا لعقيدة الأشعرية ، وهم الذين يثبتون لله صفات قديمة ، ويثبتون الإمامة بالاتفاق والنص ، وموافقا لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا عليا ، وقالوا بإمامته نصا ووصية . والحق أحق أن يتبع فى بيان معتقد الإنسان . وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكم له من اعتقادات فاسدة ، وأقاويل كاذبة »

وقال تلميذه الشهاب الخفاجى فى الريحانة[2] « . . . إلا أنه كان على مذهب الحكماء ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس فى اعتقاده ، ونقل عنه رشح قطر من خفى إلحاده » .

---

(١) خلاصة الأثر ٢/١٤٤ (٢) ص ٢٧١

ومن مؤلفاته التى وصلت إلينا :

١ — نزهة الأذهان فى طب الأبدان .

٢ — النزهة المبهجة فى تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة .

٣ — تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجاب « تذكرة داود »

٤ — تزيين أسواق العشاق .

مرتضى الزَّبيدى

١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنـــفى .

ولد سنة ١١٤٥ بزبيد ونشأ بها . ثم رحل فى طلب العلم وحج مرارا . واجتمع بعلماء مكة وأخذ عنهم كالشيخ عبدالله السندى ، والشيخ عمر بن أحمد بن عقيل المـكى ، وعبدالله السقاف وغيرهم . كما قرأ على الشيخ عبد الرحمن العيدروس مختصر السعد ولازمه ملازمة كلية وألبسه العيدروس الخرقة وأجازه بمروياته ومسموعاته ، وأغراه بالرحلة إلى مصر بما وصفه له من علمائها وأمرائها وأدبائها .

فقدم إلى القاهرة فى تاسع صفر سنة ١١٦٧ هـ وسكن بخان الصاغة . وأول من عاشره وأخذ عنه السيد على المقدسى الحنفى من علماء مصر . وحضر دروس شيوخ الأزهر فى ذلك الوقت كالشيخ أحمد الملوى والجوهرى والحفنى والبليدى والصعيدى والمدابغى وغيرهم . وتلقى عنهم وأجازوه ، وشهدوا بعلمه وفضله ، وجودة حفظه .

ثم اتصل بالأمير إسماعيل كتخدا عزبان فأغدق عليه الأموال ، فحسنت حاله ورغد عيشه ، واشتهر ذكره عند الخاص والعام . ولبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات . واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه . وأكرمه شيخ العرب همام ، وأولاد نصير وأولاد وافى ، وأتحفوه بالهدايا النفيسة .

وكذلك ارتحل مرارا إلى الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . وأكرمه أهلها ورحبوا به وأحسنوا ضيافته . وصنف عدة كتب عن رحلاته فى الوجهين البحرى والقبلى تحتوى على لطائف ومحاورات ومدائح نظما ونثرا .

وكناه السيد أبو الأنوار بن وفا بأبى الفيض ، وذلك فى السابع عشر من شعبان سنة ١١٨٢ هـ

ثم تزوج وسكن بعطفة الغسال مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة . وشرح القاموس فى نحو أربعة عشر مجلدا سماه « تاج العروس » ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم ، وأشياخ الوقت بغيط المعدية سنة ١١٨١هـ وأطلعهم عليه ، واغتبطوا به ، وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ، ورسوخه فى علم اللغة ، وقرظوه نثرا ونظما .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر وعمل فيه خزانة للكتب ، اشترى نسخة من تاج العروس بمائة ألف درهم .

ثم انتقل إلى منزل بسويقة اللالا ، تجاه جامع محرم افندى ، بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفى ، سنة ١١٨٩هـ وكانت تلك الخطة عامرة إذ ذاك بالأكابر والأعيان ، فأحدقوا به وتحبب إليهم ، وأنسوا به وهادوه. وهو يظهر لهم الغنى والتعفف ، ويعظهم ويفيدهم ، فأقبلوا عليه من كل جهة ، وأتوا لزيارته من كل ناحية . ورغبوا فى معاشرته لكونه غريبا ، وعلى غير

هيئة العلماء المصريين وشكلهم - ويعرف اللغتين الفارسية والتركية

ثم شرع فى إملاء الحديث على طريقة القدماء من ذكر الأسانيد والرواة والمخرجين من حفظه على طرق مختلفة ، وكل من قدم عليه يملى عليه الحديث المسلسل بالأولية ، وهو حديث الرحمة برواته ومخرجيه ، ويكتب له سندا بذلك ، وبإجازة وسماع الحاضرين ، فأعجب الناس بمنهجه وواظبوا على حضور دروسه

وذهب إليه علماء الأزهر وطلبوا منه إجازة فقال لهم : لابد من قراءة أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة يومى الاثنين والخميس ، ليكونوا بعيدين عن أعين الناس ، وشرعوا فى قراءة صحيح البخارى ، ولكن أهل الخطة مالبثوا أن سمعوا بهذه الاجتماعات ، فازدادت مكانة الزبيدى ارتفاعا فى نظرهم ، وعلت منزلته عندهم ، فحضروا هذه الاجتماعات .

وانتقل من الرواية إلى الشرح والتعليق ، وأعجب الناس بشرحه وتوضيحه ، وصار درسا عظيما ، كما يقول الجبرتى ، فخشى شيوخ الأزهر على سمعتهم العلمية من السقوط فى أعين الجمهور ، فانقطعوا عن الحضور

فاستمر الزبيدى فى إلقاء دروسه ، وصار يملى حديثا من المسلسلات ، أو فضائل الأعمال ، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ، ويتبعه بأبيات من الشعر ، فيتعجب الحاضرون من ذلك ، لأنهم لم يعهدوا مثل هذا من المدرسين المصريين

وافتتح درسا آخر فى مسجد الحنفى ، وقرأ كتاب الشمائل النبوية للترمذى فى غير الأيام المعهودة بعد العصر ، فازدادت شهرته ، وأقبل الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته ، ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم ، وعملوا من أجله ولائم فاخرة . وكان يذهب إليهم مع خواص الطلبة ، والمقرىء

والمستملى وكاتب الأسماء فيقرأ لهم شيئاً من الحديث كثلاثيات البخارى أو الدارمى ، أو بعض المسلسلات بحضور الناس وصاحب المنزل وأصدقائه وأحبابه وأولاده ، وبناته ونسائه من خلف الستائر وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة ، ثم يختمون ذلك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ، ويكتب[١] الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات ، واليوم والتاريخ ويكتب الزبيدى تحت ذلك صحيح ذلك ، وهذه كانت طريقة المحدثين القدماء

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار ، وسعوا إلى منزله ، وترددوا لحضور مجالس دروسه وواصلوه بالهدايا الجزيلة ، فاشترى الجوارى ، وأقام الولائم ، وأكرم الوارذين عليه والوافدين إليه من الآفاق البعيدة

ولما حضر الوالى محمد عزت باشا رفع شأنه عنده ، وأصعده إليه ، وخلع عليه فروة سمور ، ورتب له مقدارا من اللحم والسمن والأرز والحطب والخبز . وعلوفة جزيلة من وقف الحرمين وغيره من الأوقاف . وأنهى إلى الدولة شأنه فعينت له مبلغا من النقود يصرف له يوميا ، وكان ذلك سنة ١١٩١هـ فعظم أمره ، واشتهر صيته ، ودعته الحكومة العثمانية لزيارة الاستانة سنة ١١٩٤ فقبل الدعوة ، ثم اعتذر عن عدم السفر

وترادفت عليه الرسائل والهدايا من أكابر الدولة العثمانية وأعيانها . وطارت شهرته فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فكاتبه ملوك الترك وأمراء الحجاز واليمن والهند والشام والعراق . وملوك شمال أفريقية وأعيان السودان . وكثرت عليه الوفود من كل ناحية ، وازدادت الهدايا الواردة

---

(١) هذه الطريقة لاقيمة لها فى درس الأحاديث ولا فى معرفة حسنها من ضعيفها . وإن كان القدماء دونوا أسماء السامعين فلرغبتهم فى توثيق سماعهم لهذه الأحاديث . أما الطريقة التى لجأ إليها الزبيدى فلا فائدة منها على الإطلاق لوجود الكتب المقطوع بصحتها .

عليه . وجاءته هدية من أغنام فزان ، وهى عجيبة الخلقة ، عظيمة الجثة ، يشبه رأسها ، رأس العجل فأرسلها إلى أولاد السلطان عبد الجيد فأعجبوا بها . وجاءته طيور مختلفة الألوان والأشكال ، وكذلك الجوارى والعبيد ، فكان يرسل من طرائف الناحية إلى الناحية المستغرب ذلك عندها ، ويأتيه فى مقابلها أضعافها . وأتاه من طرائف الهند وصنعاء وبلاد سرت وغيرها أشياء نفيسة كالعطور والمربيات والعود والعنبر مقادير عظيمة . وصارت له عند أهل المغرب شهرة واسعة ، ومنزلة رفيعة ، واعتقاد زائد . وربما اعتقدوا أنه قطب زمانه ، حتى كان أحدهم إذا ورد حاجا ولم يزر الزبيدى ، ولم يصله بشىء لا يعتبر حجه كاملا . فإذا جاءه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده . وحفظ ذلك أو كتبه. ويستخبر من هذا عن ذلك بلطف ورقة .

فإذا وفد عليه قادم من هذه الجهات سأله عن اسمه وبلده . فيقول له : فلان من بلدة كذا . فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقاً ، أو عرف جاره أو قريبه . فيقول له : فلان طيب ؟ فيقول : نعم سيدى . ثم يسأله عن أخيه فلان ، وولده فلان ، وزوجته وابنته . ويشير له باسم حارته وداره وماجاورها . فيقوم ذلك المغربى ويقعد ، ويقبل الأرض تارة ، ويسجد تارة ، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح . فتراهم فى أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب . وكل من دخل منهم قدم بين يديه مبلغاً من المال ، أو مقدارا من الشمع أو التمر على قدر حاله . وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها ويلتمسون منه الأجوبة . فمن ظفر منهم بقطعة ورقة ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة ، وحفظها كالتميمة ، ويرى أنه قد قبل حجه . وإلا فقد باء بالخيبة والندامة ، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده .

وشرع فى شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالى وبيض منه أجزاء أرسلها إلى الأستانة والشام والمغرب ليشتهر كما اشتهر شرح القاموس ، ويقبل الناس على طلبه واستنساخه .

وماتت زوجته سنة ١١٩٦ هـ فحزن عليها حزناً شديداً ، ودفنها بالقرب من ضريح السيدة رقية وشيد لها ضريحاً ، ولازم قبرها أياما كثيرة . واجتمع عنده الناس والقراء والمنشدون . وقدم لهم الطعام من الثريد والكسكسى والقهوة والشربات . واشترى قطعة أرض بجوار قبر زوجته وبناها بيتا وفرشه وسكن فيه أمها. وكان يبيت به أحياناً وقصده الشعراء بالمراثى فقبلها منهم وأجازهم · ورثاها هو بقصائد . فمما جاء فى إحداها قوله :

نعم الفتاة بها فجعت غدية ... وكذاك فعل حوادث الأيام
شدت مطايا البين ثم ترحلت ... وتمايلت أكوارها بسلام
رحلت لرحلتها غداة تحملت ... أحلامنا من قاعد وقيام
ما خلفت من بعدها فى أهلها ... غير البكا والحزن والأيتام

. . . الخ

ثم تزوج بعدها بأخرى ، وهى التى مات عنها وأحرزت ما جمعه من مال وغيره . ولما بلغ ما لا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت ، وعظم القدر والجاه عند الخاص والعام ، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار ، وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية ؛ لزم داره ، واحتجب عن أصحابه الذين كان يلم بهم قبل ذلك إلا فى القليل النادر لغرض من الأغراض ، وترك الدرس والإقراء ، واعتكف بداخل الحريم ، وأغلق الباب ، ورد الهدايا التى تأتيه من أكابر المصريين والأمراء .

ولما حضر الوالى التركى حسن باشا لم يذهب الزبيدى لزيارته ، فزاره الوالى فى بيته ، وخلع عليه فروة سمور تليق به ، وأهداه حصاناً من كرام الخيل ، عليه سرج فاخر وعباءة ، قيمته ألف دينار . وكانت شفاعته عنده لا ترد . وإن بعث إليه رسالة تلقاها بالقبول والإجلال ، وقبلها قبل أن يقرأها ، ووضعها على رأسه ، ونفذ ما فيها فى الحال .

وأرسل مرة إلى أحمد باشا الجزار والى عكا رسالة ذكر فيها أنه المهدى المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم . فصدقه الجزار ، وحفظ تلك الرسالة ضمن الأحجبة والتمائم التى يحملها . وكان يسر بذلك إلى بعض من يرد عليه ممن يدعى المعارف فى علوم الروحانيات ، ويعتقد صحته بلا شك . وكل من قدم عليه من جهة مصر سأله عن الزبيدى ، فإن أخبره وعرفه أنه اجتمع به وأخذ عنه ، وذكره بالمدح والثناء أحبه وأكرمه ، وأجزل صلته . وإن وقع منه خلاف ذلك أعرض عنه وأقصاه ، ومنع عنه بره ولو كان من أهل الفضائل ، واشتهر ذلك عنه . ولم يزل على حسن اعتقاده فى الزبيدى حتى مات كل منهما .

واتفق أن السلطان محمد صاحب بلاد المغرب أرسل إليه عدة هدايا قبل عزلته وزهده فى الهدايا . وكان الزبيدى يقبل هذه الهدايا بالحمد والثناء والدعاء . فأرسل إليـــه سنة ١٢٠١ هدية عظيمة ، فردها وامتنع عن قبولها . وضاعت الهدية ولم ترجع إلى السلطان فلما علم بذلك أرسل إليه خطاباً يعاتبه ويوبخه على ما فعل . ويقول له إنك رددت الصلة التى أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . وليتك حيث تورعت عنها كنت فرقتها على الفقراء والمحتاجين ، فيكون لنا ولك أجر ذلك ، ويلومه أيضاً على شرح كتاب الإحياء ويقول له : كان ينبغى أن تشغل وقتك بشىء نافع غير ذلك . وللمترجم من المصنفات .

(١) شرح القاموس المحيط للفيروزبادى (٢) شرح إحياء علوم الدين

للغزالى (٣) النفحة القدسيه بواسطة البضعة العيدروسية (٤) الجواهر المنيفة فى أصول مذهب أبى حنيفة مما وافق فيه الأئمة الستة (٥) العقد الثمين فى طرق الإلباس والتلقين (٦) حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق (٧) شرح الصدر فى شرح أسماء أهل بدر (٨) التفتيش فى معنى لفظ درويش (٩) رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفا وأبى الوفا (٧) بلغة الأريب فى مصطلح آثار الحبيب (١١) إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام (١٢) زهر الأكمام المنشق عن جيوب الإلهام ، بشرح قصيدة سيدى عبد السلام (١٣) رشفة المدام المختوم البكرى من صفوة زلال صيغة القطب البكرى (١٤) رشف سلاف الرحيق فى نسب حضرة الصديق (١٥) القول المثبوت فى تحقيق التابوت (١٦) تنسيق قلائد المنن فى تحقيق كلام الشاذلى أبى الحسن (١٧) لقط اللآلى من الجوهر الخالى (١٨) النوافح المسكية على الفوائح الكشكية (١٩) هدية الإخوان فى شجرة الدخان (٢٠) منح الفيوضات الوفية فيما فى سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلـهية (٢١) المنح العلية فى الطريقة النقشبندية (٢٢) ترويح القلوب بذكر ملوك بنى أيوب .

وله شعر كثير ، بعضه فى ترجمته التى أوردها الجبرتى ، وبعضه فى اللوائح الأنوارية . وقد أصيب بالطاعون ومات سنة ١٢٠٥ هـ .

— ٣ —

الصبـــان

المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ

هو محمد بن على الصبان الشافعى . ولد بمصر ، وحفظ القرآن والمتون واجتهد فى طلب العلم . وحضر أشياخ عصره وجهابذة مصره وشيوخه وبرع فى النحو وألف حاشية على الأشمونى وصفها الجبرتى بقوله « سارت بها الركبان ، وشهد بدقتها أهل الفضائل والعرفان » قال الجبرتى « وله

فى النثر كعب على ، وفى الشعر كأس ملى » ثم أورد جملة قصائد من شعره . ثم قال « وكان فى مبدإ أمره ، وعنفوان عمره معانقاً للخمول والإملاق ، متـكلا على مولاه الرزاق . يستجدى مع العفة ، ويستدر من غير كلفة » .

وعين مؤقتاً بالمدرسة الصلاحية بضريح الإمام الشافعى عندما جدده عبد الرحمن كتخدا وسكن هناك مدة ثم تركه وعين مؤقتاً فى مسجد محمد أبى الذهب لما تم بنيانه . وبنى له مسكناً فى أعلى المسجد وأقام فيه مع زوجته وأولاده . ولما اضمحل وقف هذا المسجد تركه واشترى منزلا صغيراً بحارة الشنوانى وأقام فيه . واتصل بشيخ السادات محمد أبى الأنوار ومدحه بقصائد جيدة يجدها القارىء فى « اللوائح الأنوارية » .

وحين حضر قاضى العسكر عبد الله المعروف بطظر زادة ، وكان متضلعاً من العلوم والمعارف ، وسمع بالصبان ، اجتمع به وأعجب به كل الإعجاب ، وأغدق عليه الأموال . فأثرى ولبس الملابس الغالية ، وركب الخيل الـكريمة . ثم تعرف بإسماعيل كتخدا الوالى حسن باشا وتردد عليه قبل ولايته ، فلما أتته الولاية بمصر زاد فى إكرامه وأولاه بره ، ورتب له ما يكفيه فى كل يوم من النفقات واللحم والسمن والأرز والخبز وغير ذلك . وأعطاه مقدارا كبيرا من الملابس الفاخرة . وأقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة . وعمل فرحاً وزوج ابنه عليا .

فجاءت إليه هدايا كثيرة ، وزاره الناس وأنعم عليه الوالى بمبلغ من المال وألبس ابنه فروة يوم زفافه . وكذلك أرسل إليه فرقة الموسيقى وبعض الجنود فى ليلة الزفاف

وقد أصيب المترجم بعد ذلك بالسعال وبمرض فى الرئة، ومات فجأة ليلة الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سنة ١٢٠٦ هـ وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ودفن بالبستان

الفصل الثالث

المؤرخون وأصحاب السير

١

ابن إياس الحنفي

٨٥٢ ـ ٩٣٠ هـ

هو محمد بن أحمد بن إياس الحنفي . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ في بيت مجد ونشأ في عائلة كريمة ، فقد كان جده أحد كبار موظفي الدولة المصرية في عهد السلطان الظاهر برقوق (٨٠١ ـ ٨٠٨) وترك ثروة مكنت ابنه ، والد المترجم ، من العيش الرخي . وكان والده كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة وقد أغنته ثروته عن الاشتغال بالأعمال الحكومية . وورث المترجم هذه الثروة ، واستغنى بها عن التوظف ، وبذلك تفرغ لحياة العلم ، وأقبل على قراءة الكتب الأدبية والتاريخية . ونظم الشعر وألف تاريخه المشهور .

وقد درس على جلال الدين السيوطي ، وعبد الباسط بن خليل الحنفي . وكان أخوه الجمالي يوسف موظفا كبيراً في القلعة . فاستطاع المترجم أن يقف على ما وقع من الحوادث السياسية في عصره عن طريق أخيه . فسجلها في تاريخه ملتزما الدقة والأمانة .

ويعتبر كتابه « بدائع الزهور » من أهم الكتب المؤلفة في تاريخ عصره لأن مؤلفه شاهد حوادث خطيرة ، ووقائع عظيمة ، فدونها في أمانة ودقة . ولم نجد أحداً من معاصريه اهتم بتاريخ هذه الفترة من حياة مصر . وقد وصف في تاريخه دولة المماليك وتطورها التاريخي وكيفية إدارتها وأحوالها

الاقتصادية ، وحضارتها ومبانيها ، ومواكب سلاطينها وأعيادها . ومراسم استقبال سفراء الدول الأخرى ، وما يصحب ذلك من الاحتفالات ، كما تكلم عن الأمراض والأوبئة التى ابتليت بها البلاد المصرية ، مع أخبار مهمة تتعلق بالإحصاءات. ثم ذكر أعيان ذلك العصر من العلماء والشعراء والنساك وغيرهم . وامتازت الأجزاء الأخيرة من كتابه باستيعاب الأخبار.

وهو باحث بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، منصف إلى أبعد حد ، وصف أحوال الدولة فى أواخر حكم الغورى ، وما طرأ عليها من الفساد والضيق المالى بسبب تحول التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وحرمان مصر من الأموال الطائلة التى كانت تجبيها على تلك البضائع ، واضطرار الغورى إلى إثقال كاهل الشعب بالضرائب الكثيرة التى كان يجمعها وينفقها فى بناء القصور الفخمة

وتحدث عن الجيش المصرى وإهمال الغورى له ، ثم وصف خروج السلطان إلى مرج دابق لمحاربة العثمانيين ، وكيفية انهزام الجيش المصرى وهلاك الغورى ثم وصف جهاد السلطان طومانباى ضد العثمانيين ، هذا الجهاد الذى انتهى إلى الهزيمة بسبب الخيانة وقلة العدد والعدد فى الجيش المصري. ثم تحدث عن أسر طومانباى وشنقه على باب زويلة . ووصف أعمال العثمانيين فى مصر ، واعتداءهم على الأنفس والأموال ، وتخريبهم لكثير من الأبنية ، ونقلهم الرخام والأبواب والأعمدة إلى استنبول . وكذلك نقلهم الكتب والنفائس وترحيلهم مهرة العمال والصناع إلى هناك . وماقاساه الناس بسبب ذلك من الآلام ، وما تعرضوا له من البلاء والهلاك .

ووصف السلطان سليم بالعكوف على اللذات والانغماس فى الشهوات ، تاركا الحكم لوزرائه يفعلون مايشاءون . ويقول إن ابن عثمان لم يكن يظهر إلا عند سفك دماء المماليك الجراكسة ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد

من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض . لا يثبت على قول واحد كعادة السلاطين، وليس له سماط يعرف،ولا نظام كعادةالسلاطين فى سماطهم الذى كانت تجلس عليه الخاصكية كل يوم . وأما عسكره «فكانوا جيعا بين العين، نفسهم قذرة . يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم فى الأسواق وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة ، وقلة دين . يتجاهرون بشرب الخمور فى الأسواق بين الناس . يفطرون فى رمضان ، وهم للصلاة تاركون ، حتى صلاة الجمعة . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة . وليس لهم نظام يعرف ، لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم . وهم همج كالبهائم» ثم وصف فظائعهم، وخطفهم النساء للفسق بهن ، وتخريبهم الكثير من المبانى ، وأخذهم أخشابها لاستخدامها فى طهى طعامهم أو بيعها بأبخس الأثمان

وقد أخذ ابن إياس على السلطان سليم أنه لم يكن له سماط منظم كعادة الملوك.وفاته أن سليم لم يكن مقيما إقامة دائمة فى مصر ، بل قدم فاتحا فكانت إقامته مؤقتة،وكان فى شاغل عن الأسمطة والأطعمة بتنظيم إدارة البلاد . والكشف عن مواردها ، وضبط أمورها حتى لاتفلت من يده وتخرج من حكمه أما احتجابه عن الناس فكان لخوفه على نفسه من مؤامرات المماليك.

وأسلوب ابن إياس عليه طابع الإهمال فهو كثير الخطإ اللغوى والنحوى. وقد طبع تاريخه عدة مرات آخرها الطبعة التى أخرجتها لجنة المستشرقين الألمان باستنبول سنة ١٩٣٢ م

٣

أحمد بن زنبل الرمال

من رجال القرن العاشر

هو أحمد بن أبى الحسن نور الدين المحلى الشافعى . كان موظفا بديوان الجيش إلى سنة ٩٦٠هـ وتعاطى الرمل والنجامة ومن مؤلفاته :

١ ـ فتح مصر على يد السلطان سليم
٢ ـ سيرة السلطان سليم ،وبه ذيل إلى فتح جزيرة رودس. مخطوط بألمانيا
٣ ـ تحفة الملوك ـ مخطوط ـ اكسفورد

عاش أحمد بن زنبل الرمال فى الوقت الذى تم فيه سقوط مصر فى أيدى العثمانيين . وألف كتابه « وقعة السلطان سليم بن عثمان فى فتوح مصر مع السلطان الغورى وطومانباى »

وقد سرد الحوادث والوقائع دون أن يذكر لها تاريخا معيناً وإنما أرسل الكلام كأنه يقص قصة . واجتهد فى ذكر التفاصيل التى من شأنها أن تعطينا فكرة واضحة عما أظهرته قلة من المماليك من الكفاح والجهاد دفاعاً عن مصر ، وذودا عن استقلالها . ومن الأمور التى ذكرها ولم يشر إليها ابن إياس أن السلطان سليم عرض على طومانباى أن ينوب عنه فى حكم مصر ، على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثمانى . ولكن طومانباى ومعه قلة من المماليك رفضوا ذلك رفضاً تاما بكل إباء وشمم ، وصمموا على الاحتفاظ باستقلال مصر أو الموت .

وأعطانا المؤلف فكرة عن الخيانات التى تفشت فى صفوف المماليك . فقد أرسل بعضهم ممن كانوا يحكمون الشام نيابة عن سلطان مصر رسائل إلى سليم يطمعونه فى الاستيلاء على الشام ومصر وإزالة ملك الجراكسة . وكانت خياناتهم من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة الجيش المصرى فى مرج دابق ، تلك الهزيمة التى فتحت أبواب الشام ومصر أمام العثمانيين فدخلوا دون مقاومة كبيرة . وذكر أنواع الخديعة التى لجأ إليها العثمانيون ، والتى سهلت عليهم مهمة الغزو . وقال إن البنادق والمدافع الكثيرة التى استخدمها الغزاة كانت من أسباب انتصارهم .

ومن أهم ماجاء فى الكتاب محاولة بعض المماليك استرجاع استقلال البلاد

وطرد العثمانيـــين منها . فما كاد يذاع نبأ وفاة السلطان سليم حتى قام بعض المماليك فى الشرقية وجمعوا جيشاً من الفلاحين والعرب وبقية الجراكسة . فأرسل إليهم الوالى جيشاً مجهزاً بالمدافع والبنادق، فمالبثوا أن انهزموا وتبدد شملهم . وكذلك حاول الوالى أحمد باشا الملقب بالخائن أن يستقل بمصر فى أوائل حـكم السلطان سليمان ولـكنه أخفق وقتل .

٣

على بن نور الدين الحلبى

٩٧٥ ـ ١٠٤٤هـ

هو على بن إبراهيم بن على الملقب نور الدين الحلبى القاهرى الشافعى ، صاحب السيرة النبوية .

ولد بمصر سنة ٩٧٥ ودرس على شيوخ عصره . وألف كتباً كثيرة،منها « إنسان العيون فى سيرة النبى المأمون » قال صاحب خلاصة(١) الأثر « وقد اشتهرت اشتهارا كبيرا ، وتلقتها الأفاضل بالقبول . وله مؤلفات كثيرة فى الفقه والحديث ، واللغة والتاريخ ، والنحو والتصوف » .

« وكان أحد مشايخ المدرسة الصلاحية . وكان درسه مجمع الفضـــلاء ، ومحط رحال النبلاء . وكان غاية فى التحقيق ، حاد الفهم ، قوى الفـكرة ، متحريا فى الفتاوى ، جامعاً بين العلم والعمل ، صاحب جد واجتهاد، عم نفعه الناس فأتوه لأخذ العلم عنه من البلاد »

« وهو أجل أعلام المشايخ ، وعلامة الزمان : كان جبلا من جبال العلم ، وبحرا لاساحل له ، واسع الحلم ، علامة جليل المقدار ، جامعا لأشتات العلا

(١) ٣ / ١٢٢

صارفا نقد عمره فى بث العلم النافع ونشره . وحظى فيه حظوة لم يحظها أحد مثله . وكان مهابا عند خاصة الناس وعامتهم ، حسن الخلق والخلق ، ذا دعابة لطيفة فى درسه مع جلالته . وكان الشيوخ يثنون عليه بما هو أهله من الفضل التام ، ومزيد الجلالة والاحترام » مات سنة ١٠٤٤ ودفن بالمجاورين

وكتابه المعروف بالسيرة الحلبية مطبوع ومشهور بين الناس . وكان بينه وبين أبى المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ مودة أكيدة ، وباسمه ألف هذه السيرة ، كما ذكر ذلك فى المقدمة

٤

عبد الباقى الإسحاقى

المتوفى سنة ١٠٦٠ هـ

هو محمد بن عبد المعطى الشهير بالإسحاقى المنوفى، الأديب الشاعر الفائق. كان قاضياً فاضلا ، وعالماً مؤرخا ، كثير النظم للشعر ، صحيح الفكرة ، جيد الأسلوب

قرأ ببلده منوف على شيوخ كثيرين ، وأخذ يتردد على القاهرة ويحضر فى الجامع الأزهر للدراسة على علماء عصره . وله كتاب اسمه «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» مطبوع ، وكان من المصادر التى اعتمد عليها الجبرتى فى تاريخه ، وينتهى إلى سنة ١٠٣١

سرد الإسحاقى فى تاريخه هذا سيرة ولاة بنى عثمان الذين حكموا مصر منذ السلطان سليم إلى عصره ، مع ذكر أعمالهم ، والحوادث الشهيرة التى وقعت إبان حكمهم ؛ على سبيل الاختصار ، وأورد فيه شعراً قليلا .

أما ديوانه فلم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب خلاصة الأثر قصيدة مطلعها :

أمـل لى كاسا تماما واسقنى جاما فجاما
واجعل الدرة كاسا وخـذ التبر مداما
ثم الكاس فإن الكاس ما كان تماما
واتخذها سلما للهويسمو أن يسامى
وتوهم أنها الحل وإن كانت حراما
ثم أزهى موضع فى الرو ض فاختره مقاما
وإذا شئت أن تسكر فاستدع الندامى
وليكن خمرك عاديا وساقيك غلاما
يملأ الكاسات والألحان برأ وسقاما
يملأ القلب سرورا وانبساطا وغراما
عابثا بالغصن أعطافا وبالزهر ابتساما
فهو المطلوب للمجلس رأسا وإماما
اسقنى بالكوب والكاس فرادى وتؤاما
ثم بالكاس إلى أن تترآى الهام هاما
ثم بالجرة فالجرة حتى أترامى
اسقنى حينئذ بالزق حتى لا كلاما
ثم بالدن فتلك الغاية القصوى تماما
ثم خـذ عنى ما شئت ولا تخش أثاما
والتقط منى الجمان الفرد نثرا ونظاما

محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى

المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ

ولد محمد بن محمد بن أبى السرور بالقاهرة . ونشأ فى بيت أدب وعلم ، ودرس على شيوخ عصره . وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر « كان من العلم

والتحقيق آية من آيات الله تعالى . ومن الولاية والتحقق غاية من الغايات . وكان فصيح العبارة ، طلق اللسان ، كثير الفوائد ، جم النوادر . وكانت الولاية عليه ظاهرة ، مع الدين المتين والعقل الكامل ، والتظاهر بالنعمة فى الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقا وخلقا ، مبجلا عند الكبراء والوزراء ، ذا جاه عريض ، معتقدا عند عامة الناس وخاصتهم ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة ، يرجع إليه فى مشكلات الأمور . رفيع الهمة ، كريم الأخلاق » .

« ولد بمصر ونشأ بها . وحفظ القرآن وتأدب واشتغل بطلب العلوم وأتقنها ، وبرع فى كثير من الفنون لاسيما علم التفسير والحديث . وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكرى ، فكان يدرس على عادة أسلافه فى الجامع الأزهر فى الليالى المشهورة كليلة المولد والمعراج ، والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة فى بيتهم المعمور » .

وذكره والد المحبى فى رحلته إلى مصر فقال « عين أعيان هذه القادة ، وثمين درر هذه القلادة . فرع غصن الدوحة البكرية ، وفنن الشجرة الطاهرة الصديقية التى لم تزل من البركة والسمو فى النماء ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . رونق الليالى والأيام ، وتاج رأس العلماء الأعلام » ومن كتبه فى التاريخ :

(١) عيون الأخبار ونزهة الأبصار (٢) النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (٣) الوشى المرقوم من النطق المفهوم (٤) المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية (٥) اللطائف الربانية على المنح الرحمانية .

وقد اعتمد الجبرتى على هذه الكتب وانتفع بها . وفى نهاية كتابه « عيون الأخبار » خصص بابا لأخبار الحشاشين ونوادرهم ، وأخبار الجعيدية .

مختارات من الشعر المصرى

فى ظل الحكم العثمانى

الشيخ يوسف الخفناوى

قال الشيخ يوسف الخفناوى يمدح الأمير كتخدا رضوان :

لاحت بمصر من السنا أقمار   وبدا لصبح جبينها إسفار
وجلت يد الإسعاد من أرجائها   ظلماءها فلاح بوجهها أنوار
بأميرها رضوان أوحد عصره السـ   ـامى الذى هو للزمان جبار
ملك تقوم له الملوك وتنثنى   ولها بنشر ثنائه تذكار
ملك المعالى والفخار فماله   مثل تحاول دركه الأفكار
عزماته شهب النجوم وكفه   بحر له سحب الندى تيار
مولى له المكرمات عناية   والجود أيد غيثها مدرار
ذالت تبادره إلى طلب العلا   همم ويسعفه لذاك نجار
أعلى مقام المجد فهو به غدا   ذا ثروة لم يعرها إقتار
وزها به روض الكمال فما به   إلا غصون زهرها معطار
يا مالكا رق المعالى دم لها   سنداً فتلك لها بك استنصار

وقال يمدحه :

ملأ الفؤاد هوى ووجدا   رشأ لعينى السهد أهدى
مترنح الأعطاف قد   نشر الجمال عليه بردا
يختال فى حلل الدلا   ل فيزدرى بالبان قدا
ريم سلاف حديثه   أشهى من الصهباء وردا
لدن القوام لقده الـ   أغصان تسجد إن تبدى
يرنو فيلعب بالنهى   ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجماله طا   عته ملاح العصر جندا
بجفونه النعس المرا   ض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف لحظيه اتخذ   ن جوانح العشاق غمدا
يغزونها سلباً ونهـ   با للنهى هزلا وجدا

فكأنها سرقت شبا عزمات رضوان للفدى
ملك تــؤم الآملو ن لحيه وفدا فوفدا
فيعيدها من جوده ونواله بالعيش رغدا
من كأنواء السحا ئب تعجز الألباب سردا
فاحت بنشر عبيرها أيد من الأمطار أندى
ومهابة ذلت لها الـ آساد حين بها تحدى
كعصى الكليم تلقفت من سحرهم ما قد أعدا
بأس تحاماه الملو ك له الجبال تخر هدا
ولطيف طبع كالنسـ ائم لم يدع فى الناس حقدا
بهما غدا متوليا أمر النهى حلا وعقدا
وعلىّ سعد قد كسا ه من السنا عزا ومجدا
وأراه من غيب العوا قب ما لغايته استعدا
يا طالما قد حث فى تحصيل مطلبه مجدا
يا مالكا رق المعا لى دم لها سندا معدا
لتصونها ممن يسو م جنابها فى الدهر كدا
وإليك در بلاغة نظمته أيدى المدح عقدا
حسن النسيج إلى جنا بك يوسف الحفنى أهدى
لم يكتسب إلا الأجو ر به ثناء ثم حمدا
إذ شكر من أسدى موا هب جوده فرض يؤدى
رغم لأنف حواسد قد جاوزوا فى اللوم حدا
قالوا لحقد قلوبهم هـذا بمدحته تعدى
فتغاض عنه ولا تبا لغ فى التأمل فيه نقدا
إن الكريم إذا رأى خللا تغاضى عنه قصدا
لا زال جاهك منهلا عذبا وللعافين وردا

وقال يمدحه من قصيدة طويلة :

مولاى بل مولى الأنام وملجئى ... رضوان ذى الجاه العلى الأرفع
غوث العفاة وغيث كل مؤمل ... وافى الرحاب بـذلة وتخضع
عند العطاء يريك بذل يمينـه ... سمحا سحائب جوده لم تقلع
بطل إذا لمعت بوارق سيفه ... غربت صوارم كل شهم أشجع
تغنيه شدة بأسه وسطاه عن ... حمل الظبى بل ذاك أعظم موقع
مولى إذا شاهدته وسمعته ... أغناك عن مرأى سواه ومسمع
أنست به الأيام ما قد أسلفت ... من كل قرم أو جواد مسرع
بل أين للأمم السوالف سيد ... بالبشر يلقى الوافدين إذا دُعى
لو يبذل الدنيـا استقل عطاءه ... لرفيـع همتـه التى لم تشفع
أو أين للجلفى قرم مشبـه ... يردى العتـاة ببأسـه المترفع
هيهات لم تلد النساء مثـالـه ... وسواه بالعليـاء لم يتمتع
يا ما نحى غرر المكارم بعد أن ... لم ألق غيرك بالمواهب ممتعى
شكراً لنعماك التى ما شاهدت ... عينى لهـا مثلا ولم تستتبع
لا زلت لى ولـكل من أم الحمى ... حصناً منيعاً فى الزمان الموجع
متمتعاً بعزيز جاهك حائزا ... قصب المنى فى مشرع أو منزع
وإليك أبياتا بمديحك قد غدت ... تختال تيها فى حلى أبـدع
تمشى على استحيائها إن لم تكن ... أهلا لخدمة ذا الرحاب الأوسع
يرجو بها الحفنى يوسف غفرما ... قد كان من تقصيره فى المرجع
فانظر بفكرك لطف رقتها ودع ... ياصاح قف بى فى حمـاه وودع

وقال يمدحه :

بدر المسرات فى أفق السماء له ... من طالع السعد إشراق وإسعاد
وبلبل المدح فى أفنانـ خاطره ... يتلو البشائر والأوقات أعيـاد
فقم بنا نجتلى الصهباء صافيـــة ... يسعى بهـا بابلى اللحظ مياد

تعطيك مهما رنا وعدا لحواظه ... وإن ترم صدقها فالوعد إيعاد
تخال منه جلالا لاح مقتبسا ... من عز مُلك له الآمال تنقاد
رضوان من عرفت بالفوز عزمته ... فللورى منه إسعاف وإسعاد
عين الجلال جمال الملك من خضعت ... لعز سلطانه المرهوب آساد
كهف منيع ملاذ عُدّة سند ... شهم فريد له قد عز أنداد
تعنو لسُدّته كى تستفيد هدى ... أو تجتنى المجد سادات وأمجاد
مثل السحائب أخلاقا غدت يده ... للسلم صوب الحيا والحرب إرعاد
تسح بالجود دأباً للورى فلهم ... من فيض جدواه إصدار وإيراد
وتنتضى فى الوغى ماض ضواربه ... له نفوس العدا فى الحال أغماد
فما للفاخر والمجد الأثيل سوى ... ماقد نحاه إلى علياه إسناد
هيهات لايبلغ المثنى خصائصه ... هل يستطاع لقطر الحب تعداد
حسب المديح علوا حيث أسنده ... إلى معاليه إنشاء وإنشاد
ياخير من خفقت بالمجد رايته ... أوطاف حول حماه الرحب قصاد
خذها عقيلة فكر ود سامعها ... أن لايزال لها فى الذكر إيراد
لازلت تسمو سمو الشمس فى صعد ... يحف ملكك تأييد وإسعاد

وقال يمدحه من قصيدة :

يا بدر أفق طالع ... فى أفق حسن ينجلى
ماملت فيك ولا صغيـ ... ـت لقولة من عُذلى
أنا من طريقتهم ومن ... عدوانهم فى معزل
أضحت شمائل فاتنى ... مثل الغصون الميـل
كسف البدور ضياؤه ... بجمال حسن أكمل
وعيونه تزرى المها ... ببهاء طرف أكحل
ماسحر بابل عندها ... إلا كحبة خردل
أرخى العذار بخده ... فكأنه البدر الجلى

أو سطر حسن قد بدا   فى هالة الأفق العلى
ومداده من شكله   ماء الجمال الأجمل
وعليه عقرب صدغه   كالحارس المتـوكل
يايوسف الحسن الذى   يسبى عيون الـكحل
واصل محبا ذاب من   حر الغرام المشعل
فإذا مطلت فإننى   أسلو بمدح الأكمل
رضوان كوكب مصرنا   بحر النوال الأشمل
لوجوده الدهر اكتسى   ثوب النضارة والحلى
يامن له شأن على   لم يشن بتبذل
فرسان كل بلاغة   خضعت له بتـذلل
وله الأيادى البيض فى   تفصيلها والمجمـل
لست الموفىَّ بالمديـ   ـح مدى علاك الأفضل
لو كنت فى نظم القريـ   ـض كأخطل أودعبل
لـكن دعتنى للنظا   م صناعة المتمثل
لازلت أحلى مشرب   أبدا وأعذب مورد
وظللت تسمو فى الأنا   م بمجدك المتأثل
ومحط جاه الوافد   ين المجتدى والمجتلى

وقال يمدحه :

مولاى لابرحت أياديك العلا   يهمى على الوراد غيث هباتها
وسماء عزك ساطعاً ببروجها   شمس القبول على مدى آناتها
وحسام جاهك فى عداتك واردا   لباتها والناسُ فى غفلاتها
وبحار جودك تقذف الدرر التى   عزت لمن يرجو جميل صلاتها
غرر بها الميقات تم لقاصد   حرم المنى والسعى من ميقاتها
أهدى إلىَّ فرائدا تروى الظما   وتبل غلة من أتى ساحاتها

رد حان مجدك راشفا راح الهنا والأنس صرفا من أكف سقاتها
لاتخش من دنياك فى طول المدى بأسا فسعدك مظهر غراتها
وإليك من صافى الوداد تحية تهديك من غرر الدعا ثمراتها
وتبث شكر صلات راحتك التى غمرته بالمأمول من قطراتها

٢ ـ الشهاب الخفاجى

قال :

قدحت رعود البرق زندا أضرمن أشجانا ووجدا
فى فحمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى تثاءب نوره وتمطت الأغصان قدا
وأتى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت له النسمات سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى من عنبر للمسك أهدى
عجبا لدر ناصع أودعن فى مسك مندى
فى ظل عيش ناعم بنسيم أسحار تردى
والدهر عبد طائع أهدى لنا شرفا وسعدا
مازال أصدق ناصح كم قال لى هزلا وجدا
سلم امرؤ عن طوره فى كل حال ما تعدى
فالخطب بحر زاخر فاصبر له جزرا ومدا
لا يختشى لسع الزنا بير الذى يستام شهدا
فى ذمة الأيام للـ أحرار دين قد يؤدى
إن ماطلت فلربما أنجزن بعد المطل وعدا

فإذا رمى طاطىء له رأسا تراه عنك عدى
أفبعد إخوانى الألى درجوا أخاف اليوم فقدا
عينى إذا استسقت بهم تسقى بدمع العين خدا
لو كانت القطرات تجـ مد نظمت فى الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا من شاسع الأقطار وفدا
كم فى عكاظ نديهم جلبوا لهم شكرا وحمدا
لا يشعرون بذخرهم إلا جميل الذكر نقدا
أبقى لهم حسن الحديـ ث برغم أنف الدهر خلدا
ورثوا المكارم كابرا عن كابر فرضا وردا
من كل طود شامخ متسربل برداه مجدا
أمست عيونا كلها ترنو إلى الأعداء حقدا
تلقى الورى بنديهم نكس العيون إذا تبدى
لبس الجلال على الجمـا ل فصد عنه الطرف صدا
فهمو بسلطان التقى تخذوا قلوب الناس جندا
أمسوا بغمد ضريحهم وبقيت مثل السيف فردا
مالى أقيم ببلدة فيها بناء الدين هدا
وبها الشهاب إذا سما يخشى من الشيطان طردا

وقال :

بت أرعى النجوم والإلف راقد هل سمير الشهاب غير الفراقد
فاسألوا النجم عن خفوق فؤادى واذكروا وجده بتلك المعاهد
أيها الآمرى بزهدى سمعا إننى اليوم فى الزهادة زاهد
كل زرع زرعته فى شبابى فله منجل انحنائى حاصد
أنا فى الأرض ضارب دون كسب مثل ضرب لواحد فى واحد
وعجيب لمحنة أنا فيها كم لها من أسافل الناس حاسد

نبعة اشتق من علاها أناس | أدبا حظه من اللؤم جامد
سلم عندهم نقود متاعى | والعطايا نسيئة عند جاحد
لى غوص فى كل بحر لدر | هو فى جيدهم حلا وقلائد
جهلونى وليس تجهل نار | فوق أعلام همة أنا واقد
غير أن الشهاب ليس خليلا | لمريد لدى الغواية مارد
ليت عينا إذا رنت لى رمدا | منه أمست لها الرماح مراود
يا نسيما من الحمى هب أهلا | ببشير لى المسرة قائد
أين عهد الصبا وخدى وساد | للمها والوشاح بيض السواعد
وبجيد الأيام عقد تصاب | ليس غير الكئوس فيه فرائد
حيث غر الوجوه بين الأغانى | فى رياض المنى بروق رواعد
فسقى الله عهدها بعهاد | يرضع النور من ثدى نواهد
أذكرتنى بالروم عهدا بمصر | كنت فيه عنوان كتب الحواسد
فى زمان به اللآمة دين | فسواء أقارب وأباعد
ليس فيه شىء يروق لرائى | غير بحر عذب اللهى والموارد
ورثته أحسابه كل فضل | طارف بعد إرث ما هو تالد
زحلى الأضداد فى كل فضل | وهو فى الدهر نكتة لعطارد
عجبا منه مالكا لى رقا | وهو فى رأفة المكارم والد
كم يراع بشكره يتغنى | وبمحراب طرسه هو ساجد
كم خضم بجنب بحر نداه | حبب عينه ترى كل وارد
فبفضلى أحييت منه دروسا | دارسات وحل قيد الأوابد
وبجود لديك فضل ثنائى | عنده حاتم لطى معاود
وبعدل ورثته عمريا | كن معينى على زمان معاند

وقال :

يا فاضح العين الغرير بسقام طرفك والفتور
ونباهة الثغر التى فضحت شذا نشر العبير

وشمـائل الحسن الذى أضـنى نسيمات البكور
أرحم معـنى ناحـلا لم يدر ما طعم السرور
وانظر مـدامع مقـلة أمست ترحم عن أمورى
فالسر منهـا ظـاهر مبـد لمستتر الضمير
واكشف محيـا فاتنـا كالشمس فى اليوم المطير
واسمع أحاديث الهـوى فلقد سقطت على الخبير
فمحبتى عـلوية وعذول أشجانى حرورى
ولـكم خلوت لمنيتى وقضيت من نحبى نذورى
بحديقـة فرشت لنـا ديباج سندسها الحريرى
لمـا تسللت الصبـا بين الحديقة والغدير
ومشت لتسترق الشذا فى غفلة الروض النضير
قـل للعذول على الظبـا سرح ملامك فى الحمير
ودع الفقيه وقل له فى درسه أقوال زور
ياماشيا أبـدا على بطن إلى فقـه القدور
إن ترتحل عنى فمـا فى العير أنت ولا النفير
يا أكمـه الرأى الذى قاد الملامـة للبصير
أشبعت سمعى وهولا يلتذ بالرأى الفطـير
فـدع العنا لا تعـترض بين النسيمة والزهور

وقـال :

إذا لم ألق فى أمر شفيعا فتركى ما أريد أجل شافع
أأخشى ضيق صـدر من لئيم وصدر البيد والطرقات واسع؟

وقـال :

رداء الصبر أجمـل ما تردى به حـر ينافس فى دمائه
إذا لم تنفع الإنسان شكوى فإن شفـاءه كتمان دائه

وقـال :

قلت للنـدمان لمـا مزقوا برد الدياجى
قتلتنـا الراح صرفـا فاقتـلوهـا بالمزاج

وقـال :

سهـام جفونه أعرضن عـنى فأسرع فتكها ونمـا جواهـا
فيالك أسهما تصمى الرمايا إذا صرفت إلى شىء سواها

وقـال :

قـد كان لى خـل على نهج النفـاق قـد سـلك
ركبت مـلابس وده فقطعته من حيـث رك

وقـال :

العرف قرض لمن تزكو مروءته يهوى الأداء له فى حال مقدرته
وذاك قيـد له إن لم يؤد فلا يفـك إلا بشكر أو مكافأته

وقـال :

أيهـا السائلى عن ابن فـلان وديون عليـه دهرا مليـا
ليس يقضيك حبـة من ديون ويكيل الأيمان كيـلا وفيا
إن تحاشنه فى تقاضيه يومـا صـار بالحلف دينـه مقضيا

وقـال فى ثقيـل :

لازمنـا فـدم ثقيـل فهـل له على الأرواح منـا ديون
تـكرهـه الألحـاظ منـا لذا تلوذ بالأجفـان منـا العيون

وقـال :

كم من كريم قـد بات فى دعـة   أتاه سيـل الصبـاح بالنكد
ورب فرخ أراشــه زمن   فصار بالعز بيضة البـلد

وقـال :

إن يعد ذو بغى عليك نخـله   وارقب زمانا لانتقام الطاغى
واحذر من البغى الوخيم فلو بغى   جبل على جبل لدك الباغى

٣ — عبد الله الإدكاوى

قال فى المدح :

وصل الحبيب وصح منه الموثق   واغتاظ عاذلى الجهول الأحمق
ووفى بموعده لهذا لم أقـل   وعد الزيارة طرفه المتملق
وأدار لى من مرشفيه سلافة   من طيب رياها المجالس تعبق
وأباحنى وردا جنيا ناضرا   من دونه بيض الصفائح تمشق
فضممته ضم امرىء يخشى على   ما فى يديه من الفوائد تسرق
ورشفت شهد سلافة كادت لها   أعضاى من فرط المسرة تنطق
وهصرت منه معطفا لدنا فما الـ   غصن الرشيق وما الردينى الأرشق
ولرب ليـل مربى بوصـاله   حلوا أكاد به سرورا أشرق
لانجم فيه سوى لآلىء ثغره   والبدر وجه منـه زاه مشرق
وإذا ذكرت له الصباح يقول لى   فى وجنتى شمس وصبحى المفرق
وإذا شرعت مبالغا فى وصفه   يحمر من خجل هناك ويعرق
ويقول دع وصفى وبالغ فى ثنا   رب المعالى فهو حقـا أليق
أعنى أمير المجد مأمول الجدا   من أمه لاشك فهو موفق
ذاك الأمير على المقدار من   بلواء عليـاه السيادة تخفق
ذو العزة القعساء والهمم التى   بذيولهـا راجى المنى يتعلق

والجاه ما إن أمه ذو كربة إلا وعاد وأمنه متحقق
والحكم والباس اللذين لديهما موت العدا وحياة جار يشفق
والخلق والخلق اللذين كلاهما في حسنه وجماله متأنق
حاوى البراعة والشجاعة والندى قولا وأفعالا وجودا يدفق
والهمة العليا التي قد أوجدت في عصرنا ما إن نراه يلحق
يا بر يا بحر الفواضل والحيا يا من بطلعته الدجى يتألق
همم الرجال على مقادير العلا وعلاك أسمى يا همام وأسمق
لله ما أبديته من مظهر فيه لعزك يا أميرى رونق
هيأت عرساً للمحامد والثنا وأقمت سوقا للمدائح تنفق
عرساً به بوران بارت مثل ما قطر الندى جفت وزال الريق
عرساً به أهديت بكر الخدر لا كفء المكرم مَن علاه محقق
عرساً به أظهرت شمساً حجبت عن أعين ترنو لها أو ترمق
هو أوحد الأمرا سميك ذو العلا دامت علاه برفقه تتمنطق
هذا قران السعد فاسعد يا أخا ا لعليا ودم ما دام ربك يخلق
واسمع مديحاً من عبيد إن يقل إنى بحبك فهو حقاً يصدق
وثناء درّ فى معاليك التى هى بالثناء وبالمدائح أوفق
زاد العلىّ علاك يا جل المنى يا من حيا أيديه لا يترنق
مذعم عرس المكرمات بصفوه وغدت أكف الحظ فيه تصفق
أنشأت فيه واصفاً ومؤرخاً عرس به بدر التهانى يحدق

وقال يمدح الإمام الشافعى :

لذ بالإمام الشافعى وانهض إليه وسارع
واخضع لدى أعتابه ما فاز غير الخاضع
متمسكا بترابه ما قدر مسك ضائع
وادخل حماه فمن غدا فيه فليس بضائع

واسعد بزورته وقل   يا نسل طه الشافع
ها قد أتيتك ضارعاً   يا غوث عان ضارع
فانظر إلى بعين مو   لى مالك لىَ نافع
أو ليس سرك فى الورى   يا قطب أعظم ذائع
ولك الكرامات التى   ثبتت بغير مدافع
ولك التصرف فى نوا   حى مصر غير مدافع
ما أم بابك مرتج   إلا انثنى بمنافع
أوْ ربّ مظلمة لجا   لندى حماك الواسع
إلا انثنى والنصر يع   لوه كبرق لامع
يا ابن الأئمة من قري   ش يا رجاء الطامع
يا صاحب العلم النفيـ   ـس لناظر ولسامع
يا عمدة الإسلام يا   رب المقال النافع
مهدت دين سميك الـ   ـهادى بحكم قاطع
وأقمت مذهبك المنيـ   ـر لنا كبدر ساطع
شـــيدته بدلائل   لسن الخصوم قواطع
عطفاً على ضيف بأر   ضك ذى جناح خاضع
قد خصه ذا الدهر منـ   ـه بحاسد ومشايع
ومنافق ومشاقق   ومماذق ومخادع
ومبخل من حرصه   مثل الذليل الخاضع
يخشى على ديناره   بل درهم من طامع
يمشى وينظر فى الثرى   فى هيئة المتواضع
فلعله يحظى بفلـ   ـس من نحاس واقع
وهى الغنيمة عنده   ويقول نلت منافعى
لما رأيتهمو جميـ   ـعاً مثل ذئب جائع
وليتهم ظهرى وجئـ   ـتك يا منيل مطامعى

أرجو حِباك وأنت أكرم ذى حِباً للقانع
فأمدّنى فضلا بغيث نوالك المتتابع
بحياة جدك ذى المعالى والكلام الجامع
طه الرسول المجتبىَ مختار مولى سامع
صلى عليه وآله وصحابه والتابع
ما دام يعبد ربنا من ساجد أو راكع
أو قائم أو قاعد أو هاجد أو هاجع
فيما يؤرخ ناطقاً متوسلا يا شافعى

وقال يمدح الوزير محمد سعيد باشا :

يا عين أعيان الصدارة يا أبا الإفضال يا عم الندى والسؤدد
يا شائدا رتباً سمت بفخاره عن أن تنال بحيلة أو مقصد
نهنيك بل نهنى الوزارة إنها ظفرت بمجموع الفضائل مفرد
بالليث بأساً والحيا جودا وضوء الشمس نوراً والرئيس الأوحد
والقائل الفضل الذى يمترى فيه اللبيب ولا إليه يهتدى

وقال عام ١١٧٢ وكان النيل قد أبطأ فيضانه ، ووقع الخوف فى قلوب الناس ، وارتفعت أسعار الحبوب ، وزادت بالفقير الكروب . ثم من الله بالفرج ، فانكمدت المحتكرة الفجرة ، وتحكمت به الحسرة ، وزادت مياه النيل ، وعم الخير الجزيل :

قد خزى الخُزّان وانخذل الشيطان
ولطف الله بنا وأسعف الرحمن
وأرسل النيل الذى حل به الأمان
وانبسطت نفوسنا وزاد الاطمئنان
وزال عن قلوبنا العنــاء يا فلان

فالحمد لله الذى عادته الإحسان
فاشكر له فإنه له العلا والشان
وقل لمن رام الغلا للناس يا قرنان
جاء الرخاء فكل حكر قد عمه الهوان
فيا مساكين أبشروا قد أخصب الزمان
وقد أتى التاريخ فى بيت هو الجمان
يا حبذا نيل به لنا يفى الزمان

وكتب إلى السيد مرتضى الزبيدى :

ألاعج بى لما فيه الرواج لحسن الشعر يفسده الزواج
وخذ بى فى حديث البيت واسمع مقالا فيه للفكر احتياج
سمعنا أن فى الدنيا فلوساً ولكن دون مبلغها زجاج
وقال القائلون هناك قمح تزق بها الحمائم والدجاج
وأخبرنا المخبر أن شيئاً يسمى الفول تأكله النعاج
وأهل الشرق قالوا ثم أرز يروق إذا أتى منه فجاج
وأما قولهم يا صاح سمن فقول ماله عندى ابتهاج
أمور كلها عندى محال وأقوال بها عندى انزعاج
هب الدنيا قد امتلأت بهذا أليس لنا بشىء منه حاج ؟
فأكياس الفلوس مفلسات تموت ولا يكون لها انتفاج
وأما القمح دع ذكراه رأساً فذكراه يضر بها المزاج
وأما الفول سل عنه حمارى فمنه دواؤه وبه العلاج
وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
وأما السمن سمناه ودادا فقال وداد مثلكمو خداج
وأما البيت عنه لا تسلنى فبومته لها دوماً هياج

تحدث نفسها إن غاب عنها ال غدا ومن الجوى زاد الضجاج
بأكلى أو حمارى أو قطاطى فأهرب خائفاً وبى اعتلاج
أواعدها بأنى عن قريب سأشبعها ويحصل الانفراج
فتعجب من مقالى ذا وتدعو على دهر به عدم الزواج
فأنهاها وأسمعها حديثاً عن الكرماء فيه لها ابتهاج
فتكذب منطقى وتقول أرنى فتى فيه لما فيه معاج
فأسمعها اسم صالح المفدّى تقول ذكرت من للفضل تاج
همام للموالى والمعادى لديه الاعتدال والاعوجاج
غمام وابل بكر مديد ندى كفيه ليس له ارتياج
أحال على ذا الفضل الذى لو تجسم بعضه ملئت فجاج
وكاتبنى وأمعن فى خطابى بجيم كم لها نحوى عياج
ولم تقنعه واحدة فثنى وأخشى أن يثلثه الهياج
فيا مولاى عفوا من محب له من تحت رايتك اندراج
وقل للندب صالح الأمير ا ذى لجلاله العليا سياج
يصحف لى ملوخيتى بدهن فإن البيت ليس به سراج

وقال وقد أصيب ببعض الأمراض:

جنيت على نفسى جناية جاهل لظنى أن الجهل فيه سرورها
طغت عندى الحمرا فحين صرفتها تمردت الصفرا وزاد شرورها
فأخرجتها شيئاً فشيئاً ملاطفا إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
فجاءتهما البيضا معاتبة على تعديهما جهلا وزاد نفورها
فقالت لها السوداء سيدنا أتى إلى نحو نار قد أتت يستثيرها
ولكنه والحمد لله حفه الل طيف بسرخف منه عسيرها
وها نحن أبنا واصطلحنا وضاء فى مطاويه من شمس العناية نورها
فحق له أن يشكر الله دائماً على نعمة فى الناس قل شكورها

وقال :

الليل حين يجىء يهتاج الأسى عندى ويذكو الشوق بين ضلوعى
يطوى وينشر والشجون تزيدنى وجدا فلست ألذ طيب هجوعى
يزداد طولا لا يقصر ثم لا يوحى إلى ابن ذكائه بطلوع
وإذا النهار أتى يمر كلمحة وكأنه مستعجل لرجوع

وقال .

حتى م تصنع بى الخديعه أو لست تعرفها فظيعه
دعها فديتك فهى من أخلاق منعكس الطبيعه
لا تتبع فعل اللئام وأولنى حسن الصنيعه

وقال :

قالوا يقال إذا ما كنت ذا شغف بمن تحب وتهوى أن تنال منى
هناك أربعة إن كنت تفعلها تزيده منك قربا دائما وهنا
اصبر على الجور منه لو أصابك فى اللا حم والدم أسقام وفرط عنا
وأن ترى كل لبس يرتدى حسنا من الحرير أو الكتان أو خشنا
وإن دعاك لما لا تشتهيه ولو دخول نار لظى الجحام قل حسنا
وإن شممت من الغادين رائحة من عرفه طر إليها منعشا بدنا
إن الطريق إليه فى الوصول له مريبة فاقتحمها تلق ما حسنا
واقنع فديتك بالإقبال والنا ظر البديع منه إلى الوجه المنير سنا
واعلم يقينا بأن نلت المرام متى أباحك الحسن المرغوب منه منى

وله من قصيدة فى رثاء الشيخ عبد الله الشبراوى :

عين جودى بمدمع مسفوح واندبى أوحد الزمان ونوحى

عين قلت له الدموع ولو كا	نت مثل طوفان نوح
عين عزت أوصافه الغر عدا	فطفقنا نومى إليه ونوحى
عين إن سحت الدموع وشحت	من دماء مهجتى استعيرى وسيحى
عين ضاقت مسالك الصبر عمن	كان يلقى الورى بصدر فسيح
لهف نفسى عليه لهف محب	أتمنى فداءه ولو بروحى
وعزيز على والله يا صا	ح رثائى إياه بعد مديحى
لكن الدهر ذو عناد فما ينـ	ـفك يرمى الأحباب بالتبريح

٤ — عبد الله الشبراوى

قال فى عرس بعض الأشراف سنة ١١٢٣ :

أبدا تحن إليكمو الأرواح	ولكم غدو فى العلا ورواح
يا سادة لولاهمو مالاح فى	أفق المكارم للفلاح صباح
ما الفضل إلا ما رأيت بحيكم	وعليكمو من نوره مصباح
نطق الكتاب بمجدكم وبفضلكم	وأتت أحاديث بذاك صحاح
وتواترت أخبار مجد عنكمو	يزهو بها الإمساء والإصباح
يا أيها القوم الذين تشرفت	بهمو بقاع فى العلا وبطاح
من ذا يفاخركم وأنتم عصبة	قرشية وشذا كمو فياح
وحما كمو حرم النجاة وحيكم	للقاصدين وللعفاة مباح
وإليكمو كل الفضائل تنتمى	وعلى يديكم يفتح الفتاح
يكفيكمو يا آل طه مفخر	أن العلا عقد لكم ووشاح
الله خصكمو بأشرف رتبة	العجز عن إدراكها إفصاح
أنا لا أحول وحقكم عن حبكم	كتم العواذل قولهم أو باحوا
وإذا ترنمت الأنام بذكركم	فلسان شكرى بالثنا صياح

لما نصبتم للسرور أسرة ... تزهو بها الأرواح والأشباح
وأقمتمو عرسا يضيء كأنما ... للدهر منه كوكب وضاح
أرخته أبدا بعهد حماكمو ... لأبي الفلاح تجدد الأفراح
٨ ٨١ ١٠٩ ٤٣ ١٥٠ ٤١١ ٣٢١=١١٢٣
ما إن يلام محبكم فى حبكم ... أبدا وليس عليه فيه جناح
لازلتمو أهل المكارم والتقى ... ولديكمو الإرشاد والإصلاح
طبتم وطاب جنابكم فلأجل ذا ... طاب المديح وطابت المداح

وقال تسلية لبعض الأشراف فى حادث نزل به :

يا ابن الأماجد لا تخش الردى أبدا ... وحق جدك ما هذا المقام سدى
ولا يهولنك من أعداك ما فعلوا ... كم سيد أبغضته قومه حسدا
أما ترى جدك المختار كان له ... من قومه حسد يؤذونه وعدا
أنت ابن سبط رسول الله كيف ترى ... ضيما وربك قد أعطى لك المددا
والمجد مجدك يا ابن الأكرمين فمن ... ينكر علاك عنادا فليمت كمدا
أبشر بعمر مديد لا يكدره ... سوء ودهر سعيد ليس فيه ردى
فكم لأسلافك الأمجاد من مدد ... غدا يقصر عن شأواه كل مدى
وكم يد لك بالمعروف قد عرفت ... وكم فخار كضوء الفرقدين بدا
وكم لكم يا بنى الزهراء من شرف ... عال به الله فى القرآن قد شهدا
مكارم قدر المولى الكريم بها ... لكم فأنتم بها صرتم بحور ندى
يا أحمد العصر طب نفسا فإنك من ... قوم إذا وصفوا كانوا همو السعدا
الله شرفكم قدما وطهركم ... وخصكم يا بنى الزهرا بكل هدى
من ذا يفاخركم أو من يشابهكم ... ومدحكم فى كتاب الله قد وردا
الله أعطاكمو يا آل فاطمة ... فضيلة فى العلا لم يعطها أحدا
أنتم ملوك على كل الورى ولكم ... يا آل طه لواء المجد قد عقدا
هذا لسانى قصير عن مديحكمو ... لا أستطيع إليه أن أمد يدا
وكيف أمدحكم والله يمدحكم ... مدحا مدى الدهر يتلى ذكره أبدا
لكن غاية أمرى أننى رجل ... بحب آل النبى أرجو النجاة غدا

وقال معاتباً أحد أصدقائه :

أيها الخل قد صحبناك دهراً وبلونا حلاك سرا وجهرا
وألفنا من طبعك اللطف والظر ف وطيب الأخلاق طيا ونشرا
وعلمناك أطهر الناس ذيلا ثم أيضا لازلت تزداد طهرا
ولقد طالما اختبرناك حلما فرأيناك أحلم الناس صدرا
لا لعجز وخفض قدر ولكن أحلم الناس أرفع الناس قدرا
ما ظنناك أيها الخل من قبـ ل علينا بما جرى تتجرا
وعلى كل حال أنت والله بما عندنا من الحب أدرى
حاشى لله أن نحول عن العهـ د ونأتى شيئا من الغدر نكرا
فعلام الإعراض عنى وإنى لم أجد عنك بعد بعدك صبرا
لا تسىء بى ظنا فما أنا ممن يظهر الود ثم يضمر غدرا
وإذا ما سمعت عنى ذنبا فالتمس لى عن ذلك الذنب عذرا
وعلى فرض أننى فيك أذنبـ ت فإنى لديك آمل سترا
إنما الحر من تجاوز عن هفـ وة من كان فى المودة حرا
هذه خلة الأخـــلاء قدما لا رأتك العينان منها معرى
إن تحقق رجاى فيك فأهلا أنت والله بالمكارم أجرى
وإن ازددت فى الصدود وفى الهجـ ر فوا الله لا أحاول هجرا
ووادى الذى عهدت ودادى لم أحل عنه قطشهرا ودهرا
لاتغرنك الوشـــاة ففيهم عن قريب سيحدث الله أمر
وإذا ما أضعت شعرى فإنى عند كسرى أرجو من الله جبرا

وقال عند زيارته للسيد أحمد البدوى :

ياقلب أبشر زالت الأكدار هذا المقام وهذه الأنوار
هذا مقام أبى اللثامين الذى نارت به الأعصار والأمصار
هذامقامالقطبسلطانالورى كهف العفاة الصارم البتار

هذا أبو الفرجات هذا المنتقى | من نسل من لانت له الأحجار
هذا أبو فرجات البدوى كم | قضيت به لمحبه أوطار
بطل إذا ماجاءه ذو كربة | ودعاه عاد وعنده استبشار
كم من أسير أثقلته قيوده | وسطت عليه بشؤمها الكفار
ضاقت عليه الأرض حتى ماله | من ذلك الكرب الشديد فرار
ناداك يابدوى أنقذنى فقد | ضاقت بى الآفاق والأقطار
فأغثته وأعدته لدياره | من بعد مابعدت عليه الدار
كم معسر وافاك يلتمس الغنى | كرما فعاد ومابه إعسار
وكم امرىء سبقت له الحسنى | فمذ لاحظته كشفت له الأستار
ياسيدى لجماك نور ساطع | وعلى مقامك هيبة ووقار
ولزائريك جمالة وجلالة | ولهم على كل الأنام فخار
ماجئت حيك للزيارة مرة | إلا ولاحت منك لى أسرار
واليوم جئتك أرتجيك لكربة
عظمت وكفك بالعطا مدرار
ياعمدتى وذخيرتى ووسيلتى | ياسيدا أسلافه أخيار
ياسيد الأقطاب يامن جده | طه البشير المصطفى المختار
صلى عليه الله رب العرش ما | لاحت شموس أو بدت أقمار
والآل والأصحاب أعلام الهدى | ماجن ليل أو تلاه نهار

وقال متوسلا بالنبى صلى الله عليه وسلم :

عج بالعقيق وقف بذات الأجرع | وأنخ مطيك بالعذيب ولعلع
وانزل منى فهناك قد بلغ المنى | قوم وفازوا بالمقام الأرفع
وتمل بالبيت الحرام ومل إلى | وادى الحزام ونشره المتضوع
ثم انعطف نحو الأبيرق والنقا | ودع التوانى فى السرى وتشجع
واقصد أخا الأشواق منعطف اللوى | فوق الغوير وتحت بانة ينبع

حث المطى أخا الغرام هنيهة واصبر على حر الوطيس البلقع
ومر المطى يطبن نفسا بالسرى ويسرن بين مردد ومرجع
ياحادي الأظعان خل زمامها ترد المياه كما تشاء وترتعى
أواه لوتدرى المطايا قدرما ظفرت به من بعد ذاك المهيع
لسعت على أحداقها وثنت ذوى أعناقها وطوت حنايا الأضلع
يأيها الخل المشوق ترفقـــا بك إن بدا لك نور ذاك الموضع
وتجلدا عند اللقا فكم امرىء من شوقه لما رآه لم يع
وإذا وصلت إلى معاهد طيبة والناس بين مسلم ومودع
وتظاهرت أعلام هاتيك الربى وبدا لعينك نور تلك الأربع
فادخل لذى الجاه الرفيع وكن على حذر وسل بتأدب وتضرع
واغنم سويعات هناك سعيدة مابين منبره وذاك المضجع
واستقبل القبر الشريف وناده يامن يؤمل للمكروب إذا دعى
يامن له الجاه العريض ومن به يبرا المريض من السقام المفظع
هذا مقام المستعين المستجير المذنب المتأوه المتوجع
الخائف الوجل الذى قدضيع الـ أوقات فى تحصيل مالم ينفع
واطلب نهاية ماتريد ولاتخف مللا وأكثر فى المنى وتوسع
واذكر هناك تشوقى وتشوفى وتلهفى وتولعى وتوجعى
واسأل أهيل الحى عن قلبى فمذ فارقت طيبة لم أجد قلبى معى
وأقم لى الأعذار فى التأخير عن هـذا المقام المبهج المتضوع
نزه أخا الأشواق طرفك ساعة فيها هنـــالك وابتهج وتمتع
فهناك تمتلىء القلوب مسرة وتزول من ذى العى شدة كل عى
وأعد حديثك للعذيب وبارق وابك الديار وأجر سحب الأدمع
تلك الديار فأين يوجد مثلها طيبا وأى علا لها لم يرجع
حيث النبوة والرسالة والهدى ولوامع الفضل الأعز الأمنع

سر الوجود وقطب دائرة الشهو د وذو اللوا المعقود يوم المفزع
أزكى الورى وأجل من وطىء الثرى
قدرا وأكرم شافع ومشفع

وقال متشوقا إلى مصر ونيلها في بعض أسفاره ، ومادحا آل البيت :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها فقد ردت الأمواج سائله نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويدا إذا حدثتنى عن ربوعها فبتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتى وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
لقد كان لى فيها معاهد لذة تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لى مر النسيم بها ذكرا
أما والقدود المائسات بسفحها وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما فى رباها من قوام مهفهف علا وغلا عن أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لى ذاك السرور بأرضها وقرت بمن أهواه مقلتى العبرى
لأعتنقن اللهو فى عرصاتها وأسجد فى محراب لذتها شكرا
رعى الله مرعاها وحيا رياضها وصب على أرجائها المزن والقطرا
منازل فيها للقلوب منازه فلله ما أحلى ولله ما أمرا
يذكرنى ريح الصبا لذة الصبا بروضتها الغنا وقد تنفع الذكرى
على نيلها شوقا أصب مدامعى وأصبو إلى غدران روضتها الغرا
كساها مديد النيل ثوبا معصفرا وألبسها من بعده حلة خضرا
وصافح أغصان الرياض فأصبحت تمد له كفا وتهدى له زهرا
وأودع فى أجفان منتزهاتها نسيما إذا وافاه ذو علة يبرا
إذا حذرتنى بلدة عن تشوق إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
وإن حدثونى عن فرات ودجلة وجدت حديث النيل أحلى إذا مرا

سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها وأروى بماء النيل مهجتى الحرا
وكم لى إلى مجرى الخليج التفاتة يسيل بها دمعى على ذلك المجرى
جداول كالحيات يلتف بعضها ولست ترى بطنا ولست ترى ظهرا
وكم قلت للقلب الولوع بذكرها تصبر فقال القلب لم أستطع صبرا
أما والهوى العذرى والعصبة التى أقام لها العشاق فى فنهم عذرا
لئن كنت مشغوفاً بمصر فليس لى بها حاجة إلا لقاء بنى الزهرا
أجل بنى الدنيا وأشرف أهلها وأنداهمو كفاً وأعلاهمو قدرا
همو القوم إن قابلت نور وجوههم رأيت وجوهاً تخجل الشمس والبدرا
وإن سمعت أذناك حسن صنيعهم وجئت حماهم صدق الخبر الخبرا
لهم أوجه نور النبوة زانها بلطف سرى فيهم فسبحان من أسرى
همو النعمة العظمى لأمة جدهم فيا فوز من كانوا له فى غد ذخرا
إذا فاخرتهم عصبة قرشية لجدهم المختار حسبهمو فخرا
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم سوى الاسم وانظرهم تجدهم به أحرى

٥ الصـــلاحى

قال يمدح شيخه شمس الدين الحفنى :

مل بى فقد وقد الهجير إنى بظلك مستجير
وأرح مطيك ياسمير فلقد أضر بها المسير
هذا الحمى فارصد إذا ما استأنس الظبى النفور
واطرق كناس الغيد حيـ ـث ينام راعيه الغيور
وأمط ستائره فذلك حين تنفتح الخدور
واسأل من الظبيات عن عهد تضن به الصدور
واحفظ فؤادك أن تصيب عيونهن فهن حور
من كل غانية يلو ح بوجهها القمر المنير
تختال فى مرح الشبا ب فيخجل الغصن النضير

تسعى فتقعدها روا دفها وتنهضها الخصور
سكرى رأت كسر القلو ب فصار ناظرها الكسير
فعلت بسحر جفونها ما ليس تفعله الخمور
خنثت معاطف قدها لكن لواحظها ذكور
الله أكبر من نشا ط جفونها وبها فتور
يا صاح إن جزت الخيا م وللظباء بها ظهور
قل للبخيلة بالزيا رة ما لطيفك لا يزور
لم أنس إذ وافى البشير يلوح فى فمه السرور
إذ أقبلت ريح القبو ل بها وأدبرت الدبور
فضممتها وبمهجتى من حر أشواقى سعير
فتعوذت بالروض من شرر بأنفاسى يطير
روض تعلق بالمجر رة من جوانبه نهور
تبدو به زهر الزهو ر لأنه فلك يدور
ضحكت ثغور زهوره فبكى لها النوء المطير
وحنت نواعره وحنت وهى من غيظ تفور
ذكرت قديم عهودها فانهل مدمعها النمير
ياطيب أنفاس الربيـ ع ففى تنفسها عبير
والجو مجمرة عليـ ها من ضبابتها بخور
وافت به رود بأسـ رارى لها طرف خبير
وسعت على طرق الجدا ول والنسيم لها سفير
وطروس قامتها عليـ ها من ضفائرها سطور
يا طيب ما تملى الشعو ر وحس ما تقل الغدير
ما ذاك إلا فرع ليـ ل قد تبلج فيه نور
والورق ساجعة لهـا من كل ناحية سمير

عجباء تعرب عن ضما　　أرنا وليس لها ضمير
والريح تعتنق الغصو　　ن بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراح تح　　ملها الكواكب والبدور
فقضيت منها ما قضيـ　　ـت وكان لى ولها أمور
هذا كلامى الحلو أهد　　ته إلى فمى الثغور
وضممتها عند الودا　　ع وكل أنفاسى زفير
وبكت عيون السحـ　　ـب حين تساقط الدمع الغزير
نحنا معا فتحلت الـ　　أغصان منا والنحور
وسرت وقد لاقيـ　　ـت منها ما يطيش له الصبور
صبرى وما لاقيت إذ　　رضيت به كل يسير
رعيا لذيالك الحمى　　والطرف مبتهج قرير
ولمعهد حصباؤه　　درر وتربته ذرور
قد لج بالقلب الغرو　　ر وذلك الطرف الغرير
ومرور أيام الصبا　　من دونها العيش المرير
أنى يروح العمر والـ　　أيام تنهب والشهور
كم أنجد السارى وكم　　تهم الهموم به تغور
من لى بدهر لا يسا　　عد فاليسير به عسير
أرجو انتصافا من زما　　ن صار عادله يجور
وحوادث قد آن فى　　كبدى لأسهمها خطور
لكن بجاه إمام هذا الـ　　عصر لى فيها نصير
مولى ترفع قدره　　فله أناملنا تشير
ملأ النواظر منه إجـ　　ـلالا وليس له نظير
وحماه ينفك الأسيـ　　ـر به ويستغنى الفقير
وندى أياديه شهيـ　　ـر والقليل به كثير

منن تذل لها الرقا ... ب ولا يقوم بها الشكور
يامن به تهدى السرا ... ة لأنه علم منير
طالت لخدمتك القوا ... فى والزمان بها قصير
وجرت لنحو حماك آ ... مالى وأنت بها جدير
وقصور مدحك ليس فى ... فهمى لرفعتها قصور
خذها على شرف الصبا ... رف إن ناقدها بصير

وقال :

اسقنا من يديك قهوة بن ... وأدرها ممزوجة برضابك
لاتحكم سوى كئوسك فينا ... أنت كفء ونحن من خطابك

وقال:

بالأشرفية شادن ... ظبى الكناس له الفدا
يهدى السراة جبينه ... فجبينه صبح الهدى
فى عطفه هيف الصبا ... وبلحظه سبل الردى
لولا الحياء وما أرا ... قب من مراقبة العدا
لتساقطت بخدوده ... قبلى مساقطة الندى

٦ — شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠

ترجم له الجبرتى فقال :

هو الفاضل النبيه ، اللوذعى الذكى ، المفوه الناظم الناثر ، الشاعر اللبيب الشيخ محمد المعروف بشبانة . كان من نوادر الوقت . اشتغل بالمعقول ؛ وحضر على أشياخ العصر فأنجب . ونظم الشعر وأجاد القوافى ، وداعب أهل عصره من الشعراء ، واشتهر بينهم وأذعنوا لفضله . إلا أن سليقته فى الهجو أجود منه فى المدح .

ومن قوله يهجو السيد طه البططى :

يا سديد الآراء حاشا لمجد … أنت فيه من أهمل الناس يسلم
إن طه فى ثوب لؤم ومنه … بكنار الخسران قبحا تعمم
فلهذا يقول من قد رآه … ربنا اصرف عنا عذاب جهنم
يا أديبا كالعير يحمل كتبا … من سبيل وقف ودشت مخرم
قد أبدت الموقوف شطباً ومحواً … فلهذا يا شاطب الوقف ترجم
والذى قد سطا بنظم الأهاجى … عرضه بالقبيح والذم يشتم
لكن العفو عن ذنوبك أولى … ولعين إلف تقال وتكرم

وقال من قصيدة فى مدح شيخ السادات محمد أبى الأنوار :

الأوحد المولى الذى بنواله … الغيث فى خجل يذم غمامه
مجد الأئمة والأماجد كلهم … من شك فى ذا حجه إسلامه
ومن انثنى أوزاغ عن ساداتنا … يكفيه من داعى الهدى إرغامه
أثنا على والخبير بمدحهم … فى محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التى فى نوعنا … زهر بنفح الطيب ساد ثمامه
ونتيجة السادات درة عقدهم … ومحمد بدء له وختامه
شمس بها أفق السعادة أشرقت … والكون طرا قد أزيل ظلامه
هو فارس التوحيد حامى حصنه … من مشرك باغ يزيد خصامه
بأدلة التوحيد يقطع رأيه … وعليه مغلوباً تعود سهامه
عذرى ومثلى فى مديحك قاصر … طفل صغير ما عداه فطامه
قد أعجز البلغاء كنه مديحكم … والشعر ماوفى وحار هيامه
لكننى أرجو بمدحى دعوة … ممن تشرف بالحديث لثامه
أأخاف دهرا قد أساء عشيرتى … ومحمد قد عمهم إنعامه ؟
يا كعبة السادات ناظم عقدها … عبد إليكم والثناء غلامه
شيخ مسن كاد يقضى نحبه … لعناد دهر ساءه أوهامه

بمحمد يدعى ونجل شبانة ... وبقيع مكة كان فيه حمامه
مولاى شهر الصوم سافر شاكراً ... يثنى عليكم للغفور قيامه
ومنازل الأشراف منها رحلة ... حملت عليه للمسير خيامه
وهلال عيد الفطر قال محمد ... منه استعرت البدر وهو تمامه

وقال يمدحه :

العالم الحبر الهمام أبو الهدى ... للحق والتقريب للخلاق
شمس الشريعة والعلاء محمد ... من ساد بالحظوى من الرزاق
مولى إذا نزل الأفاضل عنده ... ظفروا بأخذ العهد والميثاق
شرف على لا يقاس علاؤه ... بعلاء مولى ساد فى الآفاق
مجد له فوق الثريا رفعة ... وأساسه متأصل الأعماق
فختام عقد المجد من ساداتنا ... قطب له الله المهيمن واق
مولاى بشرى العيد بهجة ذاتكم ... بدر الكمال بدا بغير محاق
تحيا إلى أمثاله فى نعمة ... ممزوجة بمكارم الأخلاق

وقال يمدحه :

لبنى الوفا فى الكون أعلى رتبة ... بعد النبى وصحبه الأخيار
ورثوا السيادة عن على جدهم ... باب المدينة قاتل الكفار
هذا هو النسب الذى يعلو على ... كيوان والبدر المنير السارى
كالشمس فى أفق السماء ونورها ... نفع الأنام وبهجة الأبصار
نرجو ونأمل فى المعاد شفاعة ... منهم وغوثا من عذاب النار
فهمو الخيار بنو الخيار وجدهم ... فخر العلاء وأصل كل فخار
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم ... سلمت عقيدته من الأوزار
لوجودهم فى مصر أوفى نعمة ... عمت على البلدان والأمصار
من مثلهم والعلم ميراث لهم ... كالجد حيدرة الرضى الكرار

٧ — الصبـــان

قال يمدح شيخ السادات :

بعبير سرك تعبق الأقطار . وبنور وجهك تشرق الأمصار
وبيمن طلعتك السعيدة طالعاً يصفو الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منـــازل وديار
وإلى حمى حرم سما بك مجلس تسعى العفاة وتهرع الزوار
وبذكر مالك من علا ومناقب تحدوا الحداة وتسجع الأطيار
يادرة الدنيا وغرة وجهها ومنار أهليها إذا ما احتاروا
يا قطب دائرة الوجود وعارفا بشذا تقاه تهبط الأسرار
يا روض أزهار العلوم وجهبذا سجدت لتحقيقاته الأحبار
يا شمس أفلاك الكمال وسيدا دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا دهشت لبعض صغارها الافكار
قد أفرغ المولى عليك مواهباً لا عد يحصيها ولا معيار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عداك فيها النار
سبحان من يعطى بلاحصر ومن يختص بالأسرار من يختار
وله المحامد حيث أسعدنا بمن . شرفت به الأنجاد والأغوار
السيد السند الهمام المجتبى . صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يحتار
تاج الأماثل عين أعيان الورى غيث السماحة سيبها المدرار
كنز الحقيقة بيتها المعمور من بجلاله تستنزل الأمطار
ملك له أهل المعالى دولة وإليه فيهم بالبنان يشار
وأغر تقصده العفاة فتنثنى والكل حماد له شكار

ومحمد سـيرا لطيب سرائر … فى الخافقين سمت له أذكار
وابن الكرام الشم من آل الوفا … أبنـاء من سجدت له الأشجار
كناه مولاه أبا الأنوار إذ … من نوره تتولد الأنوار
ما جاء ليـل الخطب إلا رده … من ذلك الوجه المضىء نهار
تتروح الأرواح إن ذكر اسمه … وإذا تجـلى تنجلى الأبصار
وإذا تقاعدت الحماة وجدته … نعم المغيث وحبذا النصار
لا عيب فيه سوى قلاه لماله … كرما فليس له لديه قرار
لمكارم الأخلاق أحيا بعد ما … أخنى عليها دهرنا الغـدار
أنسى أناس العصر ذكرى حاتم … ينسى الغدير إذا ترى الأنهار
فبحار جود سواه قطر عنده … والقطر منه لدى سواه بحار
هو للأحبة رحمة وعلى العدى … أسد الإله وسيفـه البتار
لمحبـه منـه ندى وكرامة … ولمن يعاديه ردى وصغـار
ولاه مولاه خلافة آله … فنما به شرف لها وفخار
وأعزها منـه تقى ومعارف … ومكارم وسكينة ووقار
بعلاه آمنا فمن يؤمن ينـل … عدنا ونار لظى لها الكفار
ورث المفاخر سيدا عن سيد … قد طاب منـه محتد ونجـار
أصل العلا فرع الألى سبقوا إلى … قصب السباق السادة الأطهار
التائبون العابدون الحامدو … ن السائحون الكمل الأبرار
أهل الحقائق والدقائق والرقا … ئق من بهم تتشرف الأعصار
القادة الأمجاد من جداهمو … المصطفى وعلى الكرار
قوم همو بركات مصر وروحها … وهمو بأوج سمائها أقمار
وهمو ملاذ أناسها ومعاذهم … وهمو حماة القطر والأنصار
بجاهمو ارم الخطب عنك فإنما … للخطب آل المصطفى الأخيار
فهمو الحمـاة لمحتم ولمنتم … وهمو الكماة إذا الأعادى جاروا

وهمو الشموس ومن سواهم ظلمة وهمو الملوك وغيرهم أنفار
والمجد فيهم ملكهم وإذا ترى في غيرهم مجدا فذاك معار
والناس بالرتب العلية فخرهم ولها بأبناء الرسول فخار
منح من الوهاب عز مقامها ومواهب ما إن لها إنكار
ماذا يقول المادحون وفضلهم نطقت به الآيات والأخبار
الله في القرآن أذهب عنهمو رجسا وطهرهم فهم أطهار
وودادهم فرض وحبهمو به تمحى الذنوب وتغفر الأوزار
بمديحهم يكسى القصيد محاسنا وبذكرهم تتزين الأشعار
إني بهم وبجدهم متوسل لله وهو الماجد الغفار
لرحابهم فزعى إذا خطب دهى ولبابهم قرعى إذا أحتار
وهمو يميني إن بطشت بصائل وهمو يساري إن عرا إعسار
وبحبهم أرجو النجاة غدا إذا طاشت لهول الموقف الأفكار
عج بالمطي على حمى حرم لهم من حله ما مسه إضرار
عرج على سفح المقطم نحوهم تر مشهدا سطعت به الأنوار
هو كعبة طافت به أهل النهى وسعت إليها بالصفا الزوار
هو جنة مما يخاف وجنة تجنى بها للوافد الأثمار
هو روض أنس باسم الأزهار قد أروته من ديم الرضا أمطار
هو للمواهب والمناصب موطن هو للأمان والأماني دار
هو مورد يشفي الغليل ومنهل ما شاب صفو زلاله أكدار
هو حانة قدسية الصهباء قد حظيت برشف كئوسها الأبرار
الله أكبر ما أجل رحابهم وفدافدا لهمو بهن مزار
وموالدا لهمو زهت بمجالس عذبت بها الأوراد والأذكار
يا حسنهن موالدا ومجالسا تكسى بها حلل الرضا الحضار
يا حسنهن مواردا ومواكبا ومواسما تجنى بها الأسرار

تجلى بواردها عرائس أنسهم   وعليه أقداح السرور تدار
فهلم عشاق الفلاح لحضرة   فى القرب منها تنفق الأعمار
وعلى العيون اسعوا إليها فهى من   أجدى وأجدر ما إليه يسار
وقفوا لديهم خاضعين تشاهدوا   لا تستوى بالرؤية الأخبار
وتوسلوا بهمو بخير ابن وخير   خليفة جادت به الأقدار
مجلى حقائقهم ومظهر سرهم   من قدموه لشأنهم واختاروا
يا دانيا لرحابه أبشر فقد   قربت لك الأوطان والأوطار
أنخ المطى ببابه واعكف على   أعتابه فبه يعز الجار
وادخل حماه ومرغن بتربه   وجها فذلك إن عقلت فخار
واشهد هناك فوائحا قدسية   ولوائحا رقصت لها الحضار
وارتح وطب وارج بأرض قدست   بذلت عليها الأنفس التجار
ربحت تجارة مادح علياءه   وسواه عندى المدح فيه جبار
طب واهن بالرتب التى أوتيتها   عن بعضها أيدى الحسود قصار
طب واهن بالشيم التى بمديحها   يتشرف النظام والنثار
طب واهن بالمنح التى فيها حلت   مدح ولذ البسط والإكثار
طب واهن بالمجد الأثيل ورفعة   قرت بها لأحبة أبصار
يا حسدا زعموا استواءهمو به   هل تستوى الظلمات والأنوار
كفوا تقولكم فليس بواصل   لليث من نبح الكلاب ضرار
لا تطمعوا أن تدركوا شأوا له   قد شط عنكم يا عداة مزار
إن غر بعضا أنه من آله   ما كل ما حوت الرياض ثمار
يا صفوة الرحمن من أقرانه   يا من له نعم على غزار
هذا صديق مخلص لك وده   قد طابق الإسرار منه جهار
هذا حسيب منتم لك فى الورى   عرفت بذاك أكابر وصغار
إنى بمجدك أستجير من الجفا   والمستجير بمثل ذاك يجار

عودتنى الإقبال أجمعه فلا تخلف فأنت ابن الوفا المختار
وعوائد السادات سادات العوا ئد هكذا قد قالت الأخبار
لئن اقتضى الإدبار تقصيري فجو دك مانع ينفي به الإدبار
أو جاء كذاب إليك بفرية فعليه حسبي الواحد القهار
إن مسنى ضيم ولى بك علقة فوحق جاهك إن ذلك عار
فاعطف وجد واخلع على من الرضا حللا بها تنكى العدا الأشرار
يا ابن النبي وسيد السادات يا من طرزت بمديحه الأسفار
خذها إليك فريدة فى فنها من حسنها الدر النضير يغار
يصبو الأديب لها ويطرب عندها فكأنها صرف المدام يدار
طالت ولكن بالبدائع طولها فلذاك لا ملل ولا إضجار
جاءتك ، سابلة قناع حيائها ولها بفرط قصورها إقرار
لكنها ترجو القبول لعلمها أن الكريم مسامح غفار
فاقبل وأقبل وارض وارع فذا المنى لا درهم عندى ولا دينار
لازلت محفوظ الجناب محصنا من شر ما تجرى به الأقدار
يارب أقرر عينه بابن له يبقى لكى تبقى به الآثار
وامحق جميع عداه حتى لا يرى منهم على وجه الثرى ديار
بنبينا المختار أشرف مرسل وأجل من شدت له الأكوار
أو هز أغصان الربا من الصبا أو غردت فى أيكها الأطيار
والآل والأصحاب والأتباع ما مزن بكت فتبسمت أزهار
أو صبك الصبان قال مؤرخا نجل الوفا فاحت به الأسرار

٨ — قاسم بن عطاء الله

قال من مزدوجة طويلة يمدح الأمير كتخدا رضوان :

بكرت يوما والهوى مطيعى أرض الربى فى زمن الربيع

إذا بها فى زخرف بديع　　تزهو بثوب سندس وسيع
فى حسن وصفها استمع ما أبدى

بكت بدمع الطل عين النرجس　　فأضحكت ثغرالأقاح الألعس
والورد يزهو باحمرار الملبس　　مفتتحا أطواقه فى المجلس
قد أرج الروض بنشر الند

روض به ماء الحياة جارى　　خضر النبات منه بالجوارى
فيه خيال الورد باحمرار　　يرى له فى الماء زند وارى
وعجب فى الماء قدح الزند

حديقة بها السرور محدق　　جدولها مسلسل منطلق
فى جوها نجم الزهور مشرق　　وبانها طورا يميل ويسرق
من وجنة الماء احمرار الورد

أما ترى الدر بدا للحدق　　كالل تيجان رءوس الورق
وقد حكها النهر بظل الزنبق　　خد السماء مورد بالشفق
كلاهما بالورد زاهى الخد

لما حكى الغدير للسماء　　لاح به السماك فى ضياء
من فوقه صارت يد الهواء　　تنسج للصيد شباك الماء
بدقة لم تستطعها الأيدى

شباك در أو لجين تنسج　　لجوهر الألباب فيها فرج
بها شعاع الشمس حين يبهج　　بعسجد ترى اللجين يمزج
ليخطف الأبصار عند النقد

نجائب السحب بجند الودق　　أرسلها الغرب لحرب الشرق

لنحوه تراسلت بالسبق وكلما سلت سيوف البرق
يصهل فى الفلك جواد الرعد

وحوصرت شمس الضحى بالأفق بعسكر سد جميع الطرق
وبالدما غط قميص الشفق وانفلقت هام الدجى بالفلق
ومنه سد كسرها ببند

وابتهج الشرق على الظلماء بالصبح صاحب اليد البيضاء
أخرجها من حلة الدجاء من غير سوء قد بدت للرائى
لمحو آية الدجى المسود

وقد بدا الصبح وللجو صعد وأصبحت قضب الرياض فى ميد
ممتلئات البرد من در البرد وكل يابس غدا رطب الجسد
وفتحت عين الزهور الرمد

باكر صبوح روضة الزهور فأبرك الأشياء فى البكور
ورد على اللذات والسرور واترك هوى وساوس الصدور
فنهل اللذات عذب المورد

ما أحسن الصبوح فى الصباح والسكر فى روض الربى يا صاح
على خدود الورد والتفاح والريح تدنى مبسم الأقاح
للثم هاتيك الخدود الورد

والورق مذ غنت على العيدان بلين قد ماس غصن البان
والآس فوق وجنة النعمان من ذا رأى الجنة فى النيران
عجبت للتأليف بين الضد

وانظر إلى تلهب الشقيق غيظا على نيلوفر غريق

يومى لبنت الكرم بالتعنيق ومل إلى الرمان بالتحقيق
تراه فى صدر الربى كالنهد

أكرم ببنت الكرم والدوالى من الهموم غرسها دوالى
بها يطوف مخجل الغزال كالشمس تجلى فى يد الهلال
بكأسها فى أفق حان السعد

لله ماأبهى وما أسناها فى كأسها كالشمس فى مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها من شفتيه للعس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

شعاعها سطا على الندمان ساوى شجاع العقل بالجبان
ومالت الحمراء فى الميدان بين صفوف صحبة القنان
كأنها من الدما فى برد

مليكة لطيفـــة المزاج تختال فى برد من الديباج
على جواد أشهب الزجاج ببهجة احمرارها الوهاج
تحكى خدود قاتلى بالصد

لاتنكروا بعد الحجا جنونى تهتكى من ذلك المصون
وحدثوا إن تصفوا شجونى به عن البحر وعن عيونى
بدمعها لم تطف نار وجدى

أبحته قلبى وجفنى سكنا لما أرانى منه وجها حسنا
وطرفه الســـاحر لما أن رنا بسحره كليم قلبى فتنـــا
ولم يجد عن طوعه من بد

جاء الربيع والزمان اعتدلا وألبس الغصن من الزهر حلا
والطير ضمنت غناها مثلا إنشادها مولى لقد حاز العلا
للكتخدا رضوان رب المجد

أمير مجد أوحد الزمان يفوق معنا كامـــل المعانى

لو شام برق سيفه اليمـانى عنتر فى ألف من الشجعان
قال اللقا فى الحشر ياابن ودى

تراه للأحباب فاق الوالدا وللعدا مجـــــادلا مجالدا
أرجوه يحيا فى السرور خالدا فى الجود أغنى طارفا وتالدا
وكل منسوب له فى الود

وقال يمدح شيخ السادات :

لآل الوفا كل الفضائل تنسب هم ليس إلا منهمو الفضل يكسب
ملوك البرايا منهمو الجود ترتجى ومن جودهم ترجو الملوك وترغب
ألا إن حزب الله حزب محمد ومن ذا لحزب الله فى الخلق يغلب
أبوهم على ليث كل ملمة ومن عارض الأشبال لاشك يعطب
ولو كان يلفى للنبيين وارث فليس لهم إلا همو من يعصب
أقول لمن ضاهى وسيع رحابهم رحاب على لايضاهيه مرحب
بدور التقى فى الكون آل بنى الوفا وأنت بإسعاد لأنوارهم أب
كواكب شمس الدين أنت بأفقهم وليس يضاهى بهجة الشمس كوكب
إذا فضلوا بالسبق عنك فما أتى أخيراسوى المولى إذا ساره وكب
وعادة فرسان الرجال تقـدم فما نرتجى إلا الـكرام تعقب
كما آخر الأنباء جاء محمد وأشرافنا من نسله تتشعب
تدوم وتبقى فى السرور معمرا إليك عمارات السعادة تنسب
فأنت على التقوى تؤسس مسجدا به حرم من زاره ليس يرهب
لنا الأمن فيه من متاعب دهرنا فمن حل فى جناته ليس يتعب
له لبنات كالـكواعب أسفرت لها باحمرار النقش خد مذهب
جميع العلا وقف عليه مخلد وفيه لنا جارى الثواب مرتب
ليهن به من كان للخير فاعلا فياليتنى منهم أعــد وأحسب
عناصره طابت بأكرم سادة ففيه إلى كل الطباع تحبب

أرى علماً جارا لهم وأظنه ... بأقطابهم قالوا عليه المقطب
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم ... فقال السها قصر لأنى أقرب
تلوح الثنايا منه باسمة لهم ... ومن ظله جفن البقاع مهدب
وقد حل من خوف الوقود بقربهم ... فمن جاور السادات ليس يعذب
أيا حرما نهوى بأفئدة له ... فنرزق أثمار السرور ونوهب
على عرفات القرب هل لى وقفة ... ومن زمزم الإنعام هل لى مشرب
إليك أبا الأنوار أهدى قصيدة ... مؤدبة قد قالها متأدب
معان يعاديها الحسود وينثنى ... على مثلها أحشاؤه تتلهب
تراوع من عادى وتبدى فصاحة ... بألفاظها فهى الفصيح وثعلب
رقاق حواشيها نسيجة وحدها ... بحسن صنيع للوشاة تكذب
إذا رضى المولى بمدح محمد ... على فدع كل الخلائق تغضب
عرائس لا ترضى بغيرك ماهرا ... يؤم بأرباب البديع ويخطب
بمدحك رقياها ومدح بنى الوفا ... ومن حقها إن شئت بالتبر تكتب
فإن حفها منك القبول فحبذا ... وإلا فقد عادت على اللحظ تعتب

وقال يمدحه :

حرم فيه للملائك أمن ... وطواف بركنه واستلام
خاتم الرسل جده وبهذا ... فى وفاء للأولياء ختام
آل طه ذخيرتى المدح فيكم ... وأرى حبكم هو الإسلام
أنتم سادة الورى ولعمرى ... لاتضاهى ساداتها الخدام
مددأنانا إلا المودة يتلى ... فهو فينا لفضلكم إعلام
مذ مدحتم فى لوح كل وجود ... بالذى عنه تعجز الأقلام
وأبو الأنوار الذى بحماه ... تتساوى الليوث والآرام
أفق العز مشرق بسناه ... فالليالى تضىء والأيام

وقال يمدحه :

نجل الإمام الذي مولاه كرمه ... وماله أحد فى فضله جارى
آل الوفاء على الدنيا لهم شرف ... وهم أعز الورى جاها وأنصارا
أهل الولاية أغصان بروضتها ... وهم يلوحون للأغصان أزهارا
وللمفرد القطب شمس الدين سيدهم ... وسعده فاق بالإشراق أقمارا
وعن على أبى السبطين والده ... حاز الفخار وأحيا منه آثارا
من الذين إله العرش طهرهم ... ومن أحبهمو لن يدخل النارا
ياسيدا حاز أنواع الكمال فمن ... أراد حصر نداه زاد إحصارا
هنئت مولاى فالعام السعيد أتى ... مبشرا أن وقت الصفو قد زارا
والسعد ناداك والبشرى تؤرخه ... بالنصر تزداد إسعادا وأنوارا

وقال يمدحه :

فى أبرك الأنوار دمت سعيدا ... ويدوم وقتك بالمسرة عيدا
وحباك بالعمر الطويل وبالهنا ... وأدام حظك وافرا ومديدا
قد حزت بالخلفاء آل محمد ... قربا وايس الفضل منك بعيدا
كن واثقا بالله معتصما به ... فى عصرك المأمون دمت رشيدا
فالناس بالتحميد شرف قدرها ... والله باسمك شرف التحميدا
لولا انحصار الملك فيكم لم تكن ... فى بابكم كل الملوك عبيدا
آل الوفا إنى بكم وبجدكم ... أرجو لأوقات الهنا تجديدا
كم صغت فيكم من قلائد فكرة ... تأبى لغير جنابكم تقليدا
حبى لكم ولجدكم ياسادتى ... حسبى ولا أبغى عليه مزيدا

وقال يمدحه :

لمصر عادت بك الأيام مقبلة ... لكنها بسوى الأفراح لم تعد
ياسيد للورى أضحت مكارمه ... كالقطر والبحر إحسانا بلا عدد

على حماك عــلا الأبرار مرصدة   توفيق ربك لا بالوفق والرصد
عن الأنام الذى أسياف سطوته   لها قلوب العدا من جملة الغمد
مكرم الوجه ذى العزم الذى عجبت   منـه الملائك فى بدر وفى أحد
كن واثقا بنوال الله مكتفيا   ياخـير معتصم بالله مرتشد
محبة لقلوب الناس مطلقها   أنت الصفى ومن عاداك فى الصفد
أنشأت قاعة أنوار مشيدة   قديمة الفضل تروى المجـد عن أدد
تحرير فكرك فى إتحاف بهجتها   يريك جوهرة جاءتك بالزبد
أقسمت بالشمس من لألاء عزتها   مامثلها حرم للأمن فى البلد
ومن رآها وقطب العصر حل بها   يخالها أشرقت كالشمس بالأسد
من منهل العلم والإفضال واردة   ومثل رونقها فى الدهر لم يرد
على عمـاد التقى والدين قائمـة   دعائم الحفظ تغنيها عن العمد
جناتها تحتها الأنهار جارية   وماؤها كوثر أحلى من الشهد
سماء مجـد بشمس الدين مشرقة   على إمام بفعـل الخـير مجتهد
مشـكاة نور على نور زجاجتها   تزهو بمصباح سر منه متقد
راقت بها لبنات كاللجين بدت   تصفو دنانير خديها لمنتقد
تحكى الكواعب حسناوهى لابسة   ملونات حلى من نقشها جدد
أنت السعيد بإذن الله فى أزل   دامت حياتك يامولاى فى أبد
سدوارق وانعم وحز بشرى مؤرخة   تهن وابق ولح فى عزة وزد
لما علا الجد بالتسليم قد ختمت   كان السرور بها باسم الإله بدى
لقاعة المجـد إسعـاد بمنشئها   دامت به كعبة للرفد والرشد
لها السرور به والحفظ يصحبه   يحل منها محل الروح فى الجسد

ومن موشحاته :

مالمن أسبانى * ثانى * فى ملاح العصر
ساحر الأجفان * جانى * بالجفا والهجر

أنا منه عانى * فانى * وهو بى لا يدرى

دور

بالخديد الوردى * يبدى * نزهة الأرواح

وبخال ندى * يهدى * جنة الأرواح

ولماه الشهدى * عندى * جالب الأفراح

ثغره المرجانى * حانى * من شذاه سكرى

دور

منهل الأسرار * جارى * عند أهل المجد

سادتى الأبرار * وارى * زندهم بالسعد

وأبو الأنوار * قانى * ذو العلا والنصر

وقال .

حبيـــبى بالذى ورد شقائق خدك التبرى

وثنى قدك المفـــرد بخمرة ثغرك الدرى

ومنك الجفن قد سود على هاروت بالسحر

أدر كأس الطلا واغنم زمان الفوز بالرضوان

وقال .

مليك أوحد العصر وفى صادق الوعد

بدا فى طلعة البـــدر وهيبة طلعـة الأسد

صديق العـز والنصر حليف الجود والمجد

لهذا ترجم الأعجم بمدح الكتخدا رضوان

٩ — الخشاب

قال متغزلا :

أدر السلاف على صدى الألحان ... ودع العذول بجهله يلحانى
واستجل بكر الراح فى ظل الربى ... بين الرياض تزف والعيدان
شمس لها من فوق خد مديرها ... شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لألائها ... فى الخد نار فؤادى الولهان
نار لها فى وجنتيه .وكفه ... لهب به أعشو إلى النيران
من كف معتدل القوام كأنه ... قمر يلوح على غصين البان
نشوان من سكر الشباب يهزه ... من خمر فيه وراحة السكران
ومهفهف ماء الحياة بوجهه ... يروى بهى شقائق النعمان
وافى فعاتبنى على وصلى النوى ... والشوق يضرم ناره بجنانى
فأجبته والوجد يجرى عبرتى ... ويكاد يحبس عند ذاك لسانى
يا أيها الرشأ الذى ألحاظه ... إن أومأت فتكت بغير توانى
أبسحر بابل قد كحلت سوادها ... حتى غدت فتاكة الأجفان ؟
يا مخجل الغصن القويم ومن إذا ... ما لاح يوما يختفى القمران
كيف اللقاء وأسد قومك غابها ... بين الظبا وعوامل المران
وكماة آلك نارهم ما كسروا ... يوم الوغى من أسهم وسنان
من كل ماضى العزم حد سيوفه ... وسهام لحظ عيونه سيان
ليث العرين له تلفت جؤذر ... يفتر عن در وعن مرجان
متلألىء تحت الشعور جبينه ... كحسامه فى غيهب الميدان
عربى لفظ أعجمى المنتمى ... هندى لحظ صائل بيان
غصب النجوم فصاغهن أسنة ... وبفيه نظمها عقود جمان
ولديه بيض المشرفية حولها ... سمر اللدان جداول الأغصان

تنشى سوابقهم سحائب عثير تهمى بوارقه النجيع القانى
خرص الرماح فإن يطف بلطائف فله تكلم ألسن الخرصان
صيد حموك بكل سهم موتر سهم القسى وجفنه الوسنان
وعويذلى حسدا عليك ولائمى يتنا جيان بالاثم والعدوان
فاقبل فدتك النفس عذرى إنه كضياء وجهك واضح التبيان
ولقد أقول لعاذلى ألا اكففا جئت الهوى من بابه فدعانى

ولقد يمدح شيخ السادات محمد أبا الأنوار :

ولعت بسود أجفان الملاح وهن أحد من بعض الصفاح
وشاقتك القدود ألست تدرى كمون الحتف فى لدن الرماح ؟
حذار ظبا الكناس فثم ريم يصيد ليوث آجام البطاح
ومن علق الهوى يلتى هوانا ومن يغتر بالغرر الصباح
ومعسول الرضاب شهى فيه يجول به السلاف على الأقاح
أسيل الخد درى الثنايا قويم القد مهضوم الوشاح
يصول من اللحاظ بمرضات حشاى لوقعها دامى الجراح
إذا ما افتر مبسمه أرانا عقود النجم فى شفق الصباح
رشا أحداقه عبثت بلبى كأن بغنجها أقداح راح
ألام على هواه ولست أصغى إلى هذيان أقوال اللواحى
ودون مزاره حمر المنايا وبيض الهند ماضية السلاح
ببرق فرندها يحمى حماه وشهب رماح آساد الكفاح
فلو نسر السماء أراد يدنو إليه لعاد مقصوص الجناح
توقد وجنتيه له بقلبى ضرام النار فى خفق الرياح
وفيه تغزلى قد رق معنى وفى مولى الورى راق امتداحى
أبو الأنوار وابن الطهر طه سليل الأكرمين أخو السماح
فريد العصر أوحده علاه رفيع القدر بدر سنا الفلاح

معضد دولة المختار يدعو إلى سبل الهداية والنجاح
مطاع لو أشار إلى ثبير للبـاه بألسنـة فصاح
ذكى الذهن متقد لديه خفيات الضمائر فى اتضاح
هو البدر الذى أمسى سناه لداجى الخطب بالإشراق ماحى
له قلم بعلم الغيب يجرى وبالأرزاق والقدر المتاح
يحـاور فى أنامله يمينا فيسند عن عطاء عن رباح
يمين تملأ الدنيا يسارا بما تسديه من رفد مباح
تكاد المزن تمطرنا اللآلى. إذا منـه استعرن بطون راح
خلال كالرياض زها بهاها وأعطر نشرها أرج النواحى
وألفاظ كثغر الغيـد تزرى جواهرها بمختار الصحاح
فلو مثلت لنا كانت عقودا لجيد الغادة الحسنا الرداح
أصفوة أحمد إنى أرجى بكم فى الحشر إطلاق السراح
فليس على محـب بنى على وجدك فى القيامة من جناح
ولست بمبتغ عرضا سيفنى ليوم الحشر ادخر امتياحى
فهاك عقود نظم كدت فيها أجارى قاسما وابن الصلاحى.

وقال :

ولرب ليل قد أبيت بجنحه أطوى هضاب فدافد ووهاد
بأغر أجرد ضامر لكنه جلد العزائم عند كل جلاد
متعود وطء الأسنة فى الوغى متجشم فى الروع هول طراد
ظن السيوف جداولا وعوامل ا مران أغصان النقا المياد
وتراه يعرض فى الأعنة مثلما صدف المشوق بالدلال البادى
وكأنما صبغ الصباح أديمه ونقطته يد الدجى بمداد
ولكم به جبت المفاوز والسها مكحولة أجفانه بسهاد

متقلدا عوض السيوف عزائمى　　متسربلا بدل الدروع فؤادى
حتى بلغت أخا السماحة والندى　　وابن السراة السادة الأجياد
الباذلين على الثناء عليهمو　　ماقد حووا من طارف وتلاد
فمن ابن جعفر فى السماحة عندهم　　وبنو بويه ومن بنو عباد ؟

وقال فى مغن يدعى مصطفى الصيرفى ، ومنشد له يدعى سليمان :

اشرب على نغمة الألحان والوتر　　راحا كشمس الضحى من راحة القمر
واسمع غناء أبى داود تلق به　　أنغام داود فيها لذة العمر
واصغ لمزهر ذاك الصيرفى ترى　　إيقاع منتقد بالنغم ذى بصر
عود يمازج روحى خفق مثلثه　　مزج النديم السلاف الصرف بالمطر
لو خال معبد يوما كف ضاربه　　أمسى مقرا بفضل فيـه مشتهر
صوت رقيق ولحن حين يعربه　　يأتى بما عنه تعيى طاقة البشر
فلو تغنى لميت عاد من قدم　　جرت به الروح جرى الماء فى الشجر
ما رام يحكيه فى إتقانه حسن[1]　　إلا وجاء بقبح غير منحصر
ما قيس يوما به فى فنه رجل　　إلا كما قيست الحصباء بالدرر
وإن تعبه العداة الحاسدون له　　فالعمى تجهل ضوء الأنجم الزهر
لازال يرقى سماء العز ماصدحت　　ورق الحمام بأعلى الدوح والشجر

١٠ ـ عبد الله المنزلى

قال يمدح شيخ السادات :

مهلا أبا الأنوار مهلا　　لاتسمعن فى الصب عذلا
أسهرت جفن متيم　　عنه حديث الحب يتلى
صب له من جفنه　　نهر فما نهر المعلى ؟
وله فؤاد ذائب　　ولواعج لم تخب أصلا

---

(١) هو حسن قشوة ، أحد المغنين فى ذلك العصر

وله أنين زائد جنح الليالى ما استقلا
دنف له فى كل وقـ ـت زفرة أعيته حملا
ويرى كئيبا قد جفا من حزنه ولدا وأهلا
كبد له مقروحة من فكره بالنار تصلى
يمسى ويصبح من جيو ش الهم مشتبها بشكلى
يا ابن الأماجد يا إما م المؤمنين فتى وكهلا
حاشا لمجدك يرتضى للعبد بعد العز ذلا
حاشا لمحتدك الشريـ ـف أرى ذليلا مضمحلا
حاشا لمجلسك المنيـ ـف يكون فيه الحر نذلا
حاشاك تمنحنى ضيا ء ثم ترجع فيه كلا
فاسمح فديتك يا كريـ ـم الناس أخلاقا وفضلا
يا قطب آل بنى الوفا جيد الزمان بهم تحلى
قوم لهم فى المكرما ت عرائس الأفضال تجلى
قوم همو لى ملتجا فى كل كرب قد أظلا
وهمو غياثى من صحا ب السوء من ندرى ومن لا
لاشك أنى فى حمى السـ ـادات قد نوديت أهلا
فاصفح بفضلك عن ذنو ب قدرت من قبل أن لا
صفحا جميلا يستفا ض حديثه بين الأخلا
لأقول للقلب المشو ق لقد بلغت الآن سؤلا
وأكون ممن قد سقي كأس التقرب منه نهلا

وقال يمدحه :

الغيـاث الغيـاث ياابن النبى من عدو وحاسد وغبى
فعدوى يحرف القول عمدا وهو خصمى وليس بالمرضى
وحسودى الكذوب لاشك مغرى من خبيث من فتية الأموى

والغبى البليد يبدى حديثا عن فلان بمكره الفرضى
قد رمونى بالإثم و للزور والبهـ تان عمدا وما ارعووا عن بغى
وصفوه بكل وصف ذميم حسبى الله ناصرى وولى
ويحهم ويحهم أما يرقبون اللـ ـه فى عبده النصيح السوى
أبعد الله هؤلاء زوالا ومساء فى الضحى والعشى
ليس فيهم راع لود كريم بل تدانوا بودهم للدنى
هو نجل السادات آل وفاء كرم الله وجههم بعلى
آل بيت مبرأون من الرجـ ـس بنص فى المحكم العربى
ملجأ اللائذين غوث البرايا مأمن الخائفين من كل شى
يا إمام التحقيق فى كل فن يا مفيد العلوم يا ابن الوصى
أنت حقا باب المدينة للعلـ ـم بحكم الوراثة الشرعى
لا تدعنى فريسة لذئاب ارتووا من دم الفتى المنزلى
فأجرنى من هؤلاء فإنى لى عهد وأنت خير وفى
واجل عنى سحب الجفاء لكى يبدو نورى للباد والحضرى
إننى الكوكب المضىء بنور من سناك العظيم الأنورى
كنت قدما مطوى دهر ولكن أظهرتنى يداك من بعد طى
حاش لله أن أضام ولى عز عظيم فى جاهك الحسنى
وإليك البديع قد زف بكرا بنت فكر فى حسنها والحلى
ذات در من المعانى مضىء فاقبلنها بعفوك الشاملى
واعف عنى عفوا يكون جميلا ناسخاً ما جنيت من كل غى
فاعترافى بالذنب يوجب عفوا من كريم عن المساوى برى
وصلاة على النبى دواما وسلام من العزيز العلى
وعلى آله الكرام الموالى وصحاب ذوى المقام الجلى
ما عبيد السادات قال ارتجالا الغياث الغياث يا ابن النبى

فهـــرس

الموضوع — الصفحة

مقدمـة ٣

الباب الأول : الفصل الأول : الحالة السياسية ٨

الفصل الثانى : الحالة الإجتماعية ١٩

الفصل الثالث : الحالة الفكرية ٣٥

الباب الثانى : الفصل الأول : الشعر ومذاهبه ٥٧

الفصل الثانى : المدرسة البكرية ٧٠

الفصل الثالث : المدرسة العلوية ١٣٥

الفصل الرابع : المدرسة الأميرية ١٧٢

الفصل الخامس : المدرسة الشعبية ١٩١

الباب الثالث : دراسات تكميلية ٢٠٩

١ ـــ الوصف ٢٠٩

٢ ـــ الغزل ٢١٧

٣ ـــ الإخوانيات ٢٢٣

٤ ـــ التوسل ٢٣١

الباب الرابع : بعض مشاهير الشعراء ٢٣٥

١ ـــ عبدالله الشبراوى ٢٣٥

٢ ـــ عبدالله الإدكاوى ٢٣٧

٣ ابن الصلاحى ٢٤٠

٤ ـــ قاسم بن عطاء الله المصرى ٢٤٢

٥ ـــ السبربائى ٢٤٣

٦ ـــ الظهورى ٢٤٥

٧ ـــ الخشاب ٢٤٧

الموضوع — الصفحة

الباب الخامس : النثر ٢٤٩
الفصل الأول : النثر الفني ٢٤٩
١ — المقامات ٢٥٣
٢ — الرسائل ٢٥٥
ا — الرسائل الرسمية ٢٥٥
ب — الرسائل الإخوانية ٢٦٤
الفصل الثاني : النثر المرسل ٢٦٦
١ — نقد المجتمع ٢٦٦
٢ — لغة التأليف ٢٦٨
الفصل الثالث : النثر الشعبي ٢٦٠
الباب السادس : الفصل الأول : بعض مشاهير الكتاب ٢٧٦
١ — الشهاب الخفاجي ٢٧٦
٢ — مرعي بن يوسف الحنبلي ٢٨٠
٣ — عبد البر الفيومي ٢٨١
الفصل الثاني : بعض مشاهير العلماء ٢٨٤
١ — داود الأنطاكي ٢٨٤
٢ — مرتضى الزبيدي ٢٨٦
٣ — الصبان ٢٩٣
الفصل الثالث : المؤرخون وأصحاب السير ٢٩٥
١ — ابن إياس الحنفي ٢٩٥
٢ — أحمد بن زنبل الرمال ٢٩٧
٣ — علي ابن نور الدين الحلبي ٢٩٩
٤ — عبد الباقي الإسحاقي ٣٠٠
٥ — محمد بن محمد بن أبي السرور البكري ٣٠١
مختارات من الشعر ٣٠٣